رجال ألقيتهم

تأليف

الشيخ فتح الله السلوادي

١٩٢٣ - ٢٠٠٠م

تحقيق

عوني فارس   خليل حامد



رجال لقيتهم

□ رجال لقيتهم
تأليف : الشيخ فتح الله السلوادي
تحقيق : عوني فارس ، خليل حامد
الطبعة الأولى : ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٧٠٨ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٥٣٥٨/ ١١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net



تأليف

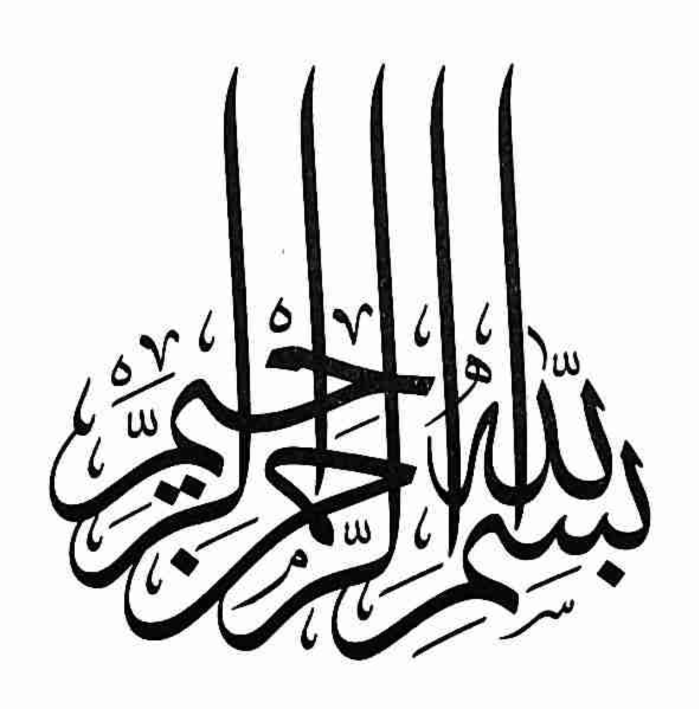
الشيخ فتح الله السلوادي

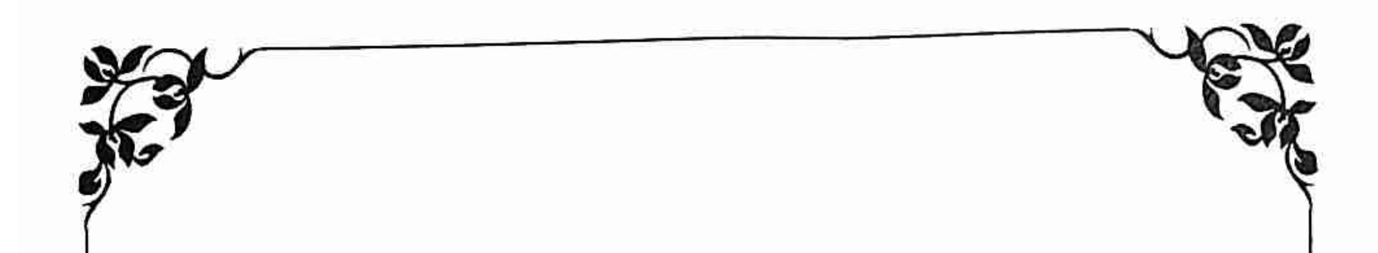
١٩٢٣ - ٢٠٠٠م

تحقيق

عوني فارس   خليل حامد




بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى جيل الأزهريين المعممين الفلسطينيين.. الذين آثروا العمل بصمت.. عيسى منون.. نمر الخطيب.. حافظ صندوقة.. توفيق جرار.. وإخوانهم.. ومن سار على دربهم.



المقدمة

اعتاد الشيخ فتح الله السلوادي نشر مقالاته وأشعاره وخواطره في الصحف والمجلات العربية والفلسطينية منذ كان طالباً في الأزهر في ثلاثينيات القرن الماضي حتى الشهور الأخيرة من حياته، وقد ترك وراءه عدداً كبيراً من المخطوطات تجاوزت الستين، تناول فيها العديد من الموضوعات؛ مثل: التفسير والفقه وسيرة المصطفى ﷺ والشعر والقصة والمسرحيات والأدب والرحلات والتراجم ومئات الخطب المنبرية المسجلة.

وللأسف لم يتسن نشر أيٍّ من هذا التراث الكبير في حياة مؤلفه، باستثناء ديواني شعر؛ هما: ديوان الخواطر (١٩٩٠) وديوان خواطر في ظلال المسجد الأقصى (١٩٩٩)، ونظراً لأهمية هذا التراث ورمزيته في الثقافة الفلسطينية المعاصرة، حيث يمثل نموذجاً من أدبيات جيل من المثقفين الفلسطينيين المعممين، فإننا نسعى من خلال هذا العمل إلى المساهمة في إعادة الاعتبار لمجموعة من علماء فلسطين الذين لعبوا دوراً مهماً في الدفاع عن الإسلام وما يمثله من قيم وفكر في مرحلة عصيبة كان يتعرض فيها لهجمة شرسة قوامها التشويه والتحريف والإقصاء.

وأجد أن من الواجب التذكير بأن هذا الكتاب لا يشكل نقطة الانطلاق تاريخيا للاهتمام بسيرة الشيخ وتراثه، فقد كانت البدايات في العقد الأخير من

القرن العشرين، حين أجرى الباحث إبراهيم حامد أول مقابلة مفصَّلة مع الشيخ مسجلة بالفيديو وذلك في آب ١٩٩٢، تبعها إعداد الباحث عمر مشعل مختصراً عن سيرة الشيخ الذاتية، نُشر في مجلة صوت سلواد في حزيران ١٩٩٣.

ثمَّ أتمَّ الباحث عفيف بدر أطروحته عن أدب الشيخ فتح الله، ونال بها درجة الماجستير في الأدب العربي من جامعة القدس عام ٢٠٠٠، كما نشرت سيرته مختصرة في أكثر من كتاب للتراجم والأعلام مثل كتاب شخصيات القدس في القرن العشرين[١]، ناهيك عن عدد من المقابلات أجرتها معه عدة مجلات وصحف، وبعض المقالات التي نشرت في تأبينه.

وقد شهد العام ٢٠١١ انطلاقة جديدة في هذا الجهد حينما نشرتُ بحثا موسعا عن ذكريات الشيخ فتح الله في الأزهر في مجلة حوليات القدس[٢]. تلاه دراسة عن حياته كاتباً ومربياً نشرتها في مجلة التراث والمجتمع[٣]، ثم دراسة أخرى عن علاقته بالإخوان المسلمين إبان دراسته في الأزهر الشريف نشرتها في نفس المجلة[٤].

---

(١) بركات، بشير، **شخصيات القدس في القرن العشرين**، القدس، مؤسسة دار الطفل العربي، ٢٠١٠.

(٢) فارس، عوني «الشيخ فتح الله السلوادي في رواق الشام»... ذكريات طالب أزهري ١٩٣٧-١٩٤٦ **مجلة حوليات القدس**، العدد ١٢، شتاء ٢٠١١، ص٢٤-٤٩.

(٣) فارس، عوني «الشيخ فتح الله السلوادي كاتباً ومربياً»، **مجلة التراث والمجتمع**، العدد ٥٥، ربيع ٢٠١٣، ص١٩٧-٢٢٦.

(٤) فارس، عوني «الإخوان المسلمون في ذاكرة الشيخ الأزهري فتح الله السلوادي»، **مجلة التراث والمجتمع**، العدد ٥٧، صيف ٢٠١٤، ص٩-٢٨.

قصة الكتاب

بدأت فكرة إصدار الكتاب عندما تفضلت عائلة الشيخ فتح الله، مشكورة باطلاعي على عدد من مخطوطاته، ومنها نسخة مصورة لمخطوطة نحتها الشيخ بخط يده، تحوي تراجم لشخصيات التقاها في حياته، من علماء وأدباء ومفكريين ونشطاء سياسيين ومسؤولين من أقطار عربية مختلفة مثل مصر وفلسطين والأردن وسوريا، وقد نشر بعض هذه التراجم في صحيفتي الفجر والقدس الفلسطينيتين في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي.

وبعد قراءة متأنية لمحتوى المخطوطة، تبيَّن لي أهميتها الكبرى، والضرورة الملحة لإخراجها في كتاب، فبالإضافة إلى ما تقدمه لنا من تراجم فإنها تمنحنا تأريخاً لجانب من الواقع الفكري والسياسي والأدبي في منطقتنا، خصوصاً في مصر وفلسطين، كما عايشه وفهمه الشيخ طوال أكثر من ستين سنة.

يحوي الكتاب على توثيق لأحداث ومواقف تشكل جزءاً أساسياً من سيرة الشيخ الذاتية التي لم تكتب بعد، ويسهم في اطلاعنا على طبيعة الحياة اليومية للطلبة الفلسطينيين الأزهريين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، واهتماماتهم المختلفة، وطرائق تعلمهم، وسلوكهم الاجتماعي، والقضايا الفكرية والأدبية التي كانت تشغل بالهم، ويبرز دورهم الفكري والسياسي والاجتماعي الذي اطلعوا به بعد تخرجهم.

والكتاب بتركيزه على أزهريي فلسطين يسد ثغرة تعاني منها الأدبيات المهتمة بالتاريخ الاجتماعي والفكري والسياسي للنخب الثقافية والفكرية الفلسطينية، تمثلت في استثناء مجموعة كبيرة من المثقفين والمبدعين ذوي الخلفيات الأزهرية، وعدم الاعتراف بهم جزءاً أصيلاً من الثقافة الفلسطينية، فالكتاب محاولة لرد الاعتبار لنخب فلسطينية معممة، بما تحمله من رمزية فكرية وأدبية.

لقد ضم الكتاب الكثير من الموضوعات الهامة، ففيه حوارات فكرية وفلسفية شغلت كثيرين من أبناء ذلك الجيل، ظهر ذلك جلياً في ترجمة الشيخ لعلماء ومفكرين مثل محمد عبد الحليم محمود ومحمد مصطفى المراغي وعيسى منون ومحمد الغزالي..

وتناول بعض الأحداث السياسية والتجارب الحزبية والثورية في مصر وفلسطين والعراق في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، كما في ترجمة حسن البنا ومصطفى السباعي وحافظ صندوقة وتقي الدين النبهاني..

وبيّن جانباً من الهموم الثقافية والأدبية التي اطلع بها مثقفون وأدباء وشعراء فلسطينيون وعرب في حقب زمنية مختلفة، مثلما جاء في ترجمة أحمد الشرباصي وأحمد رامي وحسن البحيري وعارف العارف..

وصوّر مشاهد من واقع التربية والتعليم في فلسطين إبان الانتداب، كما في ترجمة ربحي العارف وتوفيق أبو السعود وعبد الطيف عابدين وإبراهيم أنشاصي وعلي صبري.. وأعطى نبذة مهمة عن واقع الصحافة في فلسطين منذ خمسينيات القرن الماضي حتى أواخر تسعييناته، خصوصاً في ترجمة محمود أبو الزلف ويوسف النجار..

ملاحظات مهمة حول تحرير الكتاب

أسجل هنا بعض الملاحظات الضرورية حول المنهجية العلمية التي اتبعت في تحقيق الكتاب، فقد قام الأخ أيمن الحلح، مشكوراً، بصف المخطوطة على الحاسوب، ثم شرعت وزميلي خليل حامد بتحقيق المادة، فقمنا أولا بتقسيمه إلى أربع مجموعات، تضم الأولى الأزهريين المصريين والعرب، وتحوي الثانية الأزهريين الفلسطينيين، أمَّا المجموعة الثالثة فكانت لساسة وشعراء وكتاب وأكاديميين فلسطينين وعرب، الرابعة ضمت أساتذة ومربين فلسطينيين. ورتبنا أسماء كل مجموعة حسب الحروف الهجائية.

حرصنا على وضع كل إضافاتنا في المتن بين قوسين بهذا الشكل: [ ] لتمييزها عن عمل المؤلف، ولم نضع أي إشارة إلى جهدنا في الحواشي؛ نظراً لأنَّ كل ما ورد فيها هو من عملنا، وفسرنا ما غمض من الكلمات، واقترحنا بدائل لما نقص منها، وخرَّجنا الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة من أحاديث موقوفة على الصحابة وأمثال فصيحة وعامية، ووضعنا تخريج الآيات داخل المتن لتمييزها عن باقي الكلام.

ووضعنا في مقدمة كل مقالة ترجمة مختصرة للشخصية، ليسهل التعرف عليها قبل الشروع في قراءتها، وكنا إذا تكرر ذكرها في المتن نشير في الحواشي إلى مكان ترجمتها فقط. في حين نترجم للأعلام المذكورين في المتن - والذين لم

يفرد لهم المؤلف مقالة خاصة ـ مرة واحدة فقط، ولا نشير إلى مكان ترجمتهم إذا ما ذكروا مرة أخرى، وأمّا الأعلام الذين لم نتمكن من الترجمة لهم فأشرنا إليهم بوضع علامة (*) على آخر الاسم.

أمّا بخصوص التواريخ المرتبطة بالأعلام فقد دونا التاريخين الهجري والميلادي للأعلام المتقدمين، والتاريخ الميلادي فقط مع المتأخرين، واحتفظنا بتوثيق الأعلام دون إبرازها في الحواشي.

ورغم ما توخيناه في هذا العمل من جهد ودقة، إلا أنه يبقى عملاً بشرياً قاصراً، فما كان فيه من صواب فمنة من الله تعالى وفضل، وما كان فيه من خطأ وزلل فمن أنفسنا.

ذي الحجة ١٤٣٥هـ

الموافق تشرين أول ٢٠١٤م

عوني فارس

الشيخ فتح الله السلوادي... سيرة حياة[١]

ولد فتح الله حسن محمد السلوادي في مدينة حيفا عام ١٩٢٣[٢]، على إحدى تلال جبل الكرمل[٣]، والده حسن محمد عواد، فلاح فلسطيني من قرية سلواد[٤]،

(١) اقتبست السيرة الذاتية للشيخ فتح الله السلوادي من فارس، عوني «الشيخ فتح الله السلوادي في رواق الشام... ذكريات طالب أزهري ١٩٣٧-١٩٤٦» مصدر سابق، ص٢٤-٤٩.

(٢) مقابلة مسجلة بالفيديو مع الشيخ فتح الله السلوادي في ١٦/ ٧/ ١٩٩٢، أجراها الباحث إبراهيم حامد.

(٣) تطابقت بعض المصادر مع ما جاء في المقابلة التي أجراها إبراهيم حامد مع الشيخ فتح الله السلوادي مثل: بشير بركات، مصدر سابق، ص٥٥. في حين اعتبرت بعض المصادر أن ولادته كانت في سلواد مثل: شاهين، أحمد عمر، **موسوعة كتّاب فلسطين في القرن العشرين**، غزة، منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق، ط٢، ٢٠٠٠م، ص٥٥٨. وأرى أن السبب عائد إلى أن الشيخ فتح الله فضّل، كما صرح بنفسه في المقابلة المذكورة أعلاه، أن يسجل في أوراقه الرسمية أنّه من مواليد سلواد.

(٤) تقع بلدة سلواد إلى الشمال الشرقي من رام الله وتبعد عنها ١٣ كم، وهي إلى الغرب من تل العاصور، ترتفع حوالي ٩٠٠ متر عن سطح البحر، وهي ملاصقة لقرى المزرعة الشرقية ويبرود ودير جرير وعين يبرود، وينحدر سكانها من قبيلة بني مرة التي نزحت من شرق الأردن، وفيها ثلاث عائلات كبيرة هي حامد وحمّاد وعيّاد، وفيها بلدية منذ العام ١٩٦٤، واشتهرت بزراعة التين والعنب والزيتون، بلغ عدد سكانها عام ١٩٣١ حوالي ١٦٣٥ نسمة (الموسوعة الفلسطينية)، في حين بلغ عدد سكانها عام ٢٠١٢ حوالي ٨٠٠٠ نسمة (مركز الإحصاء الفلسطيني)، ويوجد فيها ٣ مدارس للإناث ومدرستان للذكور ومدرسة ابتدائية خاصة وعدد =

عرف برقة مشاعره وسرعة تأثره، وقد كان مغرماً بالربابة واليرغول، تنهال الدموع من عينيه عندما يبدأ بالنفخ فيهما[١]، وأمُّه عائشة خالد عوض من قرية سلواد أيضاً، وقد عُرف عنها ارتجالها الزجل الشعبي وتغنّيها به في الأعراس[٢]. وتعود تسمية الشيخ فتح الله بهذا الاسم تيمناً بفتح الله استيتية صديق العائلة في حيفا[٣].

انتقل والداه للعيش في حيفا في النصف الأول من القرن العشرين، حيث عمل والده بائعاً متجولاً، ثمَّ اشتغل في نقل الماء إلى الأحياء الحيفاوية، وعمل أيضاً عاملاً في البلدية[٤]. وقد تركت الحياة في حيفا أثراً كبيراً في نفس الطفل فتح الله، وظلت ذكريات طفولته فيها ماثلة بين ناظريه حيث يقول عن ذلك: «صورة بحر حيفا لا تزال منطبعة في خيالي، فأمواجه الهدارة وشاطئه المزدحم ولا سيما أيام الأعياد، كل ذلك لم يبارح خيالي حتى الآن، اجتماعات أهل سلواد في حيفا في مشاكلهم العامة أو مباهجهم العامة لا تزال أيضاً منطبعة في ذهني. والبحر الخضم يحيط بجبل الكرمل والسفن يظهر ضوؤها في الليل. والناس في بهجة على فقرهم وقلة ما معهم»[٥].

درس الشيخ فتح الله أربع سنوات في مدرستي السباعي والإرشاد الإسلامي،

= من المؤسسات الأهلية منها نادي سلواد وجمعية خريجي المعاهد والجامعات الفلسطينية وجمعية سيدات سلواد، وقد عرفت سلواد في منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ببلد المشايخ لكثرة طلابها الدارسين في الأزهر، كما عرفت بسلواد القطين، لكثرة انتاجها لفاكهة التين.

(١) مقابلة مع هالة فتح الله حامد (ابنة الشيخ فتح الله السلوادي)، بتاريخ ١/ ١٠/ ٢٠١١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مقابلة مع لبنى فتح الله حامد (ابنة الشيخ فتح الله السلوادي)، بتاريخ ٢٣/ ١٠/ ٢٠١١.

(٤) مقابلة مع عائشة عمر يوسف قراعين (زوجة الشيخ فتح الله السلوادي)، ٣/ ٩/ ٢٠١١.

(٥) حامد، مصدر سابق.

وكان يداوم على سمـاع خطب الشيخ عز الدين القسام، ودروس الشيخ صالح الحوراني[١]، ثمَّ انتقل للدراسة في المدرسة الأميرية في سلواد[٢]، حيث أنهى فيها الصف الرابع، وقد عرف عنه نبوغه في التحصيل الدراسي وولعه بالمطالعة وحفظ الشعر[٣].

التحق بالأزهر في شهر نيسان من العام **١٩٣٧**، بصحبة طالبين هما الشيخ جمعة السلوادي والشيخ جبر العين يبرودي، وقد بقي في الأزهر تسع سنوات، نال في السنة الأولى شهادة الأهلية، وفي السنة الثانية شهادة العالمية، وبعد أربع سنوات شهادة العالية من كلية اللغة العربية، ثم نال شهادة أخرى من قسم التربية[٤].

عاد الشيخ فتح الله السلوادي إلى فلسطين في العام **١٩٤٥**، والتحق بسلك التدريس في المدارس الثانوية، فدرَّس في مدارس الرملة الثانوية في مدينة الرملة، وفي المدرستين الرشيدية والعمرية في القدس، وفي مدرسة رام الله الثانوية في مدينة رام الله، ومدرسة سلواد الثانوية في بلدة سلواد، إلى أن تقاعد في العام **١٩٨٢**.

عمل الشيخ مقدماً للبرامج في إذاعة عمـان منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي، وخطيباً في مساجد محافظة رام الله والبيرة منذ العام **١٩٦٧**، ثمَّ خطيباً في المسجد الأقصى منذ العام **١٩٨٨**[٥]، كما شغل منصب الإفتاء في محافظة رام الله

---

(١) حامد، مصدر سابق.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مشعل، عمر موسى، «أهل العلم في سلواد عبر قرنين»، **مجلة صوت سلواد**، (حزيران **١٩٩٣**)، ص**٣٠**.

(٤) حامد، مصدر سابق.

(٥) المصدر نفسه. بدأت علاقة الشيخ فتح الله السلوادي بمدينة القدس قبل النكبة، إذ سكنها =

والبيرة منذ العام ١٩٩٥ حتى وفاتـه في ٤/ ٦/ ٢٠٠٠[(١)].

ويُقدَّم الشيخ فتح الله السلوادي في الساحة الأدبية والثقافية الفلسطينية على أنَّه شاعر الوطنيات والـحكمة والمناسبات لا سيمـا الدينية منها[(٢)]، حيث بدأ بنحت الشعر وهو في الرابعة عشرة مـن عمره، وقد أهَّلته موهبته الشعرية، وعلاقته بالعديد من الشعراء والأدباء والصحفيين المصريين، لنشر أولى قصائده في المجلات المصرية كالأنصار القاهرية ومنبر الشرق والأهرام وغيرهن.

كما طوّر قدراته الشعرية بعد عودته إلى فلسطين، فاستمر في نظم الشعر، ونشر قصائده في الصحف الفلسطينية كالجهاد والدفاع وفلسطين والفجر والقدس، وقد صدر له ديوانان مطبوعان هما ديوان الخواطر الصادر عام ١٩٩٠،

= وعمل مدرساً في مدارسها، وتزوج من إحدى بناتها، ثمَّ توطدت العلاقة مع القدس أكثر بعد أن أصبح خطيباً للمسجد الأقصى، وكان له إسهاماته في الحياة الدينية والثقافية فيها، وهذا برأيي ما دفع الباحث بشير بركات لتصنيفه كأحد شخصيات القدس في القرن العشرين.

(١) روى لي الشيخ عكرمة صبري في مقابلة معه تمت بتاريخ ٢/ ١٠/ ٢٠١١ أنه قام بتعيين مجموعة من الأزهريين في منصب الإفتاء في مـحافظات الضفة الغربية وقطاع غزة عام ١٩٩٥، تصادف أنهم كانوا زملاء في الأزهر في ثلاثينيات القرن الماضي، وهم الشيخ فتح الله السلوادي في دار الإفتاء في رام الله، والشيخ توفيق جرّار في دار الإفتاء في جنين، والشيخ هاشم صبري في دار الإفتاء في قلقيلية، والشيخ مشهور الضامن في دار الإفتاء في نابلس، والشيخ كمال الآغا في دار الإفتاء في غزة، وأشار الشيخ عكرمة صبري إلى أن الشيخ فتح الله السلوادي أبدى عدم رغبة في قبول المنصب في بداية الأمر.

(٢) للمزيد من المعلومات حول موضوعات شعر الشيخ فتح الله السلوادي وخصائصه الأدبية، يراجع:عبَّاد، عبد الرحمن، **شاعر الأقصى المرحوم فتح الله السلوادي**، جريد القدس، الجمعة ١٠/ ١١/ ٢٠٠٠. وأيضًا: عفانة، إبراهيم، **الشيخ الشاعر الحكيم**، جريدة القدس، الجمعة ١٠/ ١١/ ٢٠٠٠.

وديوان خواطر في ظلال المسجد الأقصى الصادر في العام **١٩٩٩**.

والشيخ فتح الله السلوادي كاتب مثابر، اعتاد نشر مقالاته بانتظام في الصحف الفلسطينية طوال أكثر من نصف قرن من الزمان، والتي عالج فيها مختلف القضايا الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، إضافة لعضويته في هيئة التحرير في المجلات الدينية الفلسطينية، مثل: هدى الإسلام والإسراء، وقد ربطته علاقة ود وصداقة مع كبار الشعراء والأدباء والكتّاب الفلسطينيين، وله العديد من المؤلفات المخطوطة.

ولابد من الإشارة أخيراً إلى أن الشيخ فتح الله السلوادي حفظ القرآن الكريم، وعدة دواوين من الشعر كديوان المتنبي وأبي فراس الحمداني وأبو القاسم الشابّي، وكان مولعاً باقتناء الكتب، فكان في مكتبته الخاصة ما يزيد عن تسعة آلاف وخمسمائة وخمسة وعشرين كتاباً ما بين مجلد وغير مجلد، وما يزيد عن ألف مجلة ثقافية[1].



(١) بدر، مصدر سابق، ص٢١.

المجمُوعة الأولى

الأزهريّون المصريّون والعرَب

الشيخ إبراهيم القطان

(١)

[إبراهيم يسن القطان (١٩١٩-١٩٨٤): وزير التربية والتعليم الأردني السابق، ولد في عمان، نال شهادة العالمية من الأزهر عام ١٩٣٩، عرف بنشاطه النقابي داخل الأزهر، تقلد عدة مناصب، منها قاضي القضاة وسفير الأردن في المغرب والباكستان، له العديد من المؤلفات منها تيسير التفسير].

كنت طالباً بادئاً في الأزهر الشريف[١] أتلهف على العلم والمعرفة أسعى لهما بشوق وعزيمة.

وكان الأزهر الشريف ولا سيما القسم العام.. لا يزال مستمسكاً بالطريقة القديمة من نظام الحلقات.. يجلس فيها الشيخ على كرسي يوضع بجانب عمود من عمد الأزهر ويوجه إلى القبلة تيمناً بالتوجه في الصلاة ويلتف الطلاب حول

---

(١) الأزهر: أقدم جامعة إسلامية عرفها التاريخ، بنيت في العهد الفاطمي، بدأ التدريس فيها عام (٣٦١هـ-٩٧٢م)، وقد زادت أهميتها كمنارة للعلم الشرعي مع توالي الأزمان، أضيفت لها العديد من المناصب والهيئات؛ مثل منصب مشيخة الأزهر عام ١٦٩٠، وهيئة كبار العلماء عام ١٩١١، التي أصبح اسمها لاحقاً جماعة كبار العلماء، وقد تحول الأزهر إلى جامعة حديثة في العام ١٩٣٠، عندما افتتحت فيه كليات ثلاثة، هي: الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، أمَّا الآن فيحوي على ٦٢ كلية، موزعة في ٢٣ مدينة جامعية، تضم مئات الآلاف من الطلبة، وللمزيد من المعلومات عن جامعة الأزهر، انظر: الموقع الإلكتروني للجامعة: http://www.azhar.edu.eg/

الشيخ جالسين على حصير مفروش على أرض الأزهر الشريف. والأزهر متسع.. والشيوخ كثيرون.. والحلقات متعددة.

ومع كثرة الشيوخ.. فلم يكونوا جميعاً على مستوى واحد عرضاً وتحليلاً للموضوع وحسن عرض في الأسلوب.

ومن هنا كان الطلبة البادئون إذا استصعب أحدهم قضية علمية.. لجأ إلى قدامى الطلبة يستوضح منهم عما غمض وصعب فهمه من القضايا.

كان الطالب القديم إبراهيم يسن القطان من هؤلاء الطلبة الذين يسعفون الطلاب البادئين. ويقدمون لهم المعونة شرحاً وتفهيماً.. كان ذلك الشأن في سنوات الثلاثينات.

وكان الطالب إبراهيم القطان صاحب سمت وقور.. محافظاً على جبته وعمامته.. لا يترخص بتركهما إلا إذا كان في حجرة إقامته من حجر رواق الشوام[1].. وكان يؤم منزلَه الطلاب النابهون المتميزون علمًا وأدباً من الأزهر الشريف أو الجامعة المصرية أو مدرسة دار العلوم. (هكذا كانت أسماؤها في تلك الفترة) كنا نرى في منزله علي شلق[2] وصلاح الأسير[3] الشاعرين.. وناصر

---

(١) رواق الشام: أنشأ السلطان قايتباي رواق الشام سنة ٧٣٩هـ وهو مقر للطلاب الوافدين من بلاد الشام، وكان أكثرهم من الفلسطينيين، فمن بين ٢٢٢ طالباً، كان عدد الفلسطينيين ١٣٥ طالباً. للمزيد من المعلومات عن رواق الشام، انظر: زيتون، محمد شتا، «تأثير الأزهر في الخارج بين الماضي والحاضر»، مجلة الأزهر، الجزء التاسع، السنة الخامسة والخمسون، يونية (حزيران) ١٩٨٣.

(٢) علي شلق (١٩١٥-٢٠٠٨): أديب لبناني، تخرج من الأزهر، ونال الدكتوراة في الأدب العربي من جامعة السوربون، اشتغل بالتدريس في لبنان وسوريا، أسهم في العديد من البرامج الإذاعية والصحفية والمسرحية، له العديد من المؤلفات.

(٣) صلاح الأسير (١٩١٧-١٩٧١): شاعر لبناني، نال شهادة البكالوريا في بيروت عام ١٩٣٩، =

الدين الأسد[١] وهاشم الياغي[٢] ومحمد عبده هاشم[٣] ونمر الخطيب[٤] ومحمد حرب* ومصطفى السباعي[٥] ونسمعهم في حجرة الشيخ إبراهيم يتحاورون ويتباحثون في جد وإخلاص. وكان البادئون ينظرون إلى هؤلاء السابقين نظر إكبار وإعجاب.

وفي الحق كان هؤلاء الطلبة السابقون على جانب من المعرفة والدراية.. وعلى أساس من الثقة بالنفس.. والتهيؤ النفسي. يملأون النفس إكباراً وإعجاباً.. ويثيرون في المشاعر كل تقدير واحترام.

حدثني ذات يوم زميل.. واسمه إن لم تخني الذاكرة الشيخ علي يس*.. قال كان الشيخ ورفاق معه يقرأون في مجلة الأنصار قصائد نشرت فيها وكان من [القصائد] قصيدتك (قَوْمِي) وقد ميزوا قصيدتك على سائر ما نشر في المجلة من

= عمل محرراً في عدة مجلات، شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية العربية، صدر له ديوان شعر والعديد من القصائد المنشورة في المجلات.

(١) ناصر الدين الأسد (١٩٢٢): رئيس الجامعة الأردنية سابقاً، ولد في العقبة، حصل على الدكتوراة من القاهرة، شغل عدة مناصب سابقاً منها سفير الأردن في السعودية، عضو في عدد من المجامع العلمية، له عدة مؤلفات.

(٢) هاشم ياغي: مدرس جامعي فلسطيني، ولد في المسمية الكبيرة عام ١٩٢١، حصل على شهادة الدكتوراة في الآداب العربية من جامعة القاهرة عام ١٩٦٠، عمل مدرساً في أكثر من جامعة عربية، ثمَّ استقر به المقام في الجامعة الأردنية، له العديد من المؤلفات المنشورة.

(٣) انظر ترجمة هاشم في مقالة محمد عبده هاشم، ص١٧٢.

(٤) انظر ترجمة الخطيب في مقالة محمد نمر الخطيب، ص١٧٧.

(٥) انظر ترجمة السباعي في مقالة مصطفى السباعي، ص١٠٠.

شعر بما لها من جرس وإصابة للهدف وعذوبة في الأسلوب وقال الشيخ إني أتنبأ لهذا الطالب بمستقبل في الشعر جيد.

لقد سررت لهذا الإطراء من الشيخ إبراهيم الأديب المعروف بين زملائه وأحسست بالزهو والثقة بنفسي.

ولا أزال أذكر هذه الأبيات من القصيدة المشار إليها:

قومي.. ونِعْمُ القوم آسادُ الشَّرى(١)
وأولو القِرى.. وذوو الذيول النصَّعِ

ليسوا الغفاة.. وإن بدَوا في منتأى
عن مجدهم.. لكِنْ ليومٍ مزمعِ

ليست إياةُ الشمس تشرق في الضحى
إلا سنا بعد الظلام المفزعِ

وسيرجعون إلى سوابق مجدهم
رغم العُداة.. ورغم كيد المدعي

إن العروبة ثورةٌ.. بركانها
سيثور.. يمحق كلَّ عاتٍ أجشعِ

نعم إن ثناء الشيخ إبراهيم رحمه الله هو محض تشجيع.. وإن كنت أنا أرى

---

(١) ورد في لسان العرب أن الشرى: «موضع تنسب إليه الأُسْد، يقال للشجعان: ما هم إلا أسود الشرى، قال بعضهم: شرى؛ موضع بعينه تأوي إليه الأسد» ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط١، سنة النشر: بلا. وأشير إليه: ابن منظور، مصدر سابق، ج/ ص١٤/ ٤٢٧.

فيها المحاكاة الواضحة.. والغلو البادي.. والتأثر بغيري من السابقين.. وإن كانت بالنسبة لما نشر معها من شعر متكلف.. وتلفيق ليس له من حظ إلا الوزن تعتبر متميزة بادية التميز.

حضرت الشيخ ذات يوم.. وهو يلقي قصيدة من شعره تحية للزعيم الفلسطيني عبد اللطيف صلاح[١]. فسر بها الزعيم ونالت إعجاب الحاضرين. قال لي يوماً.. وقد لقيته صدفة في ردهة الرواق: يا فتح الله أخبرك بأن المكتبة التجارية.. أخرجت مطابعها ديوان شاعر العربية الأكبر المتنبي[٢] بشرح الشيخ عبد الرحمن البرقوقي[٣].. فأنصحك باقتنائه والتلمذة عليه.. فشكرت الشيخ واعتبرت قوله إشرافاً على البادئين وإرشاداً.. فبادرت إلى المكتبة واشتريت الديوان.. وأخذت أحفظ وأقرأ فيه.. متفهما شرح البرقوقي.

ولقيت الشيخ مرة أخرى وسألته: هل من نصيحة تتفضل بها في شراء ديوان أو كتاب أدبي؟

---

(١) عبد اللطيف صلاح (١٨٨٢-١٩٥٤): سياسي فلسطيني، من مواليد نابلس، درس في كلية الحقوق في إسطنبول، أصبح أول رئيس لمعهد الحقوق في دمشق، عمل في المحكمة الشرعية العليا في نابلس، أسس حزب الأهالي عام ١٩٢١، أسس وقاد الكتلة الوطنية، عضو الهيئة العربية العليا، توفي في نابلس.

(٢) أحمد بن الحسين أبو الطيب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤هـ = ٩١٥-٩٦٥م) الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، ولد بالكوفة، ونشأ بالشام، من شعراء بلاط سيف الدولة الحمداني أمير وصاحب حلب، قتله هجاؤه ضبة بن يزيد الأسدي، وله ديوان شعر.

(٣) عبد الرحمن بن عبد الرحمن البرقوقي(١٨٧٦-١٩٤٤م): أديب مصري، درس في الأزهر، تأثر بالشيخ محمد عبده، وأصدر مجلة البيان الشهرية، وله العديد من المؤلفات؛ منها: شرح ديوان المتنبي.

قال: اقتن كل ما يروق لك.. واحفظ كل ما تتأثر به.. واحرص على شعر الشريف الرضى[١] وشعر ابن الرومي[٢]. قلت مجيباً: ديون ابن الرومي موجود.. وديوان الشريف لم أعثر عليه بعد.. وأسأل الله أن يعينني على لقياه. قال: لقد طبع في بيروت.. وربما يكون موجوداً في مصر.



(١) محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي (٣٥٩-٤٠٦هـ = ٩٧٠-١٠١٥م): من أشهر شعراء آل البيت، مولده ووفاته في بغداد، له ديوان شعر في مجلدين، وكتاب الحسن من شعر الحسين وغيرها.

(٢) علي بن العباس بن جريج، أو جورجيس، الرومي، أبو الحسن (٢٢١-٢٨٣هـ = ٨٣٦-٨٩٦م): شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل، ولد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموماً، له ديوان شعر، اختصره كامل الكيلاني وسمى المختصر «ديوان ابن الرومي».

الشيخ إبراهيم القطان

(٢)

حينما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني[١] رحمه الله على الإنكليز في العراق. فرح لها شباب الأزهر. وفرح الشعب المصري كله.. وأخذت الصحف تنشر أنباءها أولاً بأول.. والناس في مصر يترقبون التطورات.. ويعلقون الآمال. ظهرت الثورة أمراً مباركاً.. ووطنية ثائرة. قد تنقذ بلادنا كلها من ويلات الاستعمار. ولكن واأسفاه لم يقدر لهذه الآمال المرجوة أن تزدهر!

في هذه الفترة كان الشيخ إبراهيم القطان ومعه رفاق من طلاب الأزهر الشوام.. قد وجهت إليهم تهمة تحريض الشعب المصري الشقيق.. على التظاهر والثورة ضد الإنكليز واستعمارهم في كل مكان.

وأودع هؤلاء الزملاء الثمانية[٢] السجن تمهيداً لمحاكمتهم وتسفيرهم إلى

---

(١) رشيد عالي الكيلاني (١٨٩٢-١٩٦٥): سياسي وقائد عسكري عراقي، اشتغل في سلك القضاء، وأستاذاً في كلية القانون، عمل وزيراً في أكثر من حكومة عراقية، ورئيساً للديوان الملكي، وثّق علاقاته مع الحاج أمين الحسيني، قام بثورة ضد الوجود البريطاني في العراق، غادر العراق ورجع إليها بعد ثورة عام ١٩٥٨، توفي في لبنان.

(٢) هم: مصطفى السباعي ومشهور الضامن وإبراهيم القطان وراتب الدويك وهاشم الخازندار ويوسف المشاري وفارس حمدان وعلي الدويك. للمزيد من المعلومات عن الحادثة، انظر: =

بلادهم. وتدخل الإمام محمد مصطفى المراغي[1] شيخ الأزهر حينئذ للإفراج عنهم ولكن لم يجد سبيلاً لذلك.

كانت السنة الدراسية قد شارفت نهايتها.. وكان أكثر هؤلاء المعتقلين في سنوات الدراسة النهائية.. وسمح لهم بتأدية الامتحان وهنا نشأ خلاف.. وزارة الداخلية تصر على أن يكون الامتحان داخل حجر السجن.

وهؤلاء الأخوة المعتقلون ومعهم إدارة الأزهر الشريف. يصرون أن يكون أداء الامتحان في قاعات الامتحان المعدة له.

وتغلب رأي إدارة الأزهر.. على أن يذهبوا في سيارة كبيرة مغطاة الظهر والجوانب. مخفورة بثلة من رجال الأمن والشرط.

وانتهت فترة الامتحان بنجاحهم.

واحتفل زملاؤهم في الرواق بنجاحهم جميعاً وحمدوا الله شاكرين.

وسافروا أو سفِّروا.. كل إلى بلده.. وهكذا نعيش غرباء في بلادنا.. والحكم لسلطان الأجنبي المتغطرس الغريب.

وعين في التربية والتعليم.. وكانت القومية العربية إبانها في أوج نشاطها في النفوس.. وكان الشيخ رحمه الله من أبرز دعاتها تعليماً وأدباً وحديثاً في المجالس ودار الإذاعة والصحافة.

كان رضيَّ الأخلاق متواضعاً كريمـاً. بالإضافة إلى واسع علمه ودقته في

= العقيل، المستشار عبد الله، **من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة**، بيروت، دار البشير، ط٧، ٢٠٠٨. ص١١٥١.

(١) انظر ترجمة المراغي في مقالة محمد مصطفى المراغي، ص٨٧.

مسائله. رأيت له في الأسواق مجلداً ضخماً يعدد فيه الأخطاء في المعجم المسمى بالمنجد[١]. مما يدل على سعة اطلاعه وتعمقه في علم العربية.

ولقد تسارع في سلم الترقيات فكان مفتشاً، فمديراً للتربية، فوزيراً للتربية والتعليم.

ولقد كان الشيخ إبراهيم القطان في كل ذلك وهو الشيخ إبراهيم القطان. لطفاً، وذوقاً، وتواضعاً، وسداد رأي.. ومعرفة وتقديراً لزملائه.

لقد كان يعرض علي أن ينقلني لمدارس عمان.. لقد كان يقول أريدك أن ترجع للدراسة سنة أو سنتين لتنال من الأزهر الشريف شهادة الدكتوراة في العربية.. وتأخذ كرسيك المعد لك في الجامعة.

فكنت أجيبه بالرفض الجازم، والسبب أمران الأول: والدتي المريضة العاجزة. والتي لا تستريح إلى خدمة أحد كما تستريح لخدمتي إياها. والثاني: ضعف جسمي عن الحركة والوقوف بسبب تليف الوريد في رجلي.. فأنا أشرح وأعلم أكثر وقت الشرح والتعليم قاعداً. واضعاً رجلي على كرسي مواز للكرسي الذي أجلس عليه.. فاقتنع رحمه الله بوجهة نظري.

سألني مرة عن ابني الدكتور حسن[٢] وكان متفوقاً في دراسته. وكان قد

---

(١) صدرت الطبعة الأولى للمنجد عام ١٩٠٨، بعنوان المنجد معجم عربي مدرسي مع رسوم، ألفه الأب لويس معلوف اليسوعي، وقد طبع أكثر من مرة، للمزيد من المعلومات، انظر: اليسوعي، الأب لويس معلوف، **المنجد في اللغة والإعلام**، بيروت، دار المشرق، ط٣٨، ٢٠٠٠. أما كتاب القطان فهو بعنوان: «عثرات المنجد».

(٢) حسن فتح الله السلوادي (١٩٥٨): ولد في سلواد، أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٧٥، عمل طبيباً =

أنهى دراسته الثانوية.. فأجبته هو يحب أن يكون طبيباً وأنا أتمنى له أن يحقق له الله ما يحب.. وقد عرض عليه مقعد بعثة في الجامعة الأردنية لكن على أن يكون طالباً في كلية العلوم.. وهو يريد أن يدخل كلية الطب.

كان الشيخ إذ ذاك سفيراً أردنياً في الحكومة الشقيقة باكستان. فأجابني هل تحب أن يكون ابنك طالباً في طب باكستان على أن لا يكلفك ذلك شيئاً في الدراسة أو النفقة على معاشه؟ ثم سيكون كأحد أولادي في بيتي؟ فنظرت إليه في دهشة ورأيتني أمام كرم أخوي فياض فشكرته وتمنيت له الخير.. وقلت له: أنت والله يا أبا عماد للكبريات العظام من المعروف.

وحادثت أخي وصديقي الشيخ محمد عبده هاشم[1] بعرض الشيخ القطان فأجابني فوراً قائلاً: هو والله صادق. وهو يقصد ما يقول.. وهو أهل للفضل. رحمك الله يا أبا عماد.. فقد كنت أهل فضل وبر.. ولا تزال ذكراك مقرونة بالترحم والدعاء..



= في مستشفى المقاصد الخيرية، حاصل على البورد الأمريكي في عدة تخصصات منها الأمراض الباطنية وأمراض القلب والقسطرة، وهو أستاذ مساعد في الأمراض الباطنية، مقيم في أمريكا.

(١) انظر ترجمة عبده في مقالة محمد عبده هاشم، ص١٧٢.

الدكتور الشيخ أحمد الشرباصي

(١)

[أحمد الشرباصي (١٩١٨-١٩٨٠): عالم أزهري مصري، نال شهادة العالمية من الأزهر في العام ١٩٤٥، حصل على شهادة الدكتوراة في الأدب والنقد، عمل مدرساً في العديد من المعاهد الأزهرية، أسندت إليه أمانة الفتوى في الأزهر، زار فلسطين في إطار اجتماعات المؤتمر الإسلامي بيت المقدس، نشطت في جمعية الشبان المسلمين في القاهرة، وله العديد من المؤلفات].

في سنة ١٩٣٧ كنت حديث عهد بالانتساب للأزهر الشريف. وفي تلك السنة ذاتها وقع بين يدي كتاب مع بائع للكتب في صحن الأزهر. واسمه (بين صديقين) تأليف الطالب الأزهري أحمد الشرباصي، وهو طالب في السنة الثانية الثانوية في معهد الزقازيق الديني الأزهري.

يقوم الكتاب على تبادل الرسائل بين طالبين. أحدهما يسأل متعجباً عن أوضاع معينة. والآخر يشرح ويجيب مرشداً إلى ما يراه حلاً.

ويبدو أن الكتاب عرض على شيخ الأزهر الإمام المراغي[1].. فراقه ما فيه ذكاء متفتح. ونفس مستشرقة إلى الحياة الكريمة.

---

(١) انظر ترجمة المراغي في مقالة محمد مصطفى المراغي، ص٨٧.

والصديقان المتحاوران هما شخص واحد. هو المرحوم الشيخ الشرباصي. وما كان من الإمام إلا أن أمر بطبع الكتاب على نفقته هو.. ثم أشار بإقامة حفلة تكريم لهذا الطالب.

وفي الكتاب صورة الطالب الصغير بلباسه الأزهري بين الشيخين. شيخ الأزهر وشيخ المعهد الديني في الزقازيق.

أعجبت بالطالب الأزهري وقرأت ما كتب.. وكنت في إكبار بالغ لما صنع فضيلة الأستاذ الأكبر رحمه الله.

ولقيت في الأزهر أزهرياً أديباً من مصر. أنست به وأنس بي.. وأطلعني على مقالة منشورة في بعض الصحف. فأكبرت أن ينشر طالب في الصحف. وتوثقت العلاقة بيننا فزارني في حجرتي في الرواق. وذهبت أنا وبعض الزملاء نرد له الزيارة. وكان في حجرته طالب ثان يبدو عليه الاعتزاز بنفسه والجراءة في المنطق إذا تكلم.. وسأله زميلي: من حضرة الأخ؟ فأجاب: أحمد الشرباصي. الطالب بكلية اللغة العربية.

فقلت مندفعاً مقاطعاً: أنت أحمد الشرباصي صاحب كتاب بين صديقين؟

قال: نعم.

فلم يسعني إلا أن أبدي أعجابي به. وبقوة تطلعه إلى المستقبل.

فقال بسرعة: إنما يعرف الفضل من الناس ذووه.

قلت: أستغفر الله. هذا من لطفك.. ومع ذلك فقولي عنك هو الواقع.

فقال: أنتم الأخوة الشوام أهل أدب وتفنن في أنواع الأدب.

قلت: ومصر هي المعلم. وهي المورد الأصيل.

قال: هل حاول أحد منكم نظم الشعر؟

فقال زميلي: أخونا الشيخ له بعض محاولات.. وهو كأي بادئ يُنتظر له إذا جد مستقبل.

فألح الشرباصي قائلاً: هات أسمعنا.

وترددت في الاستجابة.. لقد كانت في جيب جبتي قطعة من الشعر قلتها متشوقاً لأهلي. ولكن سخر منها بعضهم. واعتبرها آخرون كلاماً فارغاً. وأخرجتها من جيبي وقرأتها وأنا أتوقع أن يهزأ بها من يستمع إليها.

وفوجئت بقول الشرباصي: هذا هو الشعر. هذا تعبير صادق عن أحاسيس النفس وعواطفها.. إن من لا يرضى عن هذا الشعر. فلعلة في نفسه لا في هذا الشعر. وقلت: ألست تبالغ يا صديقي؟ قال: لا أبالغ.. أتحب أن تنشرها في مجلة؟ وقلت: نعم.. إذا كانت صالحة للنشر.

وبعد أسبوع رأيتها منشورة في مجلة تصدرها كلية الحقوق إحدى كليات الجامعة المصرية.

ولقد ضاعت القصيدة ولم يبق في ذاكرتي منها إلا هذه الأبيات:

يـا خليـليَّ.. والبعـاد مـؤسي ... زاد وجدي وزاد حزني وبؤسي

أيـن أمـي؟ لم أحتمـل بعد أمي ... صوتهـا لـم يزل يشـيع بحسي

لم أعـد أسـتطيع بعـداً عن الأم ... فأمـي إسـعاد نـفسي وأنـسي

كان المرحوم الشيخ أحمد طالباً في السنة الأولى من كلية اللغة العربية.. وكان لا يدخلها إلا المتفوقون من طلاب الأزهر ممن يحملون الشهادة الثانوية الأزهرية.

وتمضي السنون والشيخ أحمد محافظ على تفوقه في الدراسة.. وكان مع طلبة آخرين يعتبرون نماذج جيدة في الخطابة أداء سليماً. ونبرة قوية. ومنطقاً مصيباً.. وظل على خط سيره الجاد حتى نال شهادة الدكتوراة من الأزهر الشريف وأصبح في عداد المحاضرين فيه.

ولا أعرف مع الأسف مصدراً أستقي منه معلومات عن سنة ولادته أو سنة وفاته وأحسبه ولد حوالي سنة ١٩٢٠ وتوفي رحمه الله في مطالع الثمانينات. من هذا القرن.. رحمه الله وفسح له في رحيب جنانه بما أسدى وقدم لأمته.



الدكتور الشيخ أحمد الشرباصي

(٢)

كان قد مضى على سنة تـخرجي في الأزهر الشريف ـ سنة ١٩٤٤ـ تسع سنوات. إذ التقيت أخي وزميلي في كلية اللغة العربية الشيخ أحمد الشرباصي في القدس في قاعة المدرسة العمرية.. حيث الاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج الشريفين المقام بعد النكبة الأولى ـ وما أكثر نكباتنا في بلدنا ـ في سنة ١٩٥٣[1].. وأدَّتْ وفود الاحتفال القادمة من العالمين الإسلامي والعربي وأبناء القدس وغيرها معهم صلاة المغرب في المسجد الأقصى المبارك.. ثم شرعوا يتوافدون إلى القاعة تباعاً.. كانت نظرات كثير من الوفود شاردة في الأفق.. يمنة ويسرة.. كأنما تتطلع مستقصية موكبي الإسراء والمعراج.. من مكة المكرمة إلى القدس المشرفة.. ومن القدس المشرفة إلى سدرة المنتهى. ثم تنظر إلى باحة الأقصى الشريف متفرسة

(١) جاء احتفال الإسراء والمعراج ضمن فعاليات الدورة الأولى للمؤتمر الإسلامي في بيت المقدس من ٣-٩/١٢/١٩٥٣ الذي أشرف عليه الإخوان ليكون مشروعاً مقاوماً يسعى لتحرير فلسطين. وقد حضره علماء ومفكرين مسلمين من كافة أقطار العالم الإسلامي، وانتخب سعيد رمضان للأمانة العامة، ومن ضمن مشاريعه تحصين «القرى الحدودية» في فلسطين، وقد تراجع دور المؤتمر بعد هجرة سعيد رمضان إلى جنيف. للمزيد من المعلومات حول المؤتمر، انظر: العويسي، عبد الفتاح، المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس ١٩٥٣-١٩٦٢، القدس، ١٩٨٩.

الموقع الذي صلى فيه رسول الله الأكرم ﷺ إماماً بالنبيين.. وقد مثلوا له كما كانوا في حياتهم الدنيا.

نعم.. ذكريات! ويا لـها من ذكريات تبعث على الخشوع والدموع معاً. وتلاقينا الشيخ الشرباصي وأنا.. وابتدرني قائلاً: نحن متعارفون أنت الشيخ الطيب[١].. وهذا اللقب كنت به متعارفاً. فأجبته وأنت الشيخ أحمد وكان سلام أخوين تلاقيا بعد غياب.

وقلت له بعد أن استقر بنا المجلس: أنت الآن مدرس في الأزهر الشريف فقال: يأبى ابن الأزهر إلا أن يظل ابنا للأزهر.

قلت: ولا غرابة.. نحن نسير في طريقة أسلافنا الأزهريين.. كان أحدهم يبدأ المجاورة[٢] في الأزهر ويقضي العمر مع المجاورين.

قال: مع فارق كبير.. الأزهر الآن يدخل أبناؤه والمتخرجون فيه معترك الحياة.. يخوضون غمارها ويصارعون في التيارات السياسية المختلفة.

قلت: وكذلك كان من قبل الكثيرون والكثيرون.. الإمام محمد عبده[٣]

---

(١) منح الشيخ عيسى منون هذا اللقب للشيخ فتح الله عندما كان طالباً في الأزهر، وعُرف بين أقرانه به.

(٢) يقصد بالمجاورة انتساب الطالب للأزهر وسكنه في أحد أروقته طلباً للعلم، ويسمى الطالب مجاوراً، وليس للمجاورة فترة زمنية محددة.

(٣) محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥): عالم ومفكر إسلامي مصري، درس في الأزهر، تأثر بأفكار جمال الدين الأفغاني، عين قاضياً ومستشاراً في محكمة الاستئناف ثم مفتياً للديار المصرية، قاد حملة لإصلاح التعليم في الأزهر وله مؤلفات كثيرة.

وعبد الرحمن الكواكبي[١] ورشيد رضا[٢] وغيرهم من شوامخ الأعلام.

وابتدأ الحفل بتلاوة كريمة لما تيسر من الذكر الحكيم رتلها المرحوم الشيخ عبد الله يوسف*.

وتوالى الخطباء والمتحدثون تتميز كلماتهم بالإهابة المثيرة. والنداءات المخزونة للوجدان الإسلامي والمروءة الغائبة. كان أحد الخطباء يكثر من نداء: واإسلاماه. كما نادى من قبله القائد المصري قطز[٣].. وقلت هامساً: لقد أسمعت!

فأكملها الشرباصي: لو ناديت حياً!

فقلت بسرعة: وقد عدنا إلى سنن الجهاد.

لقد ذهب التخلف مضمحلاً وهذا فجر أيام الجلاد

لقد كنا حديثي عهد بثورة مصر، وكان اسم محمد نجيب[٤] وعبد الناصر[٥]،

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٤-١٩٠٢): مفكر إسلامي إصلاحي سوري، اشتغل في الصحافة، عرف بمعاداته للاستبداد، اتصل بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، جاب الكثير من أقطار العالم الإسلامي داعياً إلى الإصلاح ومحاربة التسلط، ألف العديد من الكتب.

(٢) محمد رشيد رضا (١٨٦٥-١٩٣٥): مفكر إسلامي لبناني، من رواد الإصلاح في القرن العشرين، درس في مدارس طرابلس، تتلمذ على يد الشيخ حسين الجسر بالإضافة إلى ثلة من علماء طرابلس، كما تأثر بالشيخ محمد عبده، أسس مجلة المنار، وقد تأثر به الأمام حسن البنا، له العديد من المؤلفات.

(٣) قطز (ت ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م): سلطان مملوكي من أصل تركي، حكم مصر، تمكن من وقف الزحف المغولي على العالم الإسلامي بعد أن هزمهم في معركة عين جالوت الشهيرة.

(٤) محمد نجيب (١٩٠١-١٩٨٤): أول رئيس لجمهورية مصر العربية، شارك في حرب فلسطين عام ١٩٤٨، شارك في ثورة ٢٣ يوليو، عزله مجلس قيادة الثورة ووضعه تحت الإقامة الجبرية لفترة طويلة، عُرف بشعبيته الواسعة بين أفراد الشعب المصري.

(٥) جمال عبد الناصر (١٩١٨-١٩٧٠): ثاني رؤساء جمهورية مصر العربية، حكم مصر لمدة ستة =

يترددان على كل لسان.. وكان الإحساس بأن الناس على أبواب عهد جديد يتعمق في المشاعر.. ويترسم طاقات عمل على الطريق.. وجاء دور الشيخ أحمد الشرباصي للحديث.

وكان ما قال إن لم تخني الذاكرة: لقد أطبقت على بلادنا الإسلامية سحب العدوان. عدواناً كثيفاً مبرمجاً. وأصبحت الأمة الإسلامية العظيمة التي يفترض فيها أنها خير أمة أخرجت للناس.. أصبحت ممزقة الأوصال. مختلفة الاتجاهات والآمال. واهنة القوى.. ضعفت فيها بواعث الإيمان. وأصبحت لضعفها ينقاد حكامها للغرب متوددين صاغرين ليساعدوهم في إبقائهم على كراسيهم جالسين.

ولا تحرر لأمتنا ولا بقاء إلا بفدائية شجاعة جريئة وبوحدة قوية الجذور. تكون مرتكزاً لهذه الفدائية.. ولا سبيل لذلك إلا بالعودة إلى الإسلام.. وباليقين الثابت المستمد من نور الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

رحم الله الداعية الإسلامي حقاً، ورائد جمعية الشبان المسلمين(١) صدقاً.

= عشر عاماً، قام بعدة إصلاحات اقتصادية واجتماعية، له دور كبير في صعود الدور المصري في قيادة النظام الإقليمي العربي، خاض عدة حروب مع «إسرائيل»، منها حرب ٦٧ التي خسر فيها الجيش المصري شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة.

(١) تأسست جمعية الشبان المسلمين في القاهر عام ١٩٢٧، وأشرف عليها محمد الخضر حسين ثم أصبح رئيسها عبد الحميد سعيد، وكانت تهدف إلى تنمية الشباب المسلم ثقافياً وفكرياً ورياضياً عن طريق الندوات والمعسكرات.

والعامل على عودة الإسلام مـخلصاً. رحمه الله وأجزل له مثوبة العاملين. ذلكم هو الشيخ الدكتور أحمد الشرباصي أمين الفتوى في الأزهر وصاحب العديد من المؤلفات.



الشيخ صالح المدني السوداني *

في القاهرة وفي منطقة الأزهر وفي حي الـدراسة الواقع جنوب الأزهر إلى الشرق قليلاً. هناك مسجد يسمى مسجد المدني.

ومسجد المدني هذا يحوي مقام الشيخ العالم الزاهد التقي الشيخ صالح المدني السوداني ويزوره الناس ويصلون فيه ويقرأون الفاتحة وما تيسر من الذكر الحكيم وقد يأخذ بعضهم الوجد ويهيمون في الذكريات.. وربما سالت مدامعهم وهم يبكون.

ولكن من هو الشيخ صالح المدني السوداني؟

هـو مـن مواليد دنقلا في السودان في أوائل هذا القرن.. كان في الأزهر الشريف إحدى سمـاته البارزة الـمميزة.. وربمـا كان تواجده في الأزهر مـن العشرينات حتى الستينات.

كان مـن حسن حظي وزملائي مـعي أن تعارفنا على الشيخ وهـو يلقي في صحن الأزهر دروس العربية للبادئين.. وكان ذا رفق ومجاملة للوافدين الجدد من الطلاب وليس تدريسه هو ما يعرف به فقط. كان يتميز بشيئين ظاهرين فيه الأول: قراءته البردة للبوصيري[1] ليلة الجمعة كل أسبوع.. إذ يكون الطلبة في

(١) محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري (٦٠٨-٦٩٦هـ = ١٢١٢-١٢٩٦م): شاعر، نسبته إلى =

راحتهم الأسبوعية وكان منهم من يتحلق حول الشيخ صالح.. ويجلس هو على كرسي كبير متربعاً ويبدأ قائلاً:

أمــن تذكـر جـيران بـذي سـلـم مزجـت دمعاً جـرى من مقلة بدم[1]

ويجيبه المتحلقون حوله بصوت قوي يملأ أرجاء الساحة الواسعة متجاوزاً إلى أجواء الأروقة المتعددة حول الأزهر قائلين:

مـولاي صل وسـلم دائمــاً أبداً عـلى حبيبك خـير الـخلق كلهم

كان الشيخ ينشد بنغم معين.. يمد بعض الحركات.. ويتنغم في صوته بحداء مخصوص وكذلك كان المتجاوبون معه يرددون على شاكلة من نغمه الخاص.

وكان وهو ينشد بعمامته الكبيرة نسبياً.. يتمايل مع التنغيم يمنة ويسرة.. وكذلك يفعل المتجاوبون معه..

كان مرة ينشد هذا البيت:

حببت أكرم ما في الناس من خلق وقد حببت التماس العذر في الشيم

فلاحظ الحاضرون دمعه ينساب على وجهه وصمت فترة قليلة.. سمع فيها صوته وهو يقول: الشفاعة يا حبيبي.. الشفاعة يا رسول الله!

والأمر الثاني: الذي يتميز به الشيخ رحمه الله زيارته مقامات الأولياء وأضرحتهم يومي الخميس والجمعة.. وكان يؤدي فريضة الجمعة في المكان الذي يدركه وقتها فيه.

= بوصير من مصر وأصله من المغرب توفي في الإسكندرية. له ديوان شعر مطبوع، وأشهر شعره قصيدة البردة في مدح النبي محمد ﷺ.

(١) هذا البيت والأبيات التي تليه في هذا المقال من قصيدة البردة للبوصيري.

لقد رافقته مع جماعة كانت ترافقه في هذه الزيارات والمزارات هكذا سيدنا الحسين رضِيَ الله عنه.. السملوطي.. الشيخ عليش رحمهما الله.. السيدة سكينة.. السيدة زينب.. رضِيَ الله عنهما.. الإمام الليث.. الإمام وكيع.. الشيخ زكريا الأنصاري. الإمام الشافعي رحمهم الله جميعاً.

كان رحمه الله يشعر بالطمأنينة النفسية والراحة الكبرى.. كلما تمت له زيارة مقام أو ضريح يتعلق بهؤلاء الصالحين.

وتمر الأيام وبحكم أعباء الدراسة توجهت نفسي إلى ما يرتبط بها وكان مما يرتبط بها محاضرات الأدباء والمفكرين في النوادي والقاعات المعدة لذلك.. وقلت زياراتي مقامات الصالحين تبعاً لذلك، إلا مقام سيدنا الحسين ومقام الإمام الشافعي والسيدة زينب رحمهم الله جميعاً.

وفي ذات ليلة بعد صلاة العشاء في الأزهر الشريف وإذا بالصوت الذي كنت أسمعه من سنوات خلت.. يتردد بهذا النشيد الرائق الذي ينسجم مع النفس ويتواءم معها..

مولاي صل وسلم دائماً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم

جلست مع الجالسين منتشياً بعبير هذا الحداء الإلهي.. مسترجعاً ذكرى أيام خلت.. أول انتسابي إلى الأزهر الشريف.. وكان الشيخ صالح كعادته هياماً وحنيناً إلى الرسول ﷺ.

وانتهت قراءة البردة المباركة.. وتزاحم الناس للسلام على الشيخ.. وجاء دوري للسلام عليه.. وقال في ابتسامة وتهلل واضحين.. مرحباً بك يا

شيخ فتح الله! فتح الله عليك ونـفع بك. فقلت: زادك الله من فـتوحه ونعمه.. أرجو ألا تنساني من بركة دعائك يا سيدي.

نعم ذلك هو الشيخ صالح المدني السوداني.. الذي جعل دأبه طوال حياته زيارة مقامات الصالحين والأولياء.. صار له أيضاً مع الصالحين والأولياء مقام يزار.. رحمهم الله جميعاً وأحسن إليهم بطيب أعمالهم وصادق نياتهم.



الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود

(١)

[عبد الحليم محمود (١٩١٠-١٩٧٨): عالم أزهري مصري مشهور، حصل على الشهادة العالمية من الأزهر عام ١٩٣٢، ثمَّ الدكتوراة من جامعة السوربون في فرنسا عام ١٩٤٠، تولى عدة مناصب علمية منها أمانة مجمع البحوث الإسلامية ومشيخة الأزهر عام ١٩٧٣، وله مواقف كثيرة عارض فيها التوجه العام للنظام الناصري في مصر، مثل رفضه تعديل قانون الأحوال الشخصية، ورفضه إقرار قانون يخص الخمر، ومعارضته للمحاكمات العسكرية التي أجراها النظام ضد الجماعات التكفيرية].

في سنة ١٩٤١ أو في أخرياتها من حيث الدوام الدراسي دلف إلى حجرة السنة الثانية من كلية اللغة العربية رجل يلبس الثياب الإفرنجية[١] ووقف بجانب المنصة التي يجلس في العادة على كرسي عليها المدرسون والمحاضرون.

أخذ الطلاب بعمائمهم البيض ينظرون إليه في حيرة واستفسار.. وكأنهم يقولون من هذا الرجل؟

---

(١) البنطال والجاكيت وربطة العنق.

كان في المقعد الذي أجلس زميل صديق اسمه الشيخ إبراهيم عجلان[١].. وأخذت أسأله هامساً: من هذا الرجل الغريب؟ أطالب معنا؟ ولماذا لا يجلس في مقاعد الطلبة؟ أمدرس؟ هيئته لا تدل على أنه من المدرسين. أو هل هو آذن ومراسل؟ إنه يلبس ويشبه أناقة الثياب الإفرنجية. والأذنة لا يرقون في العادة إلى هذه البزة من اللباس.

فأجاب زميلي: لا أعرف شيئاً.

ومضت فترة من الوقت والطلاب صامتون ينظرون بحيرة.

ثم أخذ الرجل يتحرك بجانب المنصة كمن يريد أن يقول أو يفعل شيئاً ثم قال هذا الرجل بعد صمت: يا شباب! أنا ضيف عندكم.

وانطلقت كلمات الترحيب من الطلبة.. فبددت الصمت الذي خيم على الحجرة.. واعتلى الرجل المنصة.. وأدركنا أنه أستاذ لنا.. ثم بادرنا بهذا السؤال هل نحن جميعاً أيقاظ أم نائمون؟

قال أحدنا: أيقاظ أم نائمون! نحن أيقاظ.. بالنسبة لي لقد صليت الصبح وتناولت إفطاري ولبست ثيابي وجئت إلى الكلية. فأنا في أوج اليقظة. وقال الرجل المدرس أو المحاضر بدوره: ألا يكون أحدنا نائماً فيحلم أنه اشترى عقاراً وبنى بيتاً وتزوج وأنجب البنين. ثم يصحو. فإذا به كان يحلم فما الذي يثبت أننا في غير حالة حلم؟

وتفاوتت الأجوبة المتعددة. لا تنافي الكلية.. لأننا نناقش مع أستاذنا..

---

(١) إبراهيم عجلان: أزهري مصري، عمل في مجال التدريس والتوجيه التربوي في الأزهر.

لأننا نحس بقوة أننا في صحوة وكان يبطل كل إجابة بقوله: هذا أيضاً يكون في الأحلام.. ووقف الطلاب أو قعدوا في حيرة وارتباك. ورفعت يدي مستأذناً لأجيب فسمح لي. وقلت حينما نكون في حالة حلمية ونرى ما نرى في المنام تجيء صحوة اليقظة فتدلنا على أننا كنا حالمين.. ونحن نرى ما نرى ونزاول ما نزاول من عمل ولم تجئ حالة أخرى أو صحوة أخرى تدلنا على أننا كنا نحلم.

فأصغى الرجل ليقول: ليس جواباً ولكنه أقرب كلام إلى الإجابة.

وقال بعضنا هذا ما عندنا.. فما هو الجواب يا بيه[١]؟

فقال الأستاذ: نعم. الجواب ما قاله رسول الله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[٢].

وقال أحدنا: وكيف؟

فأجاب الأستاذ: الروح لا تموت وإنما تخلص من الجسد. فإذا خلصت من الجسد الذي هو أخلاط من التراب انطلقت بقواها المدركة وأيقنت أنها كانت محجوبة عن اليقظة الحقة بكثافة الجسم. فالإنسان في دنياه ما دام مقيداً بكثافة الجسم الترابي فكأنه نائم وإذا مات استيقظ.

وهنا أدرك الطلاب أنهم أمام نمط من الأساتذة جديد.. أهو صوفي.. أم هو فيلسوف.. أو هو عالم نفس يريد أن يتعرف إلى نفوسنا بهذا اللون من الجدل العلمي؟

(١) تعني سيِّد باللهجة المصرية.

(٢) ليس بحديث، قال عنه الألباني: «لا أصل له»، الألباني، محمد ناصر الدين، **السلسلة الضعيفة**، مكتبة المعارف، ط: بلا، الرياض، سنة النشر: بلا، ١/ ٢١٩.

وتمر الأيام وتكون مادة الأستاذ هي الفلسفة.. وكان من طبعه أن يعطي الطلبة سؤالاً يطلب أن يجاب عليه في شكل بحث.

كان يرضى عن كتابة كل طالب ولو تعارضت في نتائجها.. لا أنه يقر الإجابة الخاطئة ولكنه يجعل اعتباراً لوجهات النظر.. كما كان يهتم بسلامة الأداء وتسلسل الأفكار.

كان يحثنا على قراءة المحاسبي[١] الصوفي المتعمق.. كان يرى أن المادية غالبة على الناس في أفكارهم وحياتهم.. فيريد أن يجابه الانسياق وراءها بإيقاظ المثالية والحياة الروحية.. وهي أبرز ما تكون في تفهم الآيات الكريمة والاستظلال بالسنة المشرفة.

ولقد توثقت العلاقة بينه وبين الطلاب.. وأصبحوا يألفونه ويرون فيه معلماً جديداً.. يسوق إلى فكر حر ولون من الإنسانية يختلف عما ألفوا.

إنه يردد أفكار الإمام الغزالي[٢] ويتأثر بروحه ويحب أيضاً ابن رشد[٣].

---

(١) الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣هـ = ٨٥٧م): من أكابر الصوفية، ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره.

(٢) محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الاسلام (٤٥٠-٥٠٥هـ=١٠٥٨-١١١١م): فيلسوف متصوف، ولد في خراسان وتوفي فيها، له نحو مئتي مصنف، أشهرها إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة.

(٣) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد أبو الوليد (٥٢٠-٥٩٥هـ=١١٢٦-١١٩٨م): من أهم فلاسفة الحضارة العربية الإسلامية، برع في علوم عصره المختلفة كالفقه والطب والفيزياء والفلك، ولد في قرطبة وعني بكلام أرسطو وأفلاطون له العديد من التصانيف والمؤلفات، اتهمه بعض علماء عصره بالإلحاد.

إنه يتحمس لمصطفى صادق الرافعي(١) وكان يقول عنه: إنه يتفق له من التعبير ما هو مثير حقاً.. أمثال هذه العبارة: لو كان البخيل حديداً لما رن.. وفي نفس الحين يحثنا على قراءة طه حسين(٢).

وكان الكثير من الدارسين يرون أن الفلسفة نشأت أول ما نشأت في تربة اليونان.. وأن سقراط(٣) وأرسطو(٤) وأفلاطون(٥) هم عمد الفلسفة والمعارف التي كانت تسمى فلسفة قبل انحسارها عنها وتسميتها باسم يخصها.. وكل هذا متابعة للغربيين والمتغربين؛ لأنهم يريدون أن يجعلوا الحضارة للغرب فقط ولكن أستاذنا مع الرأي القائل بأن اليونان تأثروا بالشرقيين في فلسفتهم ولا سيما المصريين.. فالأهرامات في بنيانها الرائع الدقيق لا يمكن أن يتم بغير معرفة بالهندسة معرفة دقيقة.

---

(١) مصطفى صادق الرافعي (١٨٨١-١٩٣٧): أديب مصري، أصوله شامية، اشتغل في المحاكم في أكثر من مدينة مصرية، وبدأ بكتابة المقالات التي دافع فيها عن الإسلام ومصر والشرق عموماً، كما كتب الشعر والقصة، له عدد من المؤلفات.

(٢) طه حسين (١٨٨٩-١٩٧٣): أديب وناقد مصري، لقب بعميد الأدب العربي، من أبرز الشخصيات في الحركة العربية الأدبية الحديثة، درس في الأزهر وفي الجامعة المصرية، نال الدكتوراة من فرنسا، له العديد من المؤلفات.

(٣) سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م): فيلسوف يوناني كلاسيكي، لم يترك سقراط تصانيف، وجل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته عنه، وخاصة أفلاطون.

(٤) أرسطو أو أرسطوطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م): فيلسوف يوناني قديم، كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر، كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء والشعر والمنطق وعبادة الحيوان والأحياء وأشكال الحكم.

(٥) أفلاطون (٤٢٨-٣٤٨ ق.م) فيلسوف يوناني كلاسيكي، كتب عدداً من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا، وهي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو.

والأيـام تكشف على أن مـا بلغة الشرق مـن عمران وسواء في ذلك مصر والشام وبلاد الحيرة لا يتم إلا بمعرفة عقلانية راقية. وهم في ذلك أسبق من جيرانهم اليونان.

وربما كانت هذه البلاد المتجاورة يأخذ كل منها عن جاره وجاره يأخذ عنه.. وكان في فصلنا من الطلبة من ينتمون إلى بلاد إسلامية مختلفة.. فكان مع الأخوة المصريين السوري واليمين والمغربي والفلسطيني والعراقي والتركي والكردي.. وكان يسر كثيراً لهؤلاء الأخوة ويرى أن المسلمين بعقيدتهم التي توحدهم يمكنهم أن يعيدوا للشرق نهضته وريادته من جديد.



الإمام الأكبر عبد الحليم محمود

(٢)

قال أحد الزملاء: إن أستاذنا الدكتور عبد الحليم فيلسوف.. فبعد أن نال العالمية من الأزهر الشريف درس في السوربون في فرنسا ونال الدكتوراة مع درجة الشرف الأولى في الفلسفة والتصوف.. وهو بذلك خير من يقدر على تزويدنا بالبراهين الجديدة على وجود الخالق العظيم.

فقال زميل يـرد هذا الاقتراح بغضب وحدة: وهل بـعد خلق السموات والأرض وما فيهما من دلائل تدل على الواحد القدير.. هل بعد هذا تجدنا في حاجة إلى التعرف على الخالق سبحانه!؟

فـقال الأول: الأدلة واضحة ولا ارتـياب معها.. ولكن نـريد أن نتعرف فحواها بمنطق جديد.. ونريد من يتبرع بإثارة الشيخ وتوجيهه نحوها بقوة لنسمع ما يقول.. وتبرعت أنا بهذه الإثارة.

وجاء الأستاذ الكريم وبدأت المحاضرة.. وكان موضوع المحاضرة وسائل المعرفة من سمع وبصر ولمس وشم وذوق. وهذه وسائل المعرفة الحسية.. ولكن هناك معرفة وراء الحسية.. تكون لما وراء المادة.. وإن كانت المادة تصل لما وراء المادة.. فهناك وسيلة أخرى لإدراك ما وراء المادة وتكون بنور يقذفه الله تعالى

في القلب فيدرك بالإلهام الرباني مالا تدركه الحواس.. وصدق العمل المعروف بالإخلاص سبيل لمعرفة ما لا يعرفه الآخرون وفي الحديث.. «من عمل بما يعلم أورثه علم ما لم يعلم»[1].

نعم هناك وسيلة أخرى يتميز بها أصفياء النفوس يدرك بها العارفون ما لا يدركه غيرهم.. وفي آخر الدرس طلب إلى التلاميذ أن يكتبوا عن آرائهم في معرفة ما يسمى وراء المادة.

وقلت في نفسي: لقد بلغنا المنشودة ولاحت الفرصة جلية لمن يريد أن يقتنص.

وكتبت موضوعاً وحملت فيه بشدة على الذين انصرفوا عن المعاني القرآنية وسيرة السلف الصالح وأغلقوا باب الاجتهاد وتابعوا أهواء السلاطين وخالفوا خط التاريخ الماجد واكتفوا بطقوس الطرق الصوفية على ما فيها من طبل ورقص واستعراض في الطرق العامة وتعالي بعض الشيوخ وتباهيهم بكثرة الأتباع والمؤيدين.

وجاءت هذه العبارة وأنا أقصد وضعها في الموضوع على أن الناس إنما يؤمنون بما يستيقنون ولا استيقان إلا بما تشهده العينان وكل ما وراء الطبيعة يلفه

---

(١) رواه أبو نعيم الأصبهاني عن أنس بن مالك في حليته، الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤٠٥هـ. وأشير إليه: أبو نعيم، مصدر سابق، ج/ ص. ٦/ ١٣٦، وقال عنه الألباني: موضوع، الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، الرياض، دار المعارف، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ح.ر: ٤٢٢، ١/ ٦١١.

الغموض وتحيط به سحب الشك والحيرة.

واطلعت على الموضوع ـ قبل عرضه على الأستاذ الدكتور ـ صديقاً لي.. فقال لي: إنك تخاطر بنفسك مع الشيخ؟

قلت: لعله لا مخاطرة بين أستاذ وتلميذ وخاصة إذا عرف القصد!

وفي درس تال.. قال وقد وزع الأستاذ على كل طالب كراسته.. ثم ناداني الأستاذ باسمي وأنا أتوقع منه ملاماً وعتاباً.. وإذا به ينتهرني بشدة قائلاً: يا جاهل أنت لا تعرف شيئاً.

وصمت لا أجد جواباً. ثم أردت الكلام لأفصح عن قصدي فلم يسمح لي بكلام. واستأذن صديقي ليبين للأستاذ قصدي.. فلم يصغ إليه سمعاً وجلست حائراً محزوناً.

وجاء درس آخر وإذا بالشيخ يتوجه بنظره إليَّ في ابتسام لم أفهم معناه.. وعلمت بعد ذلك أنه علم الحقيقة من صديقي.. فراحت عنه سحابة الغضب.. وبعد شهر تقريباً قال الشيخ: أريد أن أزورك في رواق الشوام ومعي فرنسيون.

وجاءت الزيارة وكان مع الشيخ الفيلسوف الفرنسي ماسينيون[1] والآخر عميد جامعة السوربون. وكانت محادثة تدور حول بلاد الطلبة الشوام وعن أعدادهم وماذا يدرسون. كان الشيخ رحمه الله هو المترجم أو الترجمان.

وفي اليوم التالي لقيت الأستاذ في الكلية وعرض علي أن أكمل دراستي بعد

(١) لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢): من أشهر مستشرقي فرنسا، بدأ حياته مهتمًا في الآثار القديمة، أتقن العربية والتركية والألمانية والإنجليزية، درَّس في الجامعة المصرية، عمل مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية، ركَّز دراساته على موضوع التصوف الإسلامي، له العديد من المؤلفات.

الأزهر في فرنسا. واعتذرت بعدم معرفتي لغة أجنبية ولا سيما الفرنسية فقال لي: لقد ذهبت إلى فرنسا وأنا لا أعرف الفرنسية. وهناك تعلمتها.. وقلت معتذراً بعلة أخرى أن والدي الذي يبعث لي بالنفقة ليس من ذوي اليسار وأنه واحد من العمال. فقال: إن ما يبعث به لك في مصر يكفيك مثله في فرنسا.. فقلت: إن والدي متقدم في العمر.. وهو في حاجة لمن يريحه من تعب..

فقال: لو قدر لك أن تتعلم في أوروبا لكان أو قد يكون لك شأن آخر.

كان يخالط قوله نبرة حزن واضحة.

رحم الله شيخنا عبد الحليم محمود رحمة واسعة.

وبعد فقد ولد شيخنا لأبوين صالحين في أيار سنة ١٩١٠ في قرية اسمها أبو حمد.. وهي ضاحية جميلة خلابة المناظر من ضواحي مدينة بلبيس من محافظة الشرقية.. والقرية منسوبة إلى جده أبي أحمد، وهي تعرف الآن باسم قرية السلام.

وبعد تخرجه في السوربون برسالة قدمها عن المحاسبي منح درجة الدكتوراة مع مرتبة الشرف الأولى وطبعت الجامعة رسالته على نفقتها وعين في الأزهر أستاذاً للفلسفة وعلم النفس في كلية اللغة العربية ثم أستاذاً للفلسفة في كلية أصول الدين، ثم شيخاً للكلية نفسها ثم عين عضواً في مجمع البحوث الإسلامية: ثم أميناً عاماً للمجمع.

ثم عين وزيراً للأوقاف. وفي ١٧ من آذار سنة ١٩٧٣ صدر قرار جمهوري بتعيينه شيخاً للأزهر.

وفي هذه المرحلة دأب يطالب بإلحاح حازم أوقاف الأزهر التي سلبت منه

منذ مائة عام زمن محمد علي[١] وكانت له القرارات والتصريحات الجريئة بشأن فلسطين ولبنان والعالم الإسلامي بعامة.

قال لكارتر[٢] في القصر الأبيض: نحن نحب السلام ونؤثره لكن مع حفظ كامل حقوقنا كلها.

وفي سنة **١٩٧٩** انتقل إلى رحمة الله فجأة.

رحمه الله وفسح له جنانه مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.



(١) محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩): مؤسس مصر الحديثة وحاكمها ما بين (١٨٠٥-١٨٤٨)، ولد في مقدونيا لأسرة ألبانية، كان ضابطاً في الجيش العثماني، إليه تنسب أول محاولة لإدخال مصر في عصر النهضة.

(٢) جيمي كارتر(١٩٢٤): رئيس الولايات المتحدة التاسع والثلاثون في الفترة ما بين ١٩٧٧-١٩٨١، من الحزب الديمقراطي، انتخب عضواً عن ولاية جورجيا عام ١٩٦٢، ثمَّ حاكماً للولاية عام ١٩٧٠، وهو أول رئيس للولايات المتحدة من ولاياتها الجنوبية منذ الحرب الأهلية الأمريكية.

الشيخ عبد المتعال الصعيدي

[عبد المتعال الصعيدي (١٨٩٥-١٩٧١): عالم مصري أزهري، أستاذ في كلية اللغة العربية في الأزهر، وعضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، وله مشروع إصلاحي في التعليم والفكر الإسلاميين، يعتبر واحداً من الأوساط الثقافية الإسلامية منذ أربعينيات القرن الماضي، له العديد من المؤلفات].

في القسم العام من الأزهر الشريف.. كان لا يزال نظام الحلقات قائماً. ولا يزال هذا النظام بطلابه من مختلف الأقطار الإسلامية عامراً.

والطالب فيه لا تكون مرحلته الدراسية حسب سنين منتظمة.. بل يتحتم في تعيين الحلقة التي يختارها الطالب. اختياره هو.. ويتدخل في اختياره قدرته على هضم ما يختاره. ومدى استيعابه لما يدور بين الشيخ وطلابه.

وكان قد مضى على انتسابي للقسم العام سنة وبعض الشهور.

في هذه الفترة كان قد جاء إلى القسم العام للتدريس فيه شيخ جديد وقديم. هو جديد بالنسبة للقسم العام، وكان هذا الشيخ قد قامت من حوله الشائعات.. فمن قائل: هو على طريقة الشيخ علي عبد الرازق[1].. يريد أن يجعل الخلافة

---

(١) علي عبد الرازق (١٨٨٨-١٩٦٦): أزهري مصري، درس في الأزهر ثم في جامعة أوكسفورد البريطانية، اشتغل في سلك القضاء، اعتبر بسبب كتابه «الإسلام وأصول الحكم» ممن نادوا بفصل الدين عن السياسة، وقد تراجع عن أفكاره التي تضمنها الكتاب في أواخر حياته.

ليست شرطاً في الحكم. ومن قائل: أنه مـجتهد جديد يعارض باجتهاده صريح النصوص. ومن قائل: أنه كالشيخ طه حسين. طريقته خالف تعرف.. وهو يريد محض الشهرة فحسب.

هذا الشيخ الذي تطبق سحب الأقاويل حوله. هو الشيخ عبد المتعال الصعيدي. وكان درسه أو مادة تدريسه هو شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. وقلت في نفسي: إني سأستمر في حضور درسه الذي يلقيه على الطلبة. وإذا رأيت منه ما يمس الدين تركته.. ومع ذلك فقد أقنعت نفسي بأن إدارة الأزهر لن تجعل بين المدرسين في الأزهر من يسيء إلى الدين.

واستمررت في الاستماع إلى ما يلقي من شرح وتوضيح على ألفية ابن مالك.

كان الشيخ دقيقاً في شرحه عميقاً في استكماله كل معنى تحتمله النصوص. وإذا أضيف إلى الشرح ما أضيف من حواشي الخضري كان الدرس مرحلة متقدمة في علم العربية يضاف إلى ذلك طريقة التحقيق والمحاكمة التي كان يتوخاها الشيخ في العلاقة بين المتن والشرح ثم ضرورة الحرص على معرفة معنى الكلمة. ومن أي باب من الأبواب الصرفية هي.

تعاظمت حلقة درسه وتكاثر طلابها.. وكان اهتمام الشيخ بهذا الدرس بادياً واضحاً.

سألني مرة: هل أنت مغربي؟ فأجبته: أنـا يـا سيدي فلسطيني. فقال: أين كنت تدرس العربية قبل الأزهر؟ قلت: ما درست العربية إلا في الأزهر. وكان يـهتم ويـرضى ما يـدور في الدرس مـن نقاش وجدل أحياناً.. وكم كان سرورنا ورضانا حينما نرى شيخنا قد كتب النتيجة التي ينتهي بها البحث في مجلة الرسالة

أكثر المجلات الأدبية شيوعاً في العالمين الإسلامي والعربي. ويختم ما كتبه بأمثال هذه العبارة. هذا ما انتهى إليه البحث بيني وبين تلاميذي في القسم العام من أقسام الأزهر الشريف وكأنه يريد أن يلفت النظر إلى مكانه!

كنا ذات يوم موعودين بزيارة الزعيم الفلسطيني عبد اللطيف صلاح[1] ومعه ابنه الدكتور وليد صلاح* وكلفني إخواني بدعوة الشيخ الفاضل ليكون بينه وبين الزعيم الفلسطيني لقاء وتعارف لا يخلوان من خير.

وتفضل الشيخ بالقبول وحضر إلينا في رواق الشوام.. وقد ضاقت غرفتنا بمن أمها من إخواننا.. وانتظرنا طويلاً ولم يجئ الضيف الموعود.

واغتنم بعضنا وجود الشيخ ليسائلوه عما دار حوله من أقاويل: فقال: الله يقول: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] فهل تفهم فضيلتكم من القطع غير الفصل والإزالة؟ فتغير وجه الشيخ من السؤال.

فقال الشيخ: إن في ورود المجاز في العربية ما يسعف على التأويل.

وقد ورد اقطعوا لسان الشاعر بمعنى أعطوه ما يغنيه عن التعرض للناس.. فقال سائل آخر: لقد ثبت القطع الحقيقي عن الرسول ﷺ وعن خلفائه من بعده بما لا يسمح بتأويل.

فأجاب الشيخ نعم وهذا حق. والمسألة كلها أني كنت أتباحث أنا وطالب

---

(١) عبد اللطيف صلاح (١٨٨٢-١٩٥٤): من مواليد نابلس، درس في كلية الحقوق في إسطنبول، أصبح أول رئيس لمعهد الحقوق في دمشق، عمل في المحكمة الشرعية العليا في نابلس، أسس حزب الأهالي عام ١٩٢١، أسس وقاد الكتلة الوطنية، عضو الهيئة العربية العليا، توفي في نابلس.

في الحصة ولـم يأخذ البحث طابع الجد. ولكنه مجرد تفكير من الطالب وإشاعه ونسبه إليَّ آخرون سامحهم الله.

وأحببنا أن نغلق باب المسائلة.. لما نرى على نفس الشيخ من ضيق به.

ودخلت كلية اللغة العربية وقد رجع إليها الأستاذ معززاً مكرماً بعد بيان الحقيقة.. ويبدو أن عداء شخصياً كان قد طورها.

وفي الحق أن الشيخ كان رحمه الله علماً من أعلام العربية والأدب علماً وتعليماً وذوقاً وأسلوب بيان. ولقد تخرج عليه أجيال. وكانت ثقته بنفسه تتبدى واضحة عليه. وكان متفائلاً جداً مبشراً بعودة الأمة إلى عزتها وكريم مجدها.. وكان يردد هذا الحديث الذي ينبئ بأن الله تعالى يبعث على رأس كل قرن من يجدد للأمة دينها[1].. وعلينا أن نكون مبشرين وأعواناً لهذا المجدد.

وسألناه مرة هل يتفضل أستاذنا بتزويد المكتبة العربية ببحث عن التجديد والمجددين؟

فقال رحمه الله: إذا شاء الله أفعل.. ولكني أحب أن تقوموا بهذا البحث أنـتم.. ولقد وفى الأستاذ بـوعده فكتابه (المجددون) في المكتبة العربية مرجع لمن يبحثون ولقد زود الدراسات العلمية بكتب نفيسة.. منها نقد نظام التعليم الحديث بالأزهر، والعلم والعلماء ونظام التعليم، والميراث في الشريعة الإسلامية.

---

(١) رواه أبو داود في مسنده: عن أبى هريرة رضِيَ الله عنه أنه قال: فيما أعلم عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق الألباني، بيروت، دار الكتاب العربي، ط: بلا، سنة النشر: بلا. كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، ح.ر: ٤٢٩٣، ٤/ ١٧٨. قال الألباني: صحيح.

والقضايا الكبرى في الإسلام، والنحو الجديد، والسياسة الإسلامية في عهد النبوة. والنَّظم الفني في القرآن. وتاريخ المجموعة الأولى للشبان المسلمين. والوسيط في تاريخ الفلسفة الإسلامية. وتاريخ الإصلاح في الأزهر.

وفي ميدان الاجتهاد، إلى دراسات أدبية عن عدي بن زيد[١]، وأبي العتاهية[٢].

لقد ولد شيخنا في قرية كفر النجبا في الدقهلية في مصر سنة **١٨٩٤** وتوفاه الله بعد سنة **١٩٥٨**[٣] رحمه الله تعالى بما أسدى بما علم وأفاد.



(١) عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع (ت ٩٥هـ = ٧١٤م): شاعر كبير، من أهل دمشق، يكنى أبو داود، كان معاصراً لجرير، مهاجياً له، مقدماً عند بني أمية، ومداحاً لهم، خاصاً بالوليد ابن عبد الملك. لقبه ابن دريد في كتاب الاشتقاق بشاعر أهل الشام. مات في دمشق.

(٢) إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي الشهير بأبي العتاهية (١٣٠-٢١١هـ = ٧٤٨-٨٢٦م): شاعر عباسي مشهور، من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما، نشأ في الكوفة، اتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم، وهجر الشعر مدة، توفي في بغداد.

(٣) الصحيح أنه من مواليد ١٨٩٥ وتوفي ١٩٧١.

الدكتور عبد الوهاب عزام

[عبد الوهاب عزام (١٨٩٤-١٩٥٩): كاتب ودبلوماسي مصري، درس في الأزهر، ثم كلية الآداب في الجامعة المصرية، وجامعة لندن، بدأ التدريس في الجامعات المصرية عام ١٩٣٠، عمل في السلك الدبلوماسي المصري في أكثر من دولة عربية وإسلامية، له العديد من المؤلفات].

في القاهرة.. في شارع الغورية من مدخله الشرقي على يسار السالك فيه.. هناك عمارة أثرية يبدو أنها من العصر المملوكي.. وفي الطابق الثاني منها. كانت هناك جمعية اسمها جمعية الأخوة الإسلامية. ورئيسها الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام.

كانت ردهة الجمعية قد صفت فيها مقاعد خشبية مستطيلة.. وقد غصت بالحاضرين من شتى البلاد.. فيهم التركي والإيراني والكردي والأندونيسي.. وفيهم الجزائري والمغربي والليبي والموريتاني.. وفيهم الحجازي واليمني والشآمي والخليجي والعراقي والكويتي والعماني.. كما أنَّ فيهم من بني الكنانة والسودان كثيرين.. وكانت المحاضرة. انطباعات ومشاهد عن الحرمين الشريفين. وكان المحاضر الحاج المحامي لطفي جمعة[١].. وقد زود حديثه بصور يعرضها الفانوس

(١) محمد لطفي جمعة (١٨٨٦-١٩٥٣): كاتب وروائي ومترجم ومحامٍ وناشط سياسي، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق، أجاد الفرنسية والإنجليزية وألمَّ بالإيطالية واللاتينية والهيروغليفية.

السحري[١]. وكان المستقبل للقادمين بحفاوة وبشاشة ينمان عن لطف هو الدكتور عزام رحمه الله.. كانت مشاعره الإسلامية المتبدية في حديثه الذي يؤانس به القادمين تضفي عليه جلالة ومهابة.

وتذكرت تعليقه الذي حلل به ديوان الأعاصير للشاعر المهجري القروي[٢].. فقد كان تحليله لقصائده أعاصير وطنية ثانية وأقباس ملحمة تؤجج المشاعر. وتذكي نفحات العروبة في الديوان. كان هذا التحليل منشوراً في مجلة الرسالة للمرحوم الزيات[٣].. وتذكرت أيضاً مقالته الرائعة المنشورة في الرسالة أيضاً. ابن شهيد[٤] (بضم الشين وفتح الهاء) الذي آلت إليه القيادة في الأندلس. وكان فيها طارق بن زياد[٥] آخر. فقد وطد دعائم الحكم وخضد شوكة المتآمرين ووجد فيه

---

(١) جهاز لعرض الصور المعتمة عن طريق المرآة العاكسة، يعرف اليوم بالبروجيكتر، وهو وسيلة تعليمية في المدارس والجامعات.

(٢) رشيد سليم الخوري (١٨٨٧-١٩٨٤): شاعر لبناني معروف بالشاعر القروي وشاعر العروبة، هاجر إلى البرازيل، تولى رئاسة تحرير مجلة «الرابطة»، ثم رئاسة «العصبة الأندلسية»، له عدة دواوين شعرية منها: الرشيديات والقرويات.

(٣) أحمد بن حسن الزيات (١٨٨٥-١٩٦٨): أديب مصري مشهور، أصدر عدة مجلات أدبية منها مجلة الرسالة عام ١٩٣٣ التي كان لها دور في الحياة الثقافية والأدبية المصرية لمدة تزيد عن العشرين عاماً.

(٤) عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد القرطبي، أبو مروان (٣٢٣-٣٩٣هـ = ٩٣٥-١٠٠٣م): وزير، من أعلام الأندلس ومؤرخيها وندماء ملوكها، ولد ومات بقرطبة، له «تاريخ» كبير يزيد على مائة جزء، مرتباً على السنين، وجمع ما وجد من شعره في ديوان.

(٥) طارق بن زياد (٥٠-١٠٢هـ = ٦٧٠-٧٢٠م): فاتح الأندلس، قائد عسكري أمازيغي مسلم من الجزائر، قاد أولى الجيوش الإسلامية التي دخلت شبه جزيرة أيبيرية، يحمل اسمه جبل طارق الواقع جنوب أسبانيا.

الفرنجة سيفاً إسلامياً مصلتاً يدعم قواعد الحكم العربي في الأندلس.

نعم.. هذا عبد الوهاب عزام صاحب القلم الرشيق العميق الذي يحسن جلاء المعاني الحية والأحاسيس الكريمة ليوجه بها الشباب نحو ماضيهم الكريم ليحيا بهم منبعثاً شمساً تكتسح ظلمات التآمر والاستعمار.

ولا أزال أذكر مناظرة جرت في مدرج الجامعة المصرية في القاهرة وقد حضرها كثير من المثقفين المتطلعين إلى الغد، وفي مقدمتهم المرشد العام للإخوان المسلمين(١).

قال عبد القادر حمزة(٢) صاحب جريدة البلاغ: نحن شعب مصر ننتمي إلى الفراعين أعرق وأمجد أمة في فجر التاريخ ولا تزال آثارهم تنطق بالمجد الذي لا يجارى. هذه الأهرامات وهذه المعابد والموميات وهذه تماثيل الآلهة والملوك كلها تنطق بمجد قديم عريق لا يضاهى.

كان للمرحوم عبد القادر حمزة مؤيدون. كان الدكتور طه حسين والشيخ أمين الخولي(٣) وسلامة موسى(٤) في مقدمة المؤيدين.

---

(١) الإمام حسن البنا مؤسس الجماعة.

(٢) عبد القادر حمزة (١٨٨٠-١٩٤١): صحافي ومؤرخ مصري، احترف المحاماة عام ١٩٠٢، ترأس تحرير جريدة الأهالي اليومية ١٩١٠، ألف العديد من الكتب وترجم كتباً أخرى عن الفرنسية، ناصر حركة مصطفى باشا.

(٣) أمين الخولي (١٨٩٥-١٩٦٦): أديب مصري، درس في مدرسة القضاء الشرعي. شارك في ثورة ١٩١٩، نفي إلى جزيرة سيشل، عميد كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول، ألف العديد من الكتب وأصدر عدداً من المجلات.

(٤) سلامة موسى (١٨٨٨-١٩٥٨): مفكر مصري، حصل على البكالوريا، تنقل بين مصر وفرنسا =

وانبرى المرحوم عبد الوهاب عزام ليدلي بدلوه في هذا الحشد الكبير. فقال: يذكر السيد المناظر جملة من المآثر القديمة وكأنما يريد أن يجعلها في مقابلة مآثره العربية الإسلامية. ومع ذلك فلنسأل أنفسنا مخلصين ولنسأل التاريخ متفحصين موازنين: أيهما أنفع وأبقى وأرجح في موازين التاريخ.. القاهرة الفاطمية الإسلامية أم الأهرامات؟ وأيهما أعظم وأمس بحياتنا الإنسانية العلمية.. المعابد الوثنية البائدة أم الأزهر الشريف الذي صان التراث. وأنار بأنواره عقول العالمين والباحثين والمتعلمين الذين يَرِدونه لينهلوا من معينه. أيهما أنفع وأحيا وأخلد هذه المومياءات الغابرة.. أم هذه القباب الرائعة والمآذن الشاهقة المنطلقة بنداء الحق شموساً مزدهرة.. وصفحات من التاريخ نيرة..؟

ولم يدع المستمعون الدكتور عزام ليكمل رده بل ألهبوا أكفهم تصفيقاً وكدوا حناجرهم وهم يهتفون الله أكبر الله أكبر.

وسمعت بعد المناظرة الأستاذ المرشد العام يعلق قائلاً:

ولماذا هذه التفرقة في الانتماء؟ أليست مصر القديمة هي نفسها مصر الإسلامية العربية؟ إنَّ الجاهلية صارت إسلاماً في كل بلادنا فلماذا هذه المقارنات؟ وانفض الناس.. كل في سبيله.

وها نحن الآن في جمعية الأخوة الإسلامية.. وقد استمتع الحاضرون بمحاضرة المحامي الكبير الحاج محمد لطفي جمعة فقد رأينا الأماكن المقدسة من خلال حديث حي شيق.. واشتاقت نفوسنا لأداء شعائر الركن الخامس من أركان

= وبريطانيا، مارس الكتابة الصحفية والفكرية، وله العديد من المؤلفات، وعرف بخصوماته الفكرية لبعض الأدباء مثل العقاد وطه حسين والرافعي وغيرهم.

الإسلام فهذه الكعبة المشرفة يطوف حولها ضيوف الرحمن ملبين خاشعين.

ومن هنا ما بين زمزم والحطيم أسري برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس القبلة الإسلامية الأولى لتتوحد القبلتان على مر العصور.. وهذه عرفات وقد أُفعمت بالخيام البيض المتلاصقة كأسراب الحمام وقد حطت بعد طيران.. وهذه منى والجمرات وقد انهال عليها الحصا رجماً لإبليس.. ورمزاً عملياً لطرح وسوسته وإغراءاته والإنابة إلى الله وحده.. وهذه في المدينة المنورة الروضة المشرفة مقام سيدنا محمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى أنبياء الله أجمعين.

وانتهت المحاضرة وسلم الحاضرون على المحاضر الكريم.

وجلسنا.. وتحلق الشباب من حول الدكتور عزام وابتدرته قائلاً: إن أستاذنا الفاضل عزام كثيراً ما يشير إلى شعر فيلسوف الإسلام الشاعر الهندي إقبال(١). فهل نستطيع أن [نرى] شعره منقولاً إلى لغة الضاد؟

فقال مبتسماً: أنا بصدد ترجمة لشعره أو بعض مطولاته.

فقلت مسروراً: أعانك الله.

وقال أحدنا: نود أن نأخذ صورة تذكارية مع الدكتور.. وقد تم للطالب ما أراد وإذ أخذ الحاضرون ينصرفون.. خرجت من دار الجمعية.. وتلكأت أمام

---

(١) محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨): فيلسوف وشاعر ومفكر إسلامي هندي، تعلم عدة لغات في صباه، درس في جامعات الهند، وحصل على الدكتوراة من جامعة هامبورغ في ألمانيا، دعا لانفصال المسلمين عن الهندوس، زار العديد من أقطار العالم الإسلامي وأوروبا، له العديد من المؤلفات.

حانوت قليلاً ثم تابعت مسيري وإذا بي أرى الطالب فلاناً بجلبابه البالي وجبته الكالحة وقد لبسها على كتفه ولم يجعل في كميها يديه وقد كان يلبس قبقاباً يزعج بإصدائه السامعين.. كان هذا الطالب.. كما تعارف ذلك إخوانه بسيط إلى السذاجة أقرب.. رأيته وقد تأبط ذراع الدكتور عزام وقد دار بينهما حديث منسجم، وبعد أن افترقا لقيت الطالب في رواق الشوام.. وسألته ماذا كنت تقول للدكتور عزام؟

قال: كنت أطلب عدد مجلة المصور للأسبوع الفائت.. فإن فيه صورة تجمعنا مع الدكتور.

قلت: فماذا قال؟

قال: قال: حاضر يا سيدي على رأسي وعيني.

قلت: وأنا والله سمعته وهو يقولها لك.

ثم قال الطالب: ثم سألني عن دراستي وعن أحوالي وهل أنا مرتاح. فأجبته: نعم.

ذلكم هو الدكتور عبد الوهاب عزام الأزهري خريج الجامعة المصرية والسوربون في باريس وعميد كلية الآداب ورائد الدعوة لإحياء الأخوة الإسلامية والمترجم آثار إقبال وطابع الشاهنامة[1]. بقي أن أقول أنه ينتمي إلى قبيلة العزازمة الفلسطينية في النقب. ورحم الله ذلك الرائد العظيم.. ولد في الشوبك من قرى الجيزة بمصر سنة **١٨٩٤** وتوفي سنة **١٩٥٩**.

---

(١) شاهنامة الفردوسي ـ شاهنامة بالفارسي معناها كتاب الملوك، هي ملحمة فارسية ضخمة تتكون من ٦٠٠٠٠ بيت شعر كتبها الشاعر الفارسي الفردوسي (٩٣٥-١٠٢٠م) وتعتبر أعظم عمل أدبي فارسي، ترجمت للغات كثيرة.

الشيخ علي الغاياتي

[علي الغاياتي (١٨٨٥-١٩٥٦): كاتب وسياسي مصري، درس في المعاهد الأزهرية في المدينة، اشتغل في الصحافة المصرية وبعض الصحف العربية الصادرة في الأستانة، رحل إلى جنيف عام ١٩١٠ حيث أصدر فيها في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي صحيفة منبر الشرق. ثم أصدرها في مصر بعد عودته إليها عام ١٩٣٧، من أقطاب الحزب الوطني].

سنة ١٩٤١ وأثناء التحاقي بالأزهر الشريف كنت في زيارة للزميل الأديب الشيخ أحمد الشرباصي[1] رحمه الله وتشعب بنا الحديث.. والحديث ذو شجون وسألني الصديق الشيخ: هل جاءت القريحة بشيء في مناسبة وطنية تخص بلدنا فلسطين؟

فقلت: نعم وأخرجت ورقة وقرأت ما كتبت من شعر في تلكم المناسبة.. ولاحظت انفعالاً حماسياً في الأخوة الحاضرين.. فقال الشيخ أحمد: لماذا لا تنشر أمثال هذه القصيدة في الجريدة الحماسية الوطنية (منبر الشرق) فقلت: لأني لم أحاول من قبل.

فقال: حاول.. وهذا عنوان إدارتها وستلقى فيه مؤسسها الشيخ علي الغاياتي.. وهو أديب شاعر وطني مجاهد من رجالات الحزب الوطني.

(١) انظر ترجمة الشرباصي في مقالة أحمد الشرباصي، ص٣١.

وذهبت إلى مكـان الإدارة.. وانـفتح الباب وأشار لي موظف إلى حـجرة الأستاذ الشيخ وسبقني ليستأذن.. ورأيت الشيخ علياً رجلاً طويلاً مهيب الطلعة بشوش المحيا وبعد الترحاب وكلمات المجاملة قدمت نفسي طالباً في الأزهر من فلسطين وأحاول نظم الشعر.. وناولته قصيدة مخطوطة وأخذ يقرأ فيها.. لاحظته يقرأها صامتاً باهتمام.. ثم قال: هذا شعر جيد. وقال: وأحب أنا أيضاً قول الشعر.

فأجبته أنا أعلم أنكم من أعلام الشعر.. وديوان وطنيتي لكم شاهد فتبسم وقال: لقد منع وصودر.. فقلت: ولكنه الآن حر يدرسه من يعرفونه.

فقال: إن الشعراء الأحرار عليهم رسالة التوجيه والإثارة والتوعية.

قلت: التاريخ قديمه وحديثه بذلك شهيد وحافل.

فقال: ولكن بعض الشعراء ينشدون أشعارهم على أعتاب المديح الرخيص والملق والرياء.. وبهذا ينحرفون بالشعر عن سبيله.

قلت: الشعر مرآة نفس الشاعر.. فإن كان لديه ركيزة من الأخلاق والإباء كان شعره انعكاساً لنفسه وفيضاً من حسه.

فأجاب مؤمناً: نعم.. ثم واصل حديثه ليقول: نحن في حاجة إلى بناء كيان نفسي في كل فرد، يقوم على المثالية والتربية الصالحة ولا يوجد حافز قوي على هذه التربية ودافع أصيل لا يسمح لنفس الإنسان أن تتلون بالظروف ومع الظروف مثل عامل الدين.. وأيما زعيم مستقيم يستظل بالمثل الكريمة إلا ونفسه مصطبغة بصبغة الدين.

فقلت موافقاً: إن الضمير ونبالة النفس لا ينموان إلا في نفس تأثرت بالدين

حقاً.. نعم بالدين حقاً.. لا أن يتخذ وسيلة للعدوان والاستعمار.. ثم يزعم أنه دين.

واستطرد الشيخ علي قائلاً: هل تعرف كاظم موسى الحسيني[١] وعادل جبر[٢] وصاحب الإسلام الصحيح إسعاف النشاشيبي[٣] وعادل زعيتر[٤]؟

أجبته هؤلاء أعلام في فلسطين والعالم العربي. وكل أبناء البلاد يعرفونهم ولم يسعدني الحظ بلقائهم.. ولقد نشأت في قرية بعيدة عن مسرح الحياة في المدينة.

وبارحت حجرة الأديب الشاعر والزعيم الوطني وأنا أشعر بالارتياح.

وخرج عدد منبر الشرق وإذا بالقصيدة في الصفحة الأولى وقد مهد لها بمقدمة تشيد بمعانيها واتجاهها الوطني.

---

(١) موسى كاظم الحسيني (١٨٥٣-١٩٣٤): زعيم فلسطيني، ولد في القدس ودرس في الأستانة، تنقل في عدة وظائف في الإدارة العثمانية، عين رئيساً لبلدية القدس عام ١٩١٧، انتخب رئيساً للجنة التنفيذية العربية، والد الشهيد عبد القادر الحسيني.

(٢) عادل جبر (١٨٨٥-١٩٥٣): صحفي وسياسي، ولد في يافا، درس في إسطنبول ثمَّ في جامعة لوزان في سويسرا، عمل في دائرة المعارف الفلسطينية، ومديراً للمتحف الإسلامي في القدس، وكان عضواً في المجلس البلدي في القدس، أسس وحرر جريدة الحياة ومجلة الاقتصاديات العربية، وعين عضواً في مجلس الأعيان الأردني.

(٣) محمد إسعاف النشاشيبي (١٨٨٢-١٩٤٨): عُرف بأديب العربية، ولد في القدس، درَّس في الكلية العربية في القدس، وعمل مديراً لمدرسة الرشيدية ومفتشاً للتربية إبان الانتداب البريطاني، ألف العديد من الكتب أشهرها الإسلام الصحيح.

(٤) عادل زعيتر (١٨٩٧-١٩٥٧): كاتب فلسطيني، ولد في نابلس، درس الآداب في الأستانة، التحق بالجيش العثماني، انضم إلى الأمير فيصل، درس الحقوق في فرنسا، عمل محامياً، ترجم العديد من الأعمال الأدبية والفكرية الفرنسية.

وتكررت الزيارات.. وكنت أجد عنده بعض زائريه فيقدمني إليهم بوصف الشاعر الوطني الثائر على الظلم.. وأحس في نفسي بأنني أصغر كثيراً مما يضفيه علي.

وحدث عن تاريخ حياته قائلاً: أنا مصري من دمياط من مواليد ١٨٨٤ تعلمت في الأزهر الشريف وفيه تخرجت وكان الأدب والوطنية خط مسيرتي في الحياة.

ومن هنا. انضممت إلى الحزب الوطني بزعامة المرحوم مصطفى كامل باشا[١] فبادرته قائلًا: رحمه الله.. ووجدتني أنشد قول شاعر العربية الخالد[٢]:

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني[٣]

وقال: رحمه الله.. لقد اخترمته[٤] المنية وهو في أوج شبابه وعطائه وتابع الحديث ليقول: اختار أعضاء الحزب رئيساً جديداً عرف بالتفاني والإخلاص

(١) مصطفى كامل باشا (١٨٧٤-١٩٠٨): زعيم سياسي مصري، أسس الحزب الوطني وجريدة اللواء، دعا إلى الجامعة الإسلامية وتوثيق الصلة بالدولة العثمانية، ومحاربة الاستعمار، كما ركَّز على النهضة التعليمية.

(٢) أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي(١٨٦٨-١٩٣٢): أشهر شعراء العصر الحديث، يلقب بأمير الشعراء، مولده ووفاته بالقاهرة، تعلم في بعض المدارس الحكومية، وقضى سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، وأرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧ إلى فرنسا، فتابع دراسة الحقوق في مونبليه، واطلع على الأدب الفرنسي.

(٣) هذا مطلع قصيدة لشوقي في رثاء الزعيم المصري مصطفى كامل باشا.

(٤) أصلها خرم، بمعنى القطع والشق، والمقصود أن المنية قطعت وشقت حياته في أوج شبابه، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ١٢/ ١٧٠.

والإباء أمام العواصف. ذلك هو المرحوم محمد فريد[1].. ولقد كان صاحب ثروة طائلة فأنفقها في سبيل أمته وحريتها.. وصدرت الأوامر بإبعاده وإبعادي عن مصر وأقام بألمانيا حتى فقد كل ما تبقى معه وأصابته العلل والأمراض وقد أشرفت عليه في ألمانيا أسرة ألمانية تعالجه وتمرضه بغير مقابل. إلى أن قضى نحبه وتبرع تاجر من الزقازيق بدفع تكاليف إحضار جثمانه إلى مصر.. وكان أن دفن في ثرى بلده مصر باحتفال مهيب رحمه الله.

قلت: رحمه الله.. ولن يضيع عند الله أجر المجاهدين العاملين.. ومن فضل الله تعالى على الأمة أن يهيء لها من أبنائها العاملين المجاهدين الذين يحتسبون عملهم لوجه الله ولإسعاد أمتهم وتحرير أوطانهم من مطامع المعتدين.

وقال متابعاً وقد شعر بالراحة في سرد الذكريات: صادرت السلطات ديوان وطنيتي.. وعلمت أنها بصدد إلقاء القبض علي، ففررت سنة ١٩١٠ إلى الأستانة.. وعملت فيها محرراً في جريدة اسمها دار الخلافة.. ولكنني كنت تواقاً إلى تعلم الفرنسية والانتساب إلى إحدى جامعات الغرب لأزداد دراسة في العلوم الإنسانية. ولا سيما علم الاجتماع. كنت مصغياً إليه باهتمام.. وفي دهشة لما يلقاه أصحاب الأهداف الكريمة من شدائد وما يبذلونه من ضروب الكفاح.

وواصل حديثه ليقول ذهبت إلى جنيف وتعلمت الفرنسية وانتسبت لجامعة جنيف وتخرجت فيها. وأصدرت جريدة منبر الشرق باللغتين العربية والفرنسية..

---

(١) محمد فريد (١٨٦٨-١٩١٩): سياسي وحقوقي مصري، أنشأ مدارس ليلية لتعليم المصريين، كما أسس أول نقابة عمال مصرية عام ١٩٠٩، نظم العديد من المظاهرات مطالباً بالاستقلال، سجن، وتوفي في برلين.

ولا أنسى أن أقول: إني كنت المحرر الشرقي لجريدة تريبيون دي جنيف وكان لهذا التحرير أثر في توسيع معارفي السياسية وتقويتي باللغة الفرنسية.

ورجعت إلى البلاد إلى وادي النيل الغالي ولا كرامة لامرئ إلا في وطنه.. نعم رفع الحظر وظفرت بحريتي في بلدي وعدت إليها سنة ١٩٣٧. وأنصت قليلاً وأنشدت في فترة الإنصات قول شوقي رحمه الله:

أحــرام عــلى بــلابــلــه الــدوح   حــلال للطـير مـن كل جنـس[1]

وإذ سمع بيت شوقي أعاده مرة أخرى محزوناً متحسراً.

وعلمت أن له ديوان شعر أنشأ قصائده في منفاه أسماه: «ديوان هجرتي».. وله كتاب كان يعمل على إنجازه حينذاك يتحدث فيه عن ثورة مصر في سنة ١٩١٩. وكان رحمه الله كثير التشوق للصلاة في المسجد الأقصى المبارك.. وعلمت فيما بعد أنه أصيب في ابنه الوحيد سعيد وأنه خلع الثياب الإفرنجية.. وعاد إلى عمامته وجبته وحج بيت الله وأصدر كتيباً باسم «على هامش الحج» وكانت وفاته رحمه الله سنة ١٩٥٦.



(١) بيت من سينية شوقي التي أبدعها في منفاه في إسبانيا، عندما مر على قصر الحمراء يعارض فيها سينية البحتري.

عالم الحديث الكبير الإمام الشنقيطي

[محمد حبيب الله الشنقيطي (١٨٧٨-١٩٤٤): عالم حديث موريتاني مشهور، ينسب إلى بلاد شنقيط، أخذ القرآن واللغة عن علمائها، ترك بلاده إلى المغرب عندما احتلت فرنسا موريتانيا، درس المنطق والحديث، ثم توجه إلى الحجاز، فدرَّس في مكة والمدينة، ويقال بأنّه أُخرج من الحجاز، واستقر به المقام أخيراً شيخاً للحديث في الأزهر، وقد أعده الكثير من العلماء بخاري هذا العصر، وكان يحفظ كتب الحديث الستة المعروفة، ترك العديد من المؤلفات].

في الأربعينات كنت لا أزال طالب علم في الأزهر المعمور بالقاهرة.. وكان مسجد سيدنا الحسين وفي شهر رمضان المبارك غاصاً برواده.. من طلاب العلم والمثقفين على اختلاف في مشاربهم وتخصصاتهم.

وقد استن العلماء الأعلام فيما يتصل بعلوم الدين.. ولا سيما التفسير والسنة النبوية والسيرة المشرفة أن يلقوا في رحبات ذلك المسجد العتيد دروساً شائقة شاملة.

كان ضمن هؤلاء العلماء عالم الحديث المشهور.. والحافظ لسنة رسول الله ﷺ.. وبخاري هذا العصر.. الإمام محمد حبيب الله بن عبد الله بن أحمد المشهور بما يأبى[1] الجكني الشنقيطي.

(١) يقال بأنّه كان يأبى أن يرد طلباً لأحد.

وجلست في حلقة درسه وكان الحاضرون كثيرين جداً.. ومما أثار انتباهي ودهشتي أنه يكثر في الحاضرين على هذا الشيخ الجليل كبار الأساتيذ والعلماء في الأزهر والجامعة المصرية ـ كما كانت تسمى ذلك الحين ـ ودار العلوم وكبار العلماء في المجمع اللغوي وسائر المعاهد.. ومن بلاد متباعدة.

كان الحشد الكثيف صامتاً ساكناً لا يرف فوقه إلا وقار العلماء. وكان الشيخ على كرسيه ـ كما شهدته عيناي ـ ذا لباس بسيط بعمامة يسيرة. لا تأنُّق فيها، ولا تعجل. تذكر بعمائم السلف. كان أقرب إلى نحافة الجسم. بوجه حنطي اللون. ولحية استطالت قليلاً تملأ قبضة اليد لو أطبقت عليها الراحة بصوت لا تزال فيه لهجة مغربية.

كان يقرأ الحديث الشريف يبدأ بالسند.. أعني رجال الحديث ثم يعطي شرحاً موجزاً عن كل واحد ثم يذكر رتبته من حيث العدالة والضبط.

ويأخذ في توضيح المتن. ويذكر أن فلاناً روى كذا.. وأن فلاناً وضع لفظاً وكان لفظ بحيث يتوضح كل ما جاء حول الحديث الشريف سنداً ومتناً. وأن طريقة الشيخ الإمام في درسه واضحة محفوظة في الكتاب الرائع المتداول بين يدي أهل العلم (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم) ثم يشرح الكلمات اللغوية وتصرفاتها وشتى استعمالاتها.. ويورد بعضاً عن الشواهد لها شعراً ونثراً. حتى يخيل لمن يسمعون أنهم عند أبي علي القالي(١) في كتاب الأمالي. أو عند ابن قتيبة(٢)

---

(١) إسماعيل بن القاسم بن عيذون، أبو علي القالي (٢٨٨-٣٥٦هـ = ٩٠١-٩٦٧م): أحفظ أهل زمانه للغة والشعر والأدب. سكن العراق والأندلس من أشهر تصانيفه كتاب النوادر ويسمى أمالي القالي في الأخبار والأشعار.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، أبو محمد (٢١٣-٢٧٦هـ = ٨٢٨-٨٨٩م): من أئمة =

في عيون الأخبار. وقد يعرض لمسألة نحوية فيشبعها شرحاً وبياناً.

وبعد ذلك يشرح الحديث والهدف الإرشادي فيه، حتى يخيل للسامعين أنهم في عصر النبوة أو التابعين يعيشون.

كان إذا تحدث عن عيب اجتماعي أو نقيصة في قوانين الدول الإسلامية يتحدث بصراحة ولا يهتم بما عساه يكون.

جاءه مرة وهو في درسه رجل وسأله عن حديث يتعارض ظاهره مع حديث آخر، وقرأ كل حديث منهما وتعمد أن يؤخر في بعض الرواة. وأن يضع اسماً في الرواية من عنده. وقرأ كل حديث قراءة طبيعية متأنية.

فأجابه الشيخ بصوت فيه حدة واضحة.. فصحح له خطأه في الرواية واستنكر الاسم الموضوع.. ثم ذكر معنى كل حديث بما لا معارضة فيه للآخر.

ودهش السامعون.. وقد فطنوا لـمغزى صنيع السائل من كونه اختباراً. ولكن الشيخ بتوفيق الله وسلامة حفظه. أجاب بما أدهش وسر.

وقلت في نفسي: سبحان الله يتعرض هذا المحدث الكبير لمثل ما تعرض له من قبله أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري[1] رحمه الله.

= الأدب، ولد في بغداد، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها، وتوفي ببغداد. من أشهر كتبه أدب الكاتب وعيون الاخبار.

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، أبو عبد الله (١٩٤-٢٥٦هـ = ٨١٠-٨٧٠م): من أشهر أئمة الحديث النبوي الشريف، صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري، وغيره من التصانيف القيمة ولد في بخارى، وزار الكثير من بلاد المسلمين طلباً للحديث النبوي الشريف، توفي في سمرقند.

وكان معروفاً عند الأزهريين أن هذا العالم الفذ يحفظ كتب الحديث الستة المعروفة: صحيح البخاري وصحيح مسلم وصحيح الترمذي وسنن النسائي وسنن أبي داود وموطأ مالك.

وكان أستاذاً للحديث في كلية أصول الدين إحدى كليات الأزهر الشريف، وكان راتبه أقل مما يتقاضاه أمثاله من المدرسين والمحاضرين.

ذلك أنه لم يحصل على شهادة علمية من جامعة ما.. واستنكف أن يتقدم لامتحان في الجامع الأزهر.

وقد ولد هذا الإمام في بيئة علم وأدب في شنقيط من موريتانيا سنة ١٨٧٨م وعلى علمائها تخرج.. ثم انتقل إلى مراكش فالمدينة المنورة ثم أقام في مكة المكرمة. وانتهى به المطاف إلى القاهرة ليجد الجو العلمي الذي يتوق إليه.

وكانت وفاته رحمه الله وجازاه بعلمه وعمله خير الجزاء في القاهرة سنة ١٩٤٤. وله من التواليف العلمية الرصينة: (١) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم (٢) إيقاظ الأعلام (٣) رسم المصحف (٤) دليل السالك إلى موطأ مالك منظومة (٥) إضاءة الحالك شرحاً للمنظومة (٦) أصح ما ورد في المهدي وعيسى (٧) هدية المغيث في أمراء المؤمنين في الحديث (٨) إكمال المئة في سند المصافحة (٩) الخلاصة النافعة في الحديث المسلسل بالأدلية (١٠) حياة علي بن أبي طالب.

رحمه الله وعوض الأمة بمن يخلفه في علمه ودرايته ونفعه للناس.



قارئ العصر الشيخ محمد رفعت

[محمد رفعت (١٨٨٢-١٩٥٠): من مشاهير المقرئين في مصر، ولد في القاهرة، أصبح ضريراً وهو صغير، كان يقرأ القرآن في المساجد وفي الإذاعة المصرية، توفي ودفن في القاهرة].

أشهر القراء وأعلمهم بمواطن الوقف من الآيات. ذو صوت آسر ينفذ إلى قلوب المستمعين.. إلى حياء وعفة وزهد في الحياة. وتواضع كريم يزيد من يعرفونه حباً له. وقد ولد في القاهرة ١٨٨٢ وكف بصره في السنة السادسة وتوفي سنة ١٩٥٠ كان معتزاً بدينه وأخلاقه.. يرى أن أكرم نسب ينتمي إليه هو أن يكون طالباً للقرآن الكريم وكفى.

كان يتلو القرآن الكريم في مسجد قديم صغير بالنسبة للمساجد الكبار.. وكان الناس يوم الجمعة يبكرون في الذهاب إليه ليجد الذاهب مكاناً يجلس فيه.. قال أحدهم: أحس في نفسي صادقاً أني إذ أستمع إلى تلاوة الشيخ محمد رفعت. أن القرآن ينزل لأول مرة.. ينزل به جبريل متلواً بأصوات الملائكة المقربين الخاشعين.

كان إذا انتهى به الموقف على آية اندفع السامعون بصوت أفعمه الخشوع. وفاض به الحنان. قائلين: الله ممدوده رقيقه عذبة. تجلى بها النفوس من همومها وأوضارها.

كان المسجد الضيق المساحة نسبياً يضيق برواده.. فطلبت وزارة الأوقاف أن يقرأ في أحد المساجد الكبار.. فأبى وقال: إن مسجداً تشرفت بجواره منذ نشأتي.. وتلوت فيه القرآن الكريم طوال حياتي.. لن أبرحه ما دمت حياً إلى مسجد آخر. مع أن المساجد لله.. ولكنني أقترح عليكم أن تزيدوا في سعة المسجد وأن تجعلوا فيه الكثير من المراوح في أيام الحر.

كان الشيخ رحمه الله يتلو في دار الإذاعة المصرية.. وعلم أن أم كلثوم(١) تتقاضى عن حفلتها في دار الإذاعة أجراً أكبر من أجره بكثير.. وهنا قال لدار الإذاعة: إن فترة التلاوة يجب أن يكون أجرها أجزل من أجر حفلة الغناء. ودهشت دار الإذاعة وقالت له: نحن نعطيك أجراً أجزل من أجر غيرك من القراء.. فأجابهم: أنا أطلب إكرامية التلاوة.. ولا أقارن بيني وبين القراء.

وامتنع الشيخ رحمه الله عن الذهاب إلى دار الإذاعة.. وهنا تنهال على دار الإذاعة المصرية المكالمات والبرقيات والرسائل العاجلة تطلب منها إذاعة تلاوة الشيخ رفعت بالذات.. ولا تريد سواه وتفاوضه الإذاعة وتصل في مفاوضاتها معه أن ترضى بمساواة أجره بأجر أم كلثوم.. ويأبى الشيخ عرض الإذاعة ويرفض إلا أن يزيد أجره عن أجر أم كلثوم.. وانتهى الحل بزيادته ولو بمقدار رمزي.

قد يسبق إلى ذهن من لا يعرفون الشيخ أنه متعلق بالمادة.. والواقع أنه على غير ذلك فقد كان مجاوروه في حي السيدة زينب في القاهرة لا يبخلون من تعاطفه معهم وصلاته بهم.. لقد كان يقرأ في كثير من المنازل للمناسبات العارضة بغير

(١) أم كلثوم (١٨٩٨-١٩٧٥): مغنية مصرية، اسمها فاطمة إبراهيم السيد البلتاجين، اشتهرت في القرن العشرين على مستوى مصر والعالم العربي، لقبت بكوكب الشرق وسيدة الغناء العربي.

مقابل.. بل كان يأخذ معه هدية إن كانت المناسبة ختاناً أو زواجاً.

حينما توفي الملك فؤاد[1] جمع القصر الملكي قراء مصر ليقرأوا القرآن.. وبعث إلى كل قارئ بكتاب شكر ومعه أربعون جنيهاً مصرياً.. وحينما جاء الكتاب الشيخ رفعت.. رد مبلغ الأربعين جنيهاً وقال في كتاب أرسله: ما قرأت رغبة في أجر مادي.. وإنما قرأت ترحماً على روح الملك فؤاد.. فما كان من القصر إلا أن بعث مندوباً عنه إلى منزل الشيخ يشكره. ويعلمه أن القصر رتب له كل شهر مبلغ أربعين جنيهاً.. ويقرأ الشيخ كل ليلة جمعة ما تيسر له من القرآن ويهب ثوابه لروح الملك فؤاد رحمه الله.. وأن تعليم أولاد الشيخ حتى منتهى التعليم العالي في مصر وفي الخارج.. وأن علاج الأسرة ودواءها.. ولو في خارج مصر كل ذلك على حساب القصر.. وأعلمه أن هذه إرادة نافذة شاء الشيخ أم أبى..

وفي سنة ١٩٤١ أقام شباب فلسطين حفل تأبين للمرحوم الشيخ سليم اليعقوبي[2].. وقد توفاه الله في الديار المقدسة بعد أداء المناسك.

وكان أبو الإقبال اليعقوبي والملقب بحسان فلسطين. شاعراً فاضلاً يحب بلده فلسطين. ويشيد بذكرها وقضيتها. في كل ناد ومحتفل.

كان الاحتفال في قاعة جمعية الشبان المسلمين في القاهرة. وكان برنامج

---

(١) الملك فؤاد الأول (١٨٦٨-١٩٣٦): سلطان مصر من ١٩١٧-١٩٢٢، تم في عهده تأليف أول وزارة شعبية برئاسة سعد زغلول عام ١٩٢٤، كما عقدت إبان حكمه المعاهدة المصرية البريطانية عام ١٩٣٦.

(٢) سليم اليعقوبي أبو الإقبال (١٨٨٠-١٩٤٦): ولد في اللد، درس في الأزهر، عمل قاضياً في يافا، اعتقله الانتداب البريطاني، عمل واعظاً وإماماً في جامع حسن بيك الكبير في يافا، صدر له عدة مجموعات شعرية.

الاحتفال تلاوة عطرة من الشيخ رفعت. ثم الأستاذ السباعي بيومي* فالدكتور زكي مبارك[١].. فالشاعر أحمد محرم[٢].. فشاعر الأقطار العربية خليل مطران[٣].. فالشاعر الزجال أبو بثينة* فأحد أبناء الفقيد.. ولا أزال أذكر الصورة التي دخل بها القاعة المرحوم الشيخ رفعت. توجه إلى الحاضرين فقال: أجمل الله عزاءكم أيها الإخوان. ثم جلس على كرسيه بعد أن خلع حذاءه. وطلب إلى الحضور بلطف أن يطفئوا السجاير.. ثم أخذ يتلو بصوته الخاشع الملائكي. وبعد نهاية التلاوة ترحم على الفقيد داعياً لأهله بالصبر والسلوان.. ثم انصرف بتؤده وإجلال.. رحم الله الشيخ رفعت في القراء الصالحين.



(١) زكي مبارك (١٨٩٢-١٩٥٢): أديب وشاعر وصحفي مصري، حصل على ثلاث درجات دكتوراة متتالية من مصر وفرنسا، درّس في الجامعة المصرية، كما انتدب للعمل في دار المعلمين العالية في العراق، له العديد من المؤلفات.

(٢) أحمد محرم (١٨٧٧-١٩٤٥): شاعر مصري، من شعراء مدرسة البعث والإحياء في الشعر العربي، كان من دعاة الجامعة الإسلامية ووقف مع الخلافة العثمانية، صور سيرة النبي ﷺ في ملحمته مجد الإسلام من ثلاثة آلاف بيت.

(٣) خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩): شاعر القطرين، لبناني المولد، عاش معظم حياته في مصر، من دعاة التجديد في الأدب والشعر العربي، أدخل الشعر القصصي والتصويري للأدب العربي.

محمد الغزالي

[محمد الغزالي (١٩١٧-١٩٩٦): مفكر إسلامي مصري، ولد في نكلا العنب بمحافظة البحيرة، درس في الأزهر ونال شهادة العالمية عام ١٩٤٣، انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين في وقت مبكر، عمل في التدريس في الجامعات المصرية والعربية، من الذين وقفوا ضد التيارات الفكرية الغربية، له العديد من المؤلفات، توفي في السعودية ودفن في البقيع].

في الأربعينات من هذا القرن العشرين كنت لا أزال طالباً في الأزهر الشريف وكانت مجلة الأنصار ذات الصبغة العربية شعاراً ومفهوماً تفسح لي أن أكتب فيها بعض شعر تجيش به النفس.

كنت راجعاً من إدارتها في ميدان الأزهر بعد الغروب. وإذ ترجلت الترام[1] في ميدان العتبة الخضراء خشيت على فريضة المغرب أن يفوتني وقتها فعرجت لأدائها في مسجد العتبة. وإذ أديتها لاحظت شيخاً مقبلاً إزائي. وأحسست أنه متوجه صوبي. وقال الشيخ: السلام عليكم ورحمة الله. ورددت عليه تحيته مصافحاً. وقال مرحباً بك في بيت الله. وقلت: وحياك الله وباركك أخاً فاضلاً.

(١) مركب عام يسير بالكهرباء على قضبان حديدية في المدن وضواحيها، مصطفى، إبراهيم، وآخرون، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، ط: بلا، مكان النشر: بلا، ١/ ٨٤.

وقال مقدماً نفسه: أخوك في الله محمد الغزالي. وقدمت نفسي قائلاً: ونعم الأخ الفاضل والكاتب الإسلامي المجيد!

وفجأة جاءنا ثالث وهو الزميل الأزهري الشيخ: بسام حنون*.

ودعانا الشيخ محمد إلى حجرة الإمام الخاصة به إذ كان إماماً لذلك المسجد.. وأعد لنا إبريقاً من الشاي الأخضر.. وقال الشيخ ونحن نحتسي كئوس الشاي: أقرأ لك شعراً في الصحف وفي شعرك أصداء إسلامية وعربية.

قلت: يا شيخنا الفاضل إن الأقلام تنبعث للتعبير عن حياة حامليها حياة وفكراً وخاطرة. وحياة أمتنا جراح وشكوى وتآمر علينا وتمزق في صفوفنا!

وتابعت قولي لأقول للشيخ محمد: وأنا إذ أقرأ لك أذكر ثلاثة من أعلامنا الكاتب الكبير عبد الوهاب عزام(١) والإمام المرشد حسن البنا(٢) والكاتب اللوذعي(٣) سيد قطب(٤) ولا أقول: إنك تأخذ من هؤلاء مقلداً أو مقتبساً ولكنك تنحو نحوهم بأصالة واضحة وبفكر منير.

أجاب الشيخ شاكراً ممتناً وقال: إن خضم ما كتب السابقون لا يُلقي صياد

---

(١) انظر ترجمة عزام في مقالة عبد الوهاب عزام، ص٦٠.

(٢) انظر ترجمة البنا في مقالة الإمام حسن البنا، ص٢١٠.

(٣) هو صاحب الفؤاد الحديدي واللسان الظريف، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ٨/ ٣١٧.

(٤) سيد قطب (١٩٠٦-١٩٦٦): مفكر إسلامي مصري، حاصل على ليسانس آداب، عمل مدرساً، ثم موظفاً في مكتب وزير المعارف، اشتهر بمقالاته القوية في المجلات المصرية، أصبح رئيس تحرير مجلة الإخوان المسلمون عام ١٩٥٣، له العديد من المؤلفات؛ منها كتاباه معالم في الطريق وفي ظلال القرآن، عارض نظام الحكم الناصري وأعدم على خلفية ذلك.

بشبكته فيه إلا ويـخرج باللآلئ الثمينة.. وكتاب الله الكريم وسنة رسوله الغراء صلوات الله وسلامه عليه يغنيان المفكر الحصيف ويلهمانه كل ثمين.

وهنا قـال الشيخ بسام: إن شيخنا الغزالي راض عـن كتابتك مسرور بـها ويرجو المزيد.. وقال الشيخ محمد بعد حمد الله تعالى: جعلني الله عند حسن ظن الإخوان الصالـحين.. وقلت: إن الدين الإسلامي وإن بلادنا مستهدفان يدور المكر بخيوطه وألاعيبه حولهما. وتوجد مع الأسف في بعض مفكرينا آذان صاغية تحسب كل ما يقذف به ذلك الغرب الحاقد فكرا وفلسفة. فيخدعون ويتابعون منوخين[١] بأوهام التقليد.

وأتم الشيخ محمد الحديث في سخرية واضحة قائلاً: وتابع صغار المقلدين كبار هؤلاء المقلدين!

قلت: وما السبيل لصحوة المقلدين وإرجاعهم لسنن الجادة؟

قال الشيخ الغزالي: السبيل واضح في تفهم القرآن والعمل بما يريد.. وفي تدبر السنة والعمل بما ترشد إليه.

قلت: وهذه والله أنجح سبيل إلى اليقظة والصحوة المنشودة في هذا الجيل وفي غيرة مـن الأجيال. ولقد جرب في الـماضي فـأعطى أنجع الثمرات وخير القرون.. ثم قال الشيخ الغزالي لأضرب لذلك مثلاً من الواقع المرئي لنا. هذا أمير جماعة الإخوان الأستاذ البنا حفظ كتاب الله تعالى وتأمل كثيراً في تفاسيره.. واستقى من ينبوع السنة عن طريقة والده الذي أعاد ترتيب مسند ابن حنبل رضِيَ

---

(١) مقيمين، انظر: ابن منظور، مصدر سابق ٣/ ٦٥.

الله عنه شارحاً إياه. وكان الشيخ يتلقى ذلك بوعي صاح وفهم عميق وإفاده ذلك في تكوين شخصيته المسلمة أيما إفادة فكان إذا دخل مسجداً أو أعطى درساً يغوص على دقيق المعاني وملهم الأفكار!

ولنتأمل سيرورته في الحياة وواقعه العملي فيها. ففي صمت غريب لم يكن يعلن عن أعماله ولا زياراته ولا تنقلاته في المدن المصرية أو قراها.. لقد تنقل بين ثلاثة آلاف قرية ومدينة من قرى مصر البالغة أربعة آلاف.. وعلى مدى عدة سنوات كوّن الجماعة الواعية التي تعرفت طريقها وطريق سلفها الرشيد مما جعل الغرب الماكر يحذرها ويترصد أعمالها ويشيع عنها الأكاذيب وسيء الإشاعات. وهنا ارتفع صوت المؤذن ينادي لصلاة العشاء فقمنا وصلينا.. وبعد الفراغ من أداء الواجب استأذنا منصرفين كلاً إلى منزله.. وكان الحوار مع الغزالي وما يرمي إليه لا يزال تدور به خواطري.

وذات يوم بعيد صلاة العصر خرجت أنا وصديقي الفاضل الشيخ أمين عارف الخطيب[1] ميممين شطر سور حديقة الأزبكية نرى علية رفوف الكتب والمجلات.. ورب نادرة فيه لا تلقى في مكتبة.. وابتعنا من الباعة ما راق لنا. وعدنا معرجين إلى المسجد حيث نصلي المغرب ونستمع إلى حديث صديقنا الغزالي الشيق.. وقابلنا ببشاشته المعهودة واستقر بنا المجلس في حجرة الإمام الخاصة.. وراع الشيخ الغزالي أن أخانا الشيخ أمين لا ينطق إلا بالعربية في لغة التخاطب العادية وفي كل شأن من شئونه ومع الناس كافة فاستحسن ذلك منه.

---

(١) أمين عارف الخطيب: ولد في جبع ـ جنين، درس في الأزهر، عمل خطيباً وواعظاً في مساجد فلسطين والأردن، على وجه الخصوص في مسجد الشابسوغ في عمان، عرف بجرأته بالخطابة، وكان لا يتحدث إلا بالعربية الفصيحة، فعرف بين أصدقائه بأمين النحوي.

وعدنا إلى شتى الأحاديث تهيم بنا في كل واد.. وإن كان محور الحديث الدعوة وما يستتبعها من مشاق وصعوبات مفتعلة.. يحرص على وضع الأشواك فيها أعداؤها ولكن المؤمنين حقاً لا يبالون بالصعوبات ولا بأشواكها.

وهنا اندفع الشيخ أمين وفي حماسة أعهدها فيه متمثلاً بهذا البيت الذي أنشده خبيب[١] رضِيَ الله عنه وهو مرفوع ليصلب:

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي!

قلت: بل قاتل الله بتدبيره أعداء الدعوة.

وقال الغزالي رحمه الله: لقد قلنا وسنقول دائماً: إن المؤمن حقاً لا يبالي بالصعوبات.. ويصبر راضياً على آلام أشواكها.. والتاريخ الإسلامي مليء بالنماذج العظام من الأبطال الميامين ممن ارتفعت بسواعدهم راية الإسلام عالية في كل مكان!

قال الشيخ أمين: وفي أي بيئة ينبت هؤلاء الدعاة الأبطال؟

قال الغزالي: في البيئة التي نبت فيها أبطال السلف. إن البيئة التي نبت فيها الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم من الحكام الصالحين هي نفس البيئة التي [فيها] نبت محمود زنكي[٢] وصلاح الدين[٣].. وتابع قوله متحمساً: إن القرآن

---

(١) خبيب بن عدي الأوسي: صحابي جليل من الأنصار، شهد بدراً واستشهد في عهد النبي ﷺ.. وله بيت الشعر: ولست أبالي حين أقتل مسلماً... على أي جنب كان في الله مصرعي، قاله عندما أراد آسروه من مشركي قريش قتله.

(٢) محمود بن زنكي (عماد الدين) الملقب بالملك العادل (٥١١-٥٦٩هـ=١١١٨-١١٧٤م): ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، انتصر على الفرنج في أكثر من موقعة، وكان يتمنى أن يموت شهيداً، فمات بعلة (الخوانيق) في قلعة دمشق، فقيل له (الشهيد) وقبره في المدرسة (النورية).

(٣) يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر (٥٣٢- =

الكريم والسنة الغراء وتاريخ أمتنا في مد وجزر. أولئك كفيلة بخلق القائد الصالح العارف دربه والواعي بما يقول ولما يقول والشيخ محمد عبده وتلميذه الذكي رشيد رضا والشيخ البنا خير مثال لأكرم نتاج لتلكم الثقافة الإسلامية السامية.

قلت مؤمناً: ومن هنا تصنع الدسائس وتحاك الأكاذيب للتشكيك بقيمة هذه الثقافة وتكريهنا بها لننصرف عنها إلى ما يريدون لنا. كما يشككون في كرام رجالها. وقال الشيخ أمين: إنهم يشككوننا في العقيدة والثقافة واللغة وحتى كتابة الحروف.. وإنهم ليصورون لنا كل ما يمت للعربية غولاً أو عاراً! وقلنا جميعاً: نعم إنهم ليحاربوننا في شتى الميادين لمآربهم الاستعمارية قاتلهم الله.

وبقي أن نقول: إن محمداً الغزالي تخرج في الأزهر وكان معجباً بالكاتب الإسلامي الكبير المرحوم مصطفى صادق الرافعي.. كما كان يتأثر بكتابات الداعية الإسلامي الكبير المرحوم شكيب أرسلان[1].

وكان الغزالي خطيباً مفوهاً سليم اللغة واسع الأفق عميق الثقافة متأجج المشاعر ساحر البيان رحمه الله رحمة واسعة. مشعلاً منيراً وحساماً باتراً لأعداء الإسلام!

وبعد فقد طالعتنا وسائل الإعلام بأن هذا الداعية الواسع الأفق والمتعدد

= ٥٨٩هـ = ١١٣٧-١١٩٣م): محرر القدس من أيدي الفرنج، دانت له البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالاً، وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً، وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي «يوم حطين».

(١) شكيب أرسلان (١٨٦٩-١٩٤٦): أديب ومؤرخ عربي، لقب بأمير البيان، ولد في لبنان، أقام في مصر وزار الأستانة، أتقن العديد من اللغات منها الألمانية والتركية والإنجليزية، وعرف بغزارة إنتاجه الأدبي والفكري والتاريخي.

المنابر انتقل إلى جوار الله في ١٠/ ٣/ ١٩٩٦م فإلى جنان الخلود أيها الشيخ الصالح!

ولقد ترك للمكتبة الإسلامية أكثر من أربعين كتاباً حول قضايا الإسلام ومكايد أعدائه الاستعمارية التبشرية.. والدعوة إلى العودة إلى دين الله حتى يصلح المسلمون بذلك إلى الوحدة في ظلال كتاب الله. كما أن له عدة محاضرات وخطب منبرية خرجت أو أخرجت متسلسلة في أجزاء.

ومتى ولد رحمه الله؟ لا أعرف تاريخاً دقيقاً ويغلب على ظني أنه من مواليد العقد الثاني من هذا القرن العشرين.



الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي

[مصطفى المراغي (١٨٨١-١٩٤٥): عالم أزهري مصري، ولد في مركز المراغة في صعيد مصر، تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، تولى منصب قاضي القضاة في السودان، كما تولى مشيخة الأزهر عام ١٩٢٨، وكان أصغر من يتولى هذا المنصب سناً في تاريخ الأزهر، عرف بموقفه الرافض لمشاركة مصر في الحرب العالمية الثانية، وقال حينها قولته الشهيرة: «إنها حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل»، وكان المراغي عالماً في التفسير، وله بحث مشهور في ترجمة القران].

كان رحـمه الله ملء السمع ملء البصر.. حينما يذكر اسمه تـمتلئ النفس بمشاعر الإكبار والإجلال.

كان معتزاً بـدينه.. واثقاً مـن نفسه.. حريصاً على الأزهر أن يكون مصنعاً لقادة موجهين وصفوة رواد نابهين.. يكونون من الأمة في مركز القيادة والتوجيه. يقظة صاحية وريادة واعية عمادها الكتاب والسنة والسيرة الغراء عبر القرون.

في رأس السنة الهجرية أقام الأزهر الشريف احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة.. خطب فيه الإمام المراغي خطبته التي جاء فيها قوله: اللهم جنب الأمة الإسلامية وبلادنا العربية أخطار هذه الحرب الضروس التي لا ناقة فيها لنا ولا جمل.

كانت الحرب العالمية الثانية في مطلع الأربعينات من هذا القرن على أشدها..

وكانت دعاية الحلفاء تقول: إنهم يدافعون عن الإسلام والمسلمين إذ يدافعون عن الحريات والديمقراطية.. كما كان يقول موسيليني[١]: أنا حامي حمى الإسلام. وهنا غضب وثار السفير البريطاني لاميسون[٢] في مصر واحتج إلى الملك فاروق[٣] ووزرائه وطالب أن يعتذر الإمام المراغي عن كلمته.. ولكن الشيخ ظل ثابتاً في موقفه مصرًّا على ما قال.

وقال شيخ لنا في قاعة الدرس.. وقد جاءت مناسبة لحديثه. كنت أنا وغيري من الشيوخ في مكتب الإمام في إدارة الأزهر العامة وقد جاء رئيس الوزراء علي ماهر[٤] ومعه وزيرا الأوقاف والداخلية.. وكانت المجاملات والأحاديث.. في هذه الأثناء انفتح الباب وإذا بطالب يدخل.. وإذ رأى الجالسين أصيب باضطراب

---

(١) بينيتو موسيليني (١٨٨٣-١٩٤٥): حاكم إيطاليا ما بين ١٩٢٢-١٩٤٥، مؤسس الحركة الفاشية، خاض الحرب العالمية الثانية متحالفاً مع ألمانيا. أعدم في ميلانو أواخر الحرب العالمية الثانية.

(٢) مايلز لاميسون (١٨٨٠-١٩٦٤): دبلوماسي بريطاني، ولد في أسكتلندا، عمل في وزارة الخارجية منذ عام ١٩٠٣، شغل منصب المفوض السامي في مصر والسودان بين عامي ١٩٣٤-١٩٣٦ سفير بريطانيا في مصر ما بين ١٩٣٦-١٩٤٦.

(٣) الملك فاروق الأول (١٩٢٠-١٩٦٥): حكم في مصر بعد وفاة والده الملك فؤاد وكان عمره ١٦ عاماً، عرف عنه حبه للنزوات والمغامرات، عُرف بخلافه مع حزب الوفد المصري، وفي عهده هزمت مصر أمام المنظمات الصهيونية في حرب عام ١٩٤٨، وقد انتهى عهده بالثورة عليه من قبل الضباط الأحرار عام ١٩٥٢، توفي في إيطاليا.

(٤) علي ماهر (١٨٨١-١٩٦٠): سياسي مصري بارز، شارك في ثورة ١٩١٩، تسلم وزارة المعارف ١٩٢٥، شغل منصب رئيس وزراء مصر أربع مرات، ترأس أول وزارة مصرية بعد ثورة الضباط الأحرار عام ١٩٥٢، اتهم بموالاته للمحور فقبض عليه. شغل منصب رئيس الديوان الملكي في عهد الملك فؤاد.

ودهش. كان يبدو على الطالب أنه حديث عهد بالقاهرة.. فتقدم من الشيخ وهو في حالة من الاضطراب والدهشة.. فقال له الشيخ بصوت فيه تؤدة وإشفاق: اخرج. فامتثل خارجاً. وإذ وصل الباب. رفع الشيخ صوته قائلاً: عد يا شيخ فعاد الطالب مرة ثانية وهو في حالة من الاضطراب والارتباك.

ونظر إليه الشيخ في حيرة.. وكنا نحن ننظر صامتين مترقبين: وهنا قال الشيخ الإمام: واضح.. عد وجئ مجيء الرجال. ويبدو أن الطالب الأزهري فطن إلى ما يرمي إليه الشيخ فخرج.. وبعد هنيهة عاد الطالب الأزهري فقرع الباب وأذن الشيخ الإمام له بالدخول. فدخل ثابت القدمين.. رافعاً رأسه.. مندفع الصدر قائلاً: السلام عليكم ورحمة الله.

فوقف الإمام تقديراً ووقف الحاضرون جميعاً وقال الإمام: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضل. ثم قدمه للحاضرين وقدمهم إليه.. رئيس الوزراء والوزيرين وكبار المشايخ والضيوف. ثم أجلسه بجانبه مرحباً سائلاً له من أي بلد. وبعد أن قدمت له القهوة سأله عن حاجته. فقال: أريد سكناً في رواق الصعايدة. فتناول الشيخ القلم وورقة وزوده بكتاب بحل مشكلته. وخرج الطالب مبتسما مسروراً.

نعم كان الإمام المراغي حريصاً على بناء العزة والكرامة والثقة في نفوس الطلاب جميعاً.. أليس الأزهريون هم القادة الموجهون؟ أليس رجل الدعوة لسان الحق حيثما يكون؟

كان الطلاب يريدون رجوع شيخ مدرس نقلته الإدارة إلى معهد خارج القاهرة. ورفعوا شكواهم إلى الشيخ الإمام.. فأمر الشيخ بإدخالهم حجرته.

وأخذ يسألهم ثم وعدهم بإرجاع الشيخ.. ثم قال: هل تدرسون الأدب؟

فاختلفت الأجوبة إيجاباً ونفياً.

فقال: أريد منكم أن تعطوا الأدب ساعتين في اليوم على أقل تقدير.. إنَّ العلم بلا تعرف للأساليب الأدبية كسار في الليل بلا مصباح.. أنتم سفراء الأزهر إلى الأمة. وكيف تحسنون إيصال العلم بغير دراية لفن الأدب.

احتفل الأزهر بذكرى المولد النبوي الشريف. وحضر الأستاذ الأكبر ليلقي كلمة وكان بصحبته الداعية الإسلامي الكبير أمير البيان المرحوم شكيب أرسلان.

وكان رحمه الله في أخريات سني عمره يستعين بغيره في جلوسه أو قيامه.. وطلب إليه الإمام أن يلقي في هذا المحتفل الحاشد. فاعتذر بتعبه وكبر سنه وهتف الطلاب الأزهريون تحية للضيف الكبير ورجوه أن يفتتح الحفل بعد أن افتتح بتلاوة ما تيسر من الكتاب الكريم. وأصر الأمير على اعتذاره بصوت ينهدج[1] بما يشبه البكاء.. وكان بادي الانفعال.

وألقى الإمام كلمة جامعة بصوته الساحر المؤثر.. يزين الوقار وجمال الأداء وقال الأمير الكبير: إن في كلمة الإمام الرائعة لبلاغاً عن كل محاضر أو خطيب.

ولد الإمام في مراغة من الصعيد المصري سنة ١٨٨١ وتخرج في الأزهر الشريف وتتلمذ على الإمام محمد عبده كان عالماً بالتفسير وله بحث في ترجمة

---

(١) قال ابن فارس: «التهدج: تقطع الصوت» ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: بلا، مكان النشر: بلا، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. ٦/ ٤٤.

القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية وخلاصته أننا نترجم التفسير والمعنى لا ألفاظ القرآن لاستحالة ذلك وله تفسير سورة الحجرات وتفسير لقمان وتفسير الحديد وكتاب الدروس الدينية تولى منصب قاضي القضاة في السودان وتعلم أثناء ذلك اللغة الإنجليزية. وعين شيخاً للأزهر سنة **١٩٢٨** ومكث في المشيخة عاماً ثم أعيد تعيينه سنة **١٩٣٥** واستمر في المشيخة إلى أن توفي في سنة **١٩٤٥** في إسكندرية ودفن في القاهرة.

وكان وفاته رحمه الله في الرابع عشر من رمضان من تلك السنة.

رحمه الله رحمة واسعة عزيز النفس كريمها غيوراً على أمته ودينه.



الإمام محمود شلتوت

(١)

[محمود شلتوت (١٨٩٣-١٩٦٣): عالم أزهري مصري، نال شهادة العالمية من الأزهر عام ١٩١٨، وعمل وكيلاً لكلية الشريعة فيه، أصبح عضواً في جماعة كبار العلماء، ثمَّ شيخاً للأزهر عام ١٩٥٨، كان عضواً في مجمع اللغة العربية، وهو أول حامل للقب الإمام الأكبر، فُصل من الأزهر مدة ثمَّ عاد للعمل فيه، اشتهر ببعض فتاويه كجواز التعبد بمذهب الشيعة الإثني عشرية].

لم يسعدني الطالع أن أكون تلميذاً للشيخ شلتوت. وإن كنت مع ذلك استمتعت بسماع محاضراته.. وتوجيهاته ومناقشاته المتقدمين برسائل الدكتوراة.

كان شيخاً لكلية الشريعة المجاورة بنيانها مبنى كلية اللغة العربية في حي عابدين في القاهرة.

وكان الشيخ رحمه الله قوي الشخصية ظاهر الاعتداد بها تملأه الثقة بنفسه وعلمه وخلقه.. كان المستمع إليه يرى عنده سعة الأفق. واستيعابه موضوعه وتملكه ناصية المنطق فيه.

كنا ونحن طلاب ندرك أن هناك أشياخاً في الأزهر يتميزون بالأسلوب

والعلم وقوة المنطق. مثل الشيخ مصطفى عبد الرازق[١] وعبد المتعال الصعيدي[٢] وعيسى منون[٣].. ومحمود أبي العيون[٤] ومحمد عرفة* ومحمد محمد المدني[٥]. إلى كثير من أعلام الأزهر الشريف ويظل في مقدمتهم الشيخ شلتوت.

كان خطيباً جهوري الصوت.. تلازم صوته بحة تزيده تأثيراً في نفوس سامعيه. وكان بجسمه النحيل الأقرب إلى الطول. كأنما هيأ نفسه ليحمل هموم المسلمين. وكأنما كانت الشعلة الإسلامية التي أوقدها الشيخ جمال الدين الأفغاني[٦] والتي وعتها القلوب الكبيرة والعقول المستنيرة. اتخذت من نفس شيخنا شلتوت منارة عالمية تشع بالإشراق والنور.

---

(١) مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥-١٩٤٧): وزير الأوقاف السابق، درس في الأزهر، ثم في الجامعات الفرنسية، تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، تقلد مشيخة الأزهر، له العديد من المؤلفات الفكرية والفلسفية.

(٢) انظر ترجمة الصعيدي في مقالة عبد المتعال الصعيدي، ص٥٥.

(٣) انظر ترجمة منون في مقالة عيسى منون، ص١٦٨.

(٤) محمود أبو العيون (١٨٨٢-١٩٥١): عالم مصري، تخرج من الأزهر عام ١٩٠٨، شارك في ثورة ١٩١٩ وسجن، عُرف بمعارضته للحكومة المصرية وللإنجليز، عمل مدرساً في الأزهر وشغل منصب سكرتيره العام، له العديد من المؤلفات.

(٥) محمد محمد المدني(١٩٠٧-١٩٦٨): مفكر إسلامي مصري، درس في الأزهر ودرَّس في كلية الشريعة فيه، ساهم في إدخال الدراسات القانونية والفقه الشيعي ضمن مناهج الأزهر، من أوائل العلماء الذين قدموا برامج دينية على التلفاز المصري.

(٦) جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧): مفكر إسلامي، ولد في كابل، تلقى في صباه العلوم الدينية والحديثة، سافر في الكثير من أقطار العالم الإسلامي مثل الهند وإيران والحجاز، استقر في مصر وكان له تأثير كبير على مجموعة من العلماء والمفكرين مثل محمد عبده وسعد زغلول، أصدر في باريس جريدة العروة الوثقى.

وإذا كان جمال الدين رحمه الله يرى أن قوة المسلمين رهن بصفاء عقيدتهم وقوتها وبقاء وحدتهم وتماسكها يتمثل ذلك في بقاء دولة الخلافة قوية قادرة. فإن رفيقه وتلميذه محمد عبده رحمه الله أدرك أنه يجب أن يضاف إلى تلك الأسباب لبقاء قوة المسلمين قوة الأسلوب العربي وصدق انتماء أذهاننا إلى أسلوب القرآن الكريم تفهماً وتأثراً وأسلوب مخاطبةٍ مع الناس.

إن ضعف العربية تأليفاً وخطابة ووعظاً وتفهماً لآثار ما ألَّف الأجداد أفقدنا الثقة بأنفسنا وضيَّق الآفاق أمام المصلحين.

ومن هنا عمد محمد عبده إلى التفسير بنفسه. وإلى شرح التوحيد بنفسه أيضاً. وإلى إيجاد التذوق لأساليب البلاغه العربية فشرح وعلم كتاب نهج البلاغة. مجموعة خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

هذه الروح التي عمل لها وأشاعها بنفسه ومكن لها في نفوس أتباعه الإمام محمد عبده هي نفسها التي اقتفاها الشيخ شلتوت وغيره من أصحاب النفوس الكبيرة والاتجاهات الهادفة للحرية والإحياء.

ومن الواضح أن ضعف أمتنا في السياسة والنفوذ يقترن بضعف أمتنا اللغوية.. ومن هنا جاء حرص الأزهر وقادته في عصره الحديث على البعث اللغوي.. وتمكين البلاغة العربية من النفوس أو تمكين النفوس منها.. فقد رأينا في مطالع هذا القرن وأواسطه خطباء رفيعي المستوى ومتكلمين نابهين. وعلماء أفذاذاً. وهم بلا ريب من غرس الإمام محمد عبده رحمه الله.

(حتى إذا لاح فجر يقظة جديدة منذ بداية قرننا العشرين - والفضل في ذلك للمستعمر الذي دفعت أساليبه في الاستعمار.. ودفع حقده الصليبي إلى مقاومته

ومطاردته.. ابتدأ شعور المسلمين يعود إلى الماضي.. ابتدأ يعود إلى ماضيهم الأول.. وإلى تذكر أحداثه، وأمجاده.. ابتدأ يعود شعورهم إلى مصدر قيامهم كأمة.. هي خير أمة أخرجت للناس.. ابتدأ يعود شعورهم إلى القرآن ويرتبط بتعاليمه.

وليس غير الأزهر من يستطيع أن يقوم بـهذا الدور.. لأن ما عداه من مؤسسات علمية أخرى.. لم تزل تدور في قوة أو ضعف.. في فلك ما للمستعمرين من تفكير ومدارس..

من أجل هذا ألقي على عاتق الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر عبء هذا الدور لأنها الإدارة بين إدارات الأزهر الثلاث التي تكونت في عهد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت والتي نيط بها الاتصال بالمسلمين في سد حاجاتهم من الثقافة الإسلامية.. وفي تقوية الأواصر بين شعوبهم على أساس من هداية القرآن).

من مقدمة كتاب «الإسلام عقيدة وشريعة» للإمام شلتوت بقلم الدكتور محمد البهي[1].

وقد كان الإمام كفوءاً قادراً على سد هذه الثغرة.. في عصرنا الراهن على أساس من البيان القرآني والفهم الإسلامي الرشيد.. فقد اتصل بالعالم الإسلامي عربه وغير عربه إفتاء وتفسيراً وإرشاداً يتوخى بذلك كله جمع كلمة المسلمين غير ناظر إلى خلافات مذهبية أو تمايزات إقليمية.

---

(١) محمد البهي (١٩٠٥-١٩٨٢): مفكر إسلامي إصلاحي ووزير الأوقاف المصري السابق، تخرج من الأزهر ١٩٣١، ونال الدكتوراه في الفلسفة والدراسات الإسلامية من جامعة هامبورغ ١٩٣٦، وكانت أطروحته عن الشيخ محمد عبده، أثرى الفكر الإسلامي بالعديد من الكتب القيمة.

الإمام محمود شلتوت

(٢)

كان الإمام شلتوت يعد نفسه شيخاً للمسلمين كلهم يتحسس أخبارهم. ويفعل ـ جهد طاقته ـ ما يسد حاجاتهم ويكثر من مقاعد البعثات في الأزهر الشريف. وقد سار بذلك على درب أسلافه الصالحين من إرسال دعاة إسلاميين. إلى شتى البلاد الإسلامية.. دعاة مرشدين.. وأئمة مساجد.. وخطباء ومدرسين كان يهتم بالمسلمين في كل أقطارهم.. ويرتبط به المسلمون في شتى أقطارهم.. كأنه المسئول عن شئونهم كلها.

حدثني المرحوم المبرور الشيخ محمد عبده[1] مفتي الأردن سابقاً.. أنه كان في عيادة الشيخ شلتوت أستاذه في بيته. وقد كان الشيخ مفلوجاً في أخريات أيامه. فصادف وجوده وجود الطبيب الذي يعوده ويشرف عليه.

وإذ رأى تلميذه الشيخ محمد عبده رحَّب به. وهش له وقال: حدثني يا شيخ محمد عن فلسطين وعن القدس خاصة.. ولم تكن القدس قد سقطت بعد. إذ الحديث في مبدأ الستينات.

---

(١) انظر ترجمة عبده في مقالة محمد عبده هاشم، ص١٧٢.

فقال الشيخ محمد: المواطنون فقراء ولا سلاح لهم إلا إيمانهم بربهم والعدو يتأهب ويزداد قوة.. في حين أن الأقطار الإسلامية كلها نائمة عن عواقب الأخطار.. والعرب بخاصة تشلهم الفتن.. وتمزقهم التناحرات. وكان الشيخ شلتوت رحمه الله قد حجبوا عنه الأنباء المثيرة وإذ سمع هذه الأنباء استغرق في نشيج متواصل.. ودموعه تتقاطر من لحيته.

وهنا سار إليه الطبيب يفحص نبضه وقلبه.. وأعلمهم أن صحته في خطر.. فعاجله إليه بالمهدئات حتى استغرق في نوم عميق.

وانتقل الضيوف إلى حجرة ثانية وقد عقد الخوف ألسنتهم.. ولم يطمئنوا حتى أفاق الشيخ وأخذ يسأل عن تلميذه الزائر.

واستجاب له تلميذه بروح ضاحكة متفائلة وهو يحدثه عن الأمل والثقة بالله.. وفجأة رن الجرس يعلن مجيء ضيف زائر.. يريد أن يطمئن على صحة شيخ الإسلام.

ودخل الضيف الزائر.. وكان كل من في المنزل يستقبله بحفاوة وموقف غير عادي. وعمد هذا الضيف إلى الشيخ النائم المفلوج.. الذي لا يتحرك فيه إلا يده ولسانه.

وأهوى على يده يقبلها وهو يبكي.. ويحاول الشيخ سحب يده وهو في بكاء ودهشة.. والضيف لا زال متأثراً باكياً.. يدعو الله أن يمن بالشفاء.. ولكن من هو هذا الضيف؟ وقد كشف عن شخصيته أحد مرافقيه.. إنه المرحوم المبرور..

والمجاهد الشهيد.. فخامة رئيس الجمهورية العراقية عبد السلام عارف[١]. أجزل الله له ثواب المؤمنين في رحيب جنانه.

نعم.. آمن الشيخ بالله بإخلاص فأحبه المؤمنون بالله بإخلاص! وأي مؤمن ولا سيما شيخ الأزهر.. يستقر في نفسه معنى الأخوة الإسلامية ويستيقن أن رسول الله ﷺ.. كان يهتم بشئون المسلمين كلهم. ما صغر منها وما كبر.. وعلم أن عمر رضِيَ الله عنه قال: «والله لو أن جدياً مات بطف العراق لخشيت أن يسألني الله عنه»[٢].. أي مؤمن بهذه المثابة لا يهتم بفلسطين وأهل فلسطين.. والقدس المشرفة بالأقصى الشريف؟

كان شيخنا رحمه الله يقول بفتح باب الاجتهاد لـمن تتوفر فيهم شرائط الاجتهاد واستجابة لهذا القول بالاجتهاد اجتهد في أمور لم يقره على اجتهاده فيها زملاؤه العلماء.

ويؤثر عنه أنه تراجع عن فتواه بحل الفوائد البنكية. والمعروف عنه في كتابه (الفتاوى) أنه قال: إن التعامل مع صندوق التوفير لا يدخل تحت الربا.. لأن

---

(١) عبد السلام عارف (١٩٢١-١٩٦٦): أول رئيس للجمهورية العراقية بين أعوام ١٩٦٣-١٩٦٦، التحق بالجيش العراقي عام ١٩٤١، شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني، قاد مع عبد الكريم قاسم ثورة عام ١٩٥٨ ضد الحكم الملكي في العراق، وصل لرئاسة الجمهورية بعد انقلاب نفذه حزب البعث على رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم.

(٢) رواه أبو نعيم في حليته من طريق الأوزاعي وهو يعظ أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور موقوفاً عن عمر بنص: «يا أمير المؤمنين بلغني عن عمر بن الخطاب رضِيَ الله تعالى عنه أنه قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أسأل عنها، فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك؟» أبو نعيم، مصدر سابق، ٦/ ١٣٧.

المودع لم يقرض صندوق التوفير قرضاً.. ولأن صندوق التوفير لم يستدن ديناً: فنحن أمام معاملة جديدة لم تكن أولاً.. ولكنه تطور العصر.

هذا قوله رحمه الله بإيجاز.

ولكن الأمر لا يخرج عن الربا أخذاً من قوله تعالى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٩] وأياً كان الأمر فإن للمجتهد أجراً ولو أخطأ.

ولقد ولد الشيخ في منية بني منصور بالبحيرة في مصر سنة ١٨٩٣.. وتخرج في الأزهر سنة ١٩١٨ وتنقل في مراحل التدريس.. وعمل على إصلاح الأزهر. فعاد عليه عمله بطرده من الأزهر.. ثم أعيد إلى الأزهر وكان فيه من أعضاء كبار العلماء.. كما كان عضواً مرموقاً في مجمع اللغة العربية.. ثم عين شيخاً للأزهر سنة ١٩٥٨. وله ستة وعشرون مؤلفاً.. ثم توفاه الله سنة ١٩٦٣ رحم الله الشيخ وعوض الأمة منه خير العوض.



الدكتور الشيخ مصطفى السباعي

(١)

[مصطفى السباعي (١٩١٥-١٩٦٤): مفكر إسلامي سوري، ولد في حمص، ذهب إلى الأزهر عام ١٩٣٣، قاوم الاحتلال الفرنسي في سوريا، وشارك في حرب العام ١٩٤٨ في فلسطين ورابط في القدس، أسس فرع جماعة الإخوان المسلمين في سوريا، عمل في الصحافة، وكان أول عميد لكلية الشريعة في جامعة دمشق، ونائباً في البرلمان السوري].

بدأته بالكلام مرحباً فقلت: أهلاً ومرحباً بالشيخ مصطفى.

فانتبه محدقا نظره وقال: مرحباً بالأخ الكريم.

قلت: اختلاف النهار والليل ينسي.

قال: كأنني أعرفك..

قلت: كأنك..! ولكنني أعرفك يا خطيب الأزهر المشهور ثم قدمت له نفسي.

وهنا قال مبتسماً متهللاً: نعم عرفتك عرفتك.. أنت الشيخ فتحي. وكان يجلس بجانبه عن يمينه المرحوم سماحة الشيخ عبد الله غوشة[1]. وكان بجانبي

(١) عبد الله غوشة (١٩٠٥-١٩٧٧): عالم أزهري فلسطيني، ولد في القدس، تخرج من الأزهر عام =

عن يساري المرحوم الدكتور يعقوب نزهة* رئيس الأطباء.

وكان الاحتفال في قاعة المدرسة العمرية.. تحت إشراف المؤتمر الإسلامي المحتفل بذكرى الإسراء والمعراج سنة **١٩٥٣** بجوار المسجد الأقصى الشريف.

وابتدأ الاحتفال بتلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم.. ثم قُدِّم أحد المشتغلين بالدعوة وهو شيخ شاب من حلب. وتبعه المرحوم الشهيد نواب صفوي[1] زعيم فدائيان الإسلام وكان في حماسته لا يستقر في موقف واحد.. بل يكاد يشب عن المنصة. وكنت أنظر إلى الشيخ مصطفى يدوِّن ويقيِّد ما يعنُّ له من ملاحظات أو خواطر. ثم قدمني المشرف على الاحتفال لألقي قصيدة في المناسبة وابتدأتها:

لم أسريت يا إلهي بأحمد ... شطر هذا الحمى؟ لكي يستعبد؟

وكان منها:

يا ظلام الطغيان.. زل وتبدد ... هذه شمسنا.. ضياء مجدد

هذه شمسنا.. شباب أصيل ... ليس يرضى هوان عيش منكد

عزمات الكفاح فيه اندفاع ... عربي.. عن ثأره ما تردد

ليس يرضى الأبي عيش هوان ... في حماه.. يا قدس.. أو يستشهد

= ١٩٢٤، حصل على شهادة الدكتوراة في الشريعة عام ١٩٢٧، عين رئيساً للكتاب في محكمة الخليل الشرعية، ثم قاضياً شرعياً عام ١٩٣٨ ثم محكمة الاستئناف. عين قاضياً للقضاة عام ١٩٥٠، ثم وزيرا للعدل عام ١٩٥١، له بعض الكتابات.

(١) نواب صفوي (١٩٢٤-١٩٥٦): رجل دين شيعي، ولد في خان آباد إحدى ضواحي طهران، درس في قم والنجف، زار القاهرة والقدس، وقد لقي ترحيباً من الإخوان المسلمين، دعا إلى نبذ الطائفية بين المسلمين، ومحاربة الاستعمار، أعدم على خلفية محاولة اغتيال رئيس وزراء إيران السابق علاء حسين.

وأتممت إلقاءها ونزلت عن المنصة فإذا بالشيخين غوشه والسباعي قد تأثرا بالقصيدة فأخذا يطربانها.. وجاء دور الشيخ السباعي ليتحدث إلى الحاضرين وبدأ هادئاً ساكناً.. ثم أخذ يعلو رويداً رويداً ثم اندفع بحراً لجباً[١] متلاطم الأمواج.. واستحوذ على قلوب الجمهور وعقولهم.

وقلت لشيخنا أبي عاصم[٢] رحمه الله: هذا هو العهد في أبي حسني[٣] مذ كان في الأزهر الشريف كان بحماسته يستولي على النفوس.

وكان من دواعي سعادتي أنا.. أنه كلما انتهى من مقطع من خطابته يقول: إذا شئنا أن نكون كما قال الأخ الشيخ في قصيدته.. ويعيد بعض أبياتها بحماسة لقد ترك أبو حسني الناس بركاناً عارماً. حماسة وانفعالاً متأججاً.

وبعد إنهاء ما منّ الله به عليه. جاء ليجلس مكانه فاستقبله الحاضرون في الصفوف الأمامية بالتهنئة والدعاء والترحاب والإعجاب.

وعادت بي الذاكرة إلى أيام طلب العلم بالأزهر.. وقد كان متعارفاً بين أهله وغيرهم. أن أخطب خطباء الأزهر الشيخان أحمد حسن الباقوري[٤] ومصطفى حسني السباعي رحمهما الله.

---

(١) قال في لسان العرب: «اللَّجَبُ: الصوت والصياح والجلبة»، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ١/ ٧٣٥.

(٢) الشيخ عبد الله غوشة.

(٣) الشيخ مصطفى السباعي.

(٤) أحمد حسن الباقوري (١٩٠٧-١٩٨٥): وزير الأوقاف المصري السابق، درس في الأزهر، شغل منصب رئيس جامعة الأزهر، وعرف عنه جهده في التقريب بين المذاهب الإسلامية، له العديد من المؤلفات في الفكر الإسلامي.

كان الشيخ لا يزال متعباً منفعلاً.

وقلت له: لو كانت خطابتك سلاحاً.. لكانت سلاحاً نووياً.

وكان الشيخ خجولاً فقال في ابتسامة وحياء: أستغفر الله. هذا من لطفك يا أخي الشيخ.

وسألته عن أخيه الشيخ نصوح السباعي*.

فقال في شبه استغراب: أتعرفه؟

قلت: سبحان الله! يبدو أن شيخنا أبا حسني ينسى بسرعة. ألم نذكر قبل حين أننا متعارفون في الأزهر؟ والشيخ نصوح كان يساكننا في رواق الشوام.. ثم قلت مداعباً وهل ينسى الأزهريون أطول طالب في الرواق يحتاج جلبابه ضعف ما يحتاج جلباب أحدنا من القماش؟

وضحك الشيخ وقال: ينزع أخي في الطول إلى الجد فلان.

وانتقلنا إلى الحديث عن الأوضاع السياسية فقال الشيخ: هؤلاء الإخوة المشاركون في الاحتفال يمثلون معظم العالمين العربي والإسلامي.. وليست الحماسة هي التي تنقصنا.. ولكن تنقصنا الوحدة الحقيقية والحرية.

فقال أحدنا: والسلاح. فأجابه الشيخ مصطفى: إذا اتحدنا حقاً.. وتحررنا حقاً.. فالسلاح لا يمثل مشكلة. فالسلاح وتصنيعه سهلان مع الإرادة وصلابة الوحدة.. وقال أبو عاصم في شيء من التحفظ: وهل مصادر الثروة عند المسلمين هم أحرار في التصرف بها.. ونظرنا إلى الشيخ وكان الصمت يعني إجابة سلبية.. وكانت عربدة الاستعمار ولا سيما في المغرب العربي على أشدها.. وصمتنا في قهر وألم.

الدكتور الشيخ مصطفى السباعي

(٢)

في سنة ١٩٤١م ثار المناضل الأصيل رشيد عالي الكيلاني مع أربعة من ضباط الجيش العراقي الأحرار على الوجود الاستعماري البريطاني في أرض العراق الأبي وكانت بريطانيا في حربها مع دول المحور.. الحرب العالمية الثانية.

وتحمس لهذه الثورة العرب والمسلمون في كل مكان.

وكان في الأزهر بضعة من الطلبة في رواق الشوام دفعتهم الحماسة للقيام بعمل إعلامي. مع هذه الثورة العراقية الجديدة على الوجود الأجنبي في الأرض العربية العراقية. وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى السباعي والشيخ إبراهيم القطان[1] والشيخ مشهور الضامن[2] ومعهم الشيخان عبد الحي الدويك* ومحمد حمدان الفارس*.. واتفقوا على عمل منشور يتضمن توعية للشعب المصري. وبيان حقيقة الثورة العراقية التي لم تحسن الحديث عنها الصحافة المصرية حينئذ.. مع أن كثيراً من الناس كانوا على وعي كامل بشأنها وأهدافها.

---

(١) انظر ترجمة القطان في مقالة إبراهيم القطان، ص٢١.

(٢) مشهور الضامن (١٩١٨-١٩٩٨): أزهري فلسطيني، ولد في نابلس، درس في الأزهر، انضم لجماعة الإخوان المسلمين، وكان رئيسا لشعبتها في نابلس، انتخب في البرلمان الأردني عام ١٩٦٤ وهو عضو أول مجلس وطني فلسطيني.

واختار هؤلاء المشايخ الشباب يوم الجمعة وبعد أداء شعائر الصلاة يقف أحدهم على منبر الأزهر ويقرأ المنشور بلهجة خطابية.. في حين يوزع المنشور على الخارجين من أداء الصلاة.

وتمت العملية بنجاح.. ولكن عرف القائمون بها واعتقلوا.. وأودعوا حجرة في حكمدارية القاهرة.. وقد غضبت السلطات البريطانية غضباً شديداً. ومما خفف العبء في اعتقالهم أن الضابط المشرف علهيم كان زميلاً للمرحوم شاعر الشعب حافظ إبراهيم[1]. فكان يشاركهم مشاعر الحرية والغضب على الدخيل.. وفي الزيارات المتكررة لهم كنا نقول: صبراً يا إخواننا إن فرج الله قريب. ويجيب الشيخ مصطفى وبعض رفاقه: إن فرج الله قريب إن شاء الله.. كانت معالم الإيمان واضحة في كلمات هؤلاء الإخوة.

ومع الأسف أخمدت ثورة رشيد عالي بالاستعانة بجيش دولة مجاورة.. ثم أبعد هؤلاء الإخوة إلى بلادهم.

ونصِّب الشيخ مصطفى مرشداً عاماً للإخوان المسلمين في سوريا.. وكان بأسلوبه القوي المؤثر في الخطابة والكتابة يستحوذ على قلوب الجماهير المتطلعة إلى فجر حريتها وبزوغ شمس أمانيها في الحياة والعيش الكريم.

وكان بأسلوبه القوي يدعو للجهاد في سبيل الله تحريراً للبلاد وصيانة للمقدسات ودفعاً للحرية في شتى الميادين.

---

(١) محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس، (١٨٧١-١٩٣٢): شاعر مصري، لقب بشاعر النيل، له عدد من الدواوين منها ديوان حافظ مطبوع في مجلدين، ترجمت بعض أعماله إلى لغات أخرى، عمل محرراً في جريدة الأهرام.

واندفع الأحرار المتطوعون للعمل.. واندفعت أيضاً المؤامرات بزبانيتها وأذنابها.. تعرقل و تكيد وتعطل وتسد شتى المنافذ.

وفي سنة ١٩٤٨ كما حدثني الأخ الشهيد المبرور الشيخ حافظ صندوقة[١] رحمه الله قال: كنت في الخندق المعد في باب الزاهرة أدافع وأترصد. وكان في الخندق مقاتل آخر بكامل سلاكه.. وكنت لقربي من المنزل الذي أقيم فيه. أتسلل فأتناول ما تيسر من طعام وشراب.. ولاحظت أن رفيقي في الخندق لا يبرحه. فتقدمت منه قليلاً لأدعوه إلى منزلي يصيب معي ما تيسر من طعام. ووقفت أحدق بعيني فيه.. وكذلك هو.. أخذ ينظر إلي بدهشة وارتفع صوتي لأقول: شيخ مصطفى.. كما اندفع هو في نفس اللحظة ليقول: شيخ حافظ.. وتعانقنا في الخندق.. وبكينا معاً في الخندق. وقلت له: منزلنا قريب فتفضل معي لتناول ما تيسر.. فقال: معي طعامي.. وتأملت فإذا بطعامه كِسْر من الخبز اليابس ومطرة ماء.. وازداد تأثري وألححت عليه في دعوتي.. وذهبنا معاً لنصيب ما تيسر.

نعم.. يا صاحبيَّ مصطفى وحافظ. رحمكما الله وفسح لكما في جنته مع الصديقين والشهداء.. واستبشرا بالذين لم يلحقوا بكما من بعدكما خيراً.

لقد كان الشيخ مصطفى على رأس كتيبة من الإخوان من سوريا.

ولكنها الحرب انتهت لتلقي علينا أوزارها وأثقال عارها.. وذهب الشيخ مصطفى إلى دمشق وتأهب بأطروحته (التشريع الإسلامي وتاريخه) لينال بها شهادة الدكتوراة من الأزهر الشريف. واستقر في دمشق أستاذاً في كلية الحقوق ١٩٥٠ ومراقباً عاماً للإخوان المسلمين. وعميداً لكلية الشريعة ١٩٥٥.. وقام

---

(١) انظر صندوقة في مقالة حافظ صندوقة، ص١٣٥.

برحلات متعددة في سبيل الدعوة. وأنشأ مجلة حضارة الإسلام وقد استمرت في الصدور بعد وفاته رحمه الله. وأصيب بشلل نصفي **١٩٥٧** ونشر من تواليفه واحداً وعشرين كتاباً ورسالة في أغراض الشريعة والدعوة.. وظل يكدح فكره ويعمل ذهنه جهاداً في سبيل الله وإعلاماً وتبصرة لدين الله إلى أن توفي في دمشق **١٩٦٧** . ومن المعلوم أنه من مواليد حمص سنة **١٩١٥** رحمه الله رحمة واسعة بما بذل وقدم لدينه وأمته.



المجموعة الثانية
الأزهريّون الفلسطينيّون

الشيخ أحمد القيم النابلسي

عالم القراءات الكبير

[أحمد القيم النابلسي (١٨٧٠-١٩٣٩): عالم أزهري، ولد في نابلس، درس في الأزهر، أقام في مصر للتدريس في الأزهر، وبقي في مصر ومات فيها].

كانت لحيته قد غلب الشيب على أكثرها. محدودب الظهر قليلاً.. يلبس عمامة مصرية.. أما لهجته فهي مزيج من المصرية والفلسطينية.. كان إذا زار رواق الشوام في الأزهر الشريف أشار بعضهم بيده إليه قائلاً: أستاذ التجويد في الأزهر ومعلم القراءات في الأزهر لمن يتخصصون في علم القراءات.

كان إذا سار توكأ على عصاه.. وقد كانت عصاه تلازمه. وتساعده في مسيره.. فهو كفيف فقد بصره.. مذ كان صغيراً فقد أصيب بالجدري فأطفأ نور عينيه كما كان يروي ذلك بلسانه.

رأيته مرة وحوله علماء مستعربون من أوروبا يسائلونه عن كلمات معينة كيف كان يلفظها أئمة القراء السابقين.. كانوا يسائلونه بأدب وخشوع وكأنه واحد من هؤلاء الأئمة الكبار.. كان يتعهده بالزيارة كبار القراء المعروفين وغير المعروفين.. كالشيخ شعيشع[1] ....

(١) العينين شعيشع (١٩٢٢-٢٠١١): مقرئ مصري مشهور، حفظ القرآن، وذاع صيته صبياً من خلال حفل أقيم بمدينة المنصورة سنة ١٩٣٦.

والشعشاعي(١) ومحمود إسماعيل* ومحمد رفعت(٢).

حينما جاء في سنة ١٩٩٠ الشيخ محمد الطوخي(٣) ليقرأ في شهر رمضان في المسجد الأقصى المبارك.. وبعد انتهاء صلاة الجمعة ذهب المصلون ليسلموا على الشيخ محمد الطوخي.. وسلمت عليه وقلت له يجمعنا وإياك أستاذ واحد المرحوم الشيخ أحمد القيم النابلسي.. فأطلق الشيخ الطوخي صوتاً من أعماق نفسه قائلاً: الله يرحمه وأخذ يكررها بترحم وحنو بالغين.

كان الشيخ محسناً في علم القراءات.. عارفاً جداً بمخارج الحروف وأحكامها.. ومن أجل هذا عُيِّن مدرساً لهذا الفن في الأزهر.. مع أنه غير مصري. وهذا كما حصل للمرحوم العلامة الشيخ عيسى منون.. كان خطاطاً ممتازاً، فعيِّن في الأزهر معلم خطوط مع أنه أيضاً فلسطيني!

كان الشيخ أحمد القيم يدرس الطلاب المتقدمين لنيل شهادة أزهرية أهلية كانت أو عالمية(٤).. كان يدرسهم شيئاً يسمى (التعيين).. والتعيين باب معين من

---

(١) الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي (١٨٩٠-١٩٦٢): مقرئ مصري مشهور، ثاني قارئ يقرأ بالإذاعة المصرية بعد افتتاحها.

(٢) انظر ترجمة رفعت في مقالة محمد رفعت، ص٧٦.

(٣) محمد الطوخي (١٩٢٢-٢٠٠٩): مقرئ مصري مشهور، تعلم في الأزهر الشريف وحصل على إجازة القرآن الكريم، جمع بين الابتهالات والإنشاد وقراءة القرآن والمأذونية الشرعية، في عام ١٩٤٦ أطلقت عليه الإذاعة لقب «المنشد» بعد أن سجل لها بعض التواشيح.

(٤) كانت الشهادة الأهلية تعطى للطالب المصري فقط، على أن يدرس منهاجاً معيناً في المعارف الدينية على اختلافها، والعربية نحواً وصرفاً وبلاغة، وتاريخاً وفلسفة، ويمضي في الدراسة اثنتي عشرة سنة، ويكون له الحق في العمل في الأزهر. أما العالمية أو عالمية الغرباء فتعطى للطالب غير =

أبواب علم ما يعين للطالب المتقدم للامتحان ليمتحن فيه أمام لجنة من العلماء الكبار امتحاناً شفهياً بالغ الدقة.

كنا نجتمع ثمانية أو عشرة إلى الشيخ ويأخذ هو في الشرح شرحاً مبسطاً مستوعباً.. بحيث لا يترك شاردة ولا واردة.

وكان للشيخ باع طويلة في هذا اللون من الدراسة المتأنية.. وكان معروفاً باليمن والبركة.. وكان يتهافت عليه الطلاب ليأخذوا حظهم من الدراسة لديه.

كنت أحد تلاميذه في هذه الدراسة إذ تقدمت لنيل الشهادة العالمية. كان ذلك سنة ١٩٣٩ .. قال لي مرة: أنت من سلواد.. فأجبته: نعم.

فقال: نمت ليلة في سلواد.. حينما سافرت مع القافلة الذاهبة إلى مصر.. فقد وصلنا سلواد واسترحنا وأرحنا الدواب.. وذهبت أنا وبعض جماعتي إلى دار غربي البلدة.. درجها عال.. وتحت المصطبة دواب في مكان أرضي يسمى القبو.

فأجبته: إن صدق ظني.. فهذه دار جدي أبي والدي محمد عواد* فقد كانت ديواناً للعائلة ومضافة للضيف.. قال الشيخ: ربما. وتابع قائلاً: ولكن بلدكم للوصول إليها من طريق نابلس على الذاهب إليها أن يصعد عقبة كأداء مهلكة.. فقد كانت البلدة على قمة جبل.

قلت: نعم. ونحن نسميها طريق العقبة.. ثم قلت: هل يذكر سيدنا الشيخ في أي سنة كان ذلك؟

= المصري ومنهاجها أقل كثيراً من منهاج العالمية المصرية، ولا يشترط فيها مدة معينة، فقد ينالها بعضهم في سنة وقد ينالها بعض آخر في أكثر من سنة، ولا يسوغ له أن يكون موظفاً في الأزهر أو غيره في مصر.

قال: أحسبه كان سنة ١٨٨٥ .. وكنت إذ ذاك ابن خمس عشرة سنة.

وقلت للشيخ: ألا تحن إلى زيارة مدينة جبل النار مدينة نابلس مسقط الرأس العزيز؟

قال: بلى.. ولكني أحن إلى العيش بين القرويين الطيبين الذين يؤثرون الدين على ما سواه. وصمت قليلاً ليقول: يا فتح الله لا أزال أذكر أريحية أهل سلواد وطيبتهم وإكرامهم لي.. حين علموا أني طالب علم.. وأني ذاهب إلى الأزهر لأتعلم فيه.

قلت: كيف ستكون بينهم الآن وأنت أعلم من في الأرض بأحكام القراءة لكتاب الله العظيم؟

قال بسرعة وتواضع: أستغفر الله العظيم يا ابني.. وفوق كل ذي علم عليم.

قلت: يا سيدي إن فلسطين كلها تشرف بك إذ تكون علم الدين فيها.. ولا سيما موطن تختار أن تعيش فيه.

قال: بقي لي ثلاث سنوات على الإحالة على التقاعد.. وبعدها أعود معك إلى سلواد وأشتري كرماً، أبني لي فيه بيتاً على أن يكون قريباً من المسجد وأقضي بقية حياتي هناك.. بين تعبد وتعليم وأنا كما ترى أحب أن أظل معلماً.

كان شيخنا رحمه الله علامة جهبذاً[1] في كل فن.. ولا سيما علم الأصول كان يضيف إلى ذلك تواضعاً جماً ولطفاً كبيراً ولا سيما مع تلاميذه وخرجت

---

(١) قال في تاج العروس عن الجِهْبِذ: «الخبير بغوامض الأمور، البارع العارف بطرق النقد»، مرتضى الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ط: بلا، مكان وسنة النشر: بلا، ٩/ ٣٩٢.

نتيجة امتحان الشهادة العالمية للغرباء.. ونجح معظم تلاميذ شيخنا الكبير رحمه الله.. وأجمعنا أمرنا على زيارته في بيته مع تقديم هدية رمزيه له.. إعراباً عن امتناننا وتقديرنا.. وإذ دخلنا البيت وجدناه مريضاً.. فشعرنا بألم مفاجئ.. واستأذناه بإحضار طبيب.. فقال: عادني الليلة طبيب وهذا الدواء.

وسافرت إلى سلواد مزدهياً[1] بنشوة النجاح وقضيت فترة بين الأهل أحسست بنعمة لقاء الوالدين.. ودفء حنانهما.

وحدثت أقاربي عن نية الشيخ أحمد القيم النابلسي في الإقامة في سلواد. وإذ علموا بمكانته قالوا: هذا فخر لنا.. وكلنا في خدمته.

ورجعت إلى القاهرة لإكمال تحصيلي العلمي.. وإذ وصلت إلى رواق الشوام.. سألت عن صحة الشيخ.. فقيل لي ازدادت به العلة.. وذهبنا لزيارته فوجدناه قد استبد به المرض.. وما إن سلمت عليه حتى قال: هذا فتح الله؟ قلت: نعم يا سيدي الشيخ.. وسألني عن سلواد وأهلها.. قلت يسلمون عليك.. وهم يتمنون أن تشرفهم بالمقام بينهم.. فصمت محزوناً ولم يجب.. فأدركت تغير نفسه.

وفي ضحى اليوم التالي كنا في موكب حاشد يتقدمه شيخنا الكبير فضيلة الشيخ عيسى منون ونحن نحمل جثمان الشيخ أحمد القيم لنوريه مقره الأخير وكان ذلك سنة **١٩٣٩**م رحمه الله وفسح له في جنته.



(١) من الفعل زها، والزهو: الفخر، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ١٤/ ٣٦٣.

الشيخ أمين العوري

[أمين العوري (١٨٧٠-١٩٣٦): أزهري فلسطيني، ولد في قرية بيت عور، تلقى تعليمه في الأزهر، تولى منصب قيِّم الصخرة المشرفة وأمين عام سر الإفتاء في المجلس الإسلامي الأعلى[1]، ومدرس التفسير في مسجد الصخرة، شارك في ثورة عام ١٩٣٦، واستشهد في مهمة جهادية في القدس].

وفي ليلة من الليالي في مدينة القدس الخالدة. وفي حارة السعدية كان هذا اللقاء. كان الشيخ يجلس على كرسي في جانب من حجرة تعوَّد أن يستقبل بها الناس وكان ضيوفه.. وأكثرهم رجال تفقهوا في الدين.. ممن درسوا في الأزهر الشريف يجلسون في جانب مقابل له. شأن المدرس وتلاميذه.. ولعله تعود هذا المجلس من جلسته التي كان يشرح فيها دروساً للعربية لمن كان يأتي عنده من

---

(١) تأسس المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٩٢٢، وكان مسؤولاً عن ثمانية عشر محكمة شرعية، وست دوائر للأوقاف، وعشرة مدارس وكلية دينية، وكذلك عن عدة مؤسسات أهمها دار الأيتام الإسلامية، وعن أكثر من ١٢٥٠ موظفا، ناهيك عن عدة مئات من مأذوني عقود الزواج تحت إشراف المحاكم الشرعية، وقد وصلت ميزانيته في العام ١٩٤٧ حوالي ٤٨٢٩٤ جنيهاً، وقد تحول المجلس ليكون واجهة للنفوذ السياسي والاجتماعي للحسينيين. للمزيد من المعلومات حول المجلس الإسلامي الأعلى وصلاحياته انظر: الحوت، بيان نويهض، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨م**، كفر قرع، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٦٨، ص٢٠٥-٢١٠.

طلاب العلم. ولا سيما الموظفين في التربية والمحاكم الشرعية.

كان الشيخ قد تقدمت به السن. وقد شاع الشيب في لحيته التي تملأ وجهه. كان يقابل رواد منزله هاشاً باشاً بحفاوة يشيع دفؤها في المكان. فينشطوه في المساءلة.. وينشط هو في الأجوبة.

طرح أحدهم هذا السؤال: كيف نعرب ولات حين مناص؟

وقال الشيخ: أفيكم من يدلي بدلوه..؟ وتهيب الحاضرون.. وإن فيهم لعلماء وقورين يعرفون بالعلم والمعرفة.. وقال أحدهم نريد أن يعربها هذا الشيخ وأشار إلي.. وقلت في نفسي: سؤال اختبار.. شنشنة أعرفها من أخزم[1] وتلفت الشيخ إليَّ.. وقال: ما تعرفنا بعد على ضيفنا.. وليس من اللياقة في شيء أن نبادئه بالمساءلة.. فقلت: لا بأس في ذلك إن سمحتم لي بالإجابة. وأعربت الجملة وذكرت اشتراط الزمان في اسمها المحذوف وخبرها. وسر الشيخ ولم يعقب على ما قلت.. ثم سأل: شيخنا الكريم من أي بلد؟ فقدمت نفسي ذاكراً بلدي وقلت: ولا أزال طالباً.. وكان ذلك سنة **١٩٤٢**. فقال: أهلاً وسهلاً بالشيخ.. ولكنني قرأت لشيخ من سلواد شعراً أعجبني وأعجب المجلس حينذاك.. وسكت ولم أجب.. ولم أبد تساؤلاً.

فقال أحد زملائي في الأزهر: هو هو الشاعر.

---

(١) في هذا المثل أقوال منها أن أخزم هو: «أخزم بن أبي أخزم جد حاتم وكان جواداً، فلما نشأ حاتم وعرف جوده قيل ذلك، أي: هو قطرة من نطفة أخزم، وحاتم بن عبد الله بن سعد بن حشرج بن امرىء القيس ابن عدي بن أخزم الجواد بن أبي أخزم بن جرول» الزمخشري: أبو القاسم محمود ابن عمر، **المستقصى في أمثال العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧، ٢/ ١٣٥.

فقال الشيخ الكبير اسم ذلك الشاعر عبد الفتاح. فصحح له الزميل اسم من كتب شعراً في جريدة الدفاع حينذاك وقال اسمه فتح الله.

فقال الشيخ: إن كان هو فليسمعنا من شعره.

فاعتذرت بأني لا أحفظ ما أنظم. وصمتُّ فترة وقلت:

لئـن سـموك بينهمـو أميناً فأنـت عـلى فتاواهـم أمين

حبـاك الله فضـلاً واقتداراً وزانـك فيهمو العلم المبين

لئن كنت الوليد ببيت عور فـكل مواطني بك تسـتبين

لئـن كنـت الخبـير بكل فن فقـد أعلاك إحسـان ودين

ونهض الشيخ إلى ليصافحني. وقال أحسنت أحسنت.. هذا شعر رصين وسمعت أيضاً من الأخوة الحاضرين كلمات الاستحسان.

واستعاد الشيخ هذه الأبيات ليكتبها في دفتر خاص ثم قال الشيخ: أحسنت في هذه المناسبة. ولكن نريد منك أن تسمع الحاضرين إن أسعفتك الذاكرة بشيء ممن قلته في حواء.

قلت: أتراني قلت شيئاً في حواء؟

فقال: نعم. وتعجبت كأن الشيخ على يقين من قولي شعراً في الغزل.. وقلت: ما قلت شعراً في الغزل.

فقال الشيخ: أمعقول.. شباب وشعر.. ثم لا يكون غزلاً!؟

قلت: أقول صادقاً.. ما قلت شيئاً في الغزل.

قال: أنا لا أصدق أن شباباً وشعراً يجتمعان ثم لا يكون غزل.

قلت: يا سيدي أنا صادق.. ما توجهت نفسي لما تتوجه له نفوس الشباب من لهو وعبث.

وقال يزكي ما أقول المرحوم الصديق الشيخ حافظ صندوقة[1]: أشهد أن الشيخ جاد في حياته.. ولا يعهده أحد من إخوانه قال في غير الوطنيات والحكمة شيئاً.

فقال الشيخ وفي نفسه وعباراته شيء من الاختلاف والتغير: لئن كنت كذلك حقاً فأنت شيخ في سن الشباب.. وأراك اكتهلت صبياً.

قلت: عفواً يا سيدي الشيخ أليس في الإنسان مشاعر مما يحسن أن يكون شعراً يحسن الاستماع إليه إلا فيما دار حول الغزل؟

قال: لا. ولكن الحياة بطبيعتها فيها ألوان وجوانب.. ويحسن بالشاعر أن يعطي كل جانب منها ما يستحقه.. ولو كذباً.. وكذب الشعر مستساغ..

وسمعت ما أثار دهشتي.. ولو كذباً وكذب الشعر.. فقلت: ماذا تعني العبارة ولو كذباً؟ فقال الشيخ: مثل الشعر.. يقال في شتى جوانب الحياة المعاشة.. ولو تخيل الشاعر شيئاً لم يعشه فقال فيه شعرا كأنه تعايش معه. فلا بأس. ألم تسمع أنهم قالوا: ولا بأس فيما قالوا.. أعذب الشعر أكذبه[2].. قلت مجيباً: النقد الحديث يرى أن الشعر الحق والجدير بالحياة. ما كان صادقاً في تصويره الحياة. قال: إذن يكون الشعر حقائق وأي جمال شعري في الحقائق؟ قلت: الحقيقة الحية النابضة أجمل وأفضل من الخيال الزائف المكذوب.

---

(١) انظر ترجمة صندوقة في مقالة حافظ صندوقة، ص١٣٦.

(٢) هذه قضية من قضايا النقد الأدبي، وقد دار حولها نقاش أدبي قديمًا حديثاً.

الشيخ تقي الدين النبهاني

(١)

[تقي الدين النبهاني (١٩٠٩-١٩٧٧): مؤسس حزب التحرير، ولد في إجزم، درس في الأزهر، تولى عدة مناصب إدارية في المحاكم الشرعية في عدة مدن فلسطينية، انضم لجمعية الاعتصام في حيفا، عمل قاضياً شرعياً في القدس بعد النكبة، ومعلماً للتربية الإسلامية في الكلية الإسلامية في عمان، انتقل للعيش في أكثر من بلد عربي، دعا لإقامة الخلافة الإسلامية، له عدة مؤلفات، توفي في بيروت].

في سنة ١٩٣٦ كنت أتردد على منزل المرحوم الشيخ يوسف السلوادي[1] لأتلقى عليه دروساً في شرح الأجرومية وفي شرح ابن مالك.

ولا أزعم أني أتقنت ما كنت أسمعه من الشيخ إتقاناً.. ولكنني مع ذلك لا أخلو من فائدة تقبلتها نفسي.. واستوعبها عقلي حينذاك.

كان في سلواد قريب لي في مثل سني.. وكان قد وصل الصف الخامس

---

(١) يوسف السلوادي (١٩٠٥-١٩٧٦): أزهري فلسطيني، ولد في سلواد، توجه إلى الأزهر في العام ١٩٢٣، وحصل منه على شهادة الأهلية الخاصة بالغرباء في العام ١٩٢٧، عمل بعد عودته في الإمامة والخطابة والوعظ، كما اشتغل مأذوناً شرعياً في منطقة قرى شرق رام الله، اعتقل في العام ١٩٣٦ على خلفية مشاركته في الثورة.

الابتدائي.. وكان يعرف شيئاً من القواعد.. وكنا نتلاقى لنتحدث معاً في مادة النحو بالمقدار الذي يحسنه كلانا.. وسألت رفيقي: من علمك النحو؟ فقال: أستاذ العربية في مدرسة حيفا.. الشيخ تقي الدين النبهاني.

وأكبرت ذلك الشيخ وأخذت أرسم له صورة في خيالي فأتصوره نسخة أخرى من الشيخ يوسف السلوادي.

وتمر السنون وأتخرج في كلية اللغة العربية.. ويكون تعييني معلماً للعربية في مدرسة الرملة البيضاء وذلك بتاريخ ١٠/ ٥/ ١٩٤٥.. وكان في المدينة رجال قد تميزوا بالعلم والمعرفة وصادق النظر.. كان منهم الشيخ تقي الدين النبهاني والشيخ سعيد أبو شعبان* والشيخ علي صبري[١] ومدير المدرسة الفاضل عبد اللطيف عابدين[٢] يعمل على الاجتماع بهؤلاء الفضلاء وقد يضاف إليهم الشيخ داود حمدان* والسيد نصوح الطاهر[٣].. وكان بينهم أحاديث.. وقد يشتد النقاش والجدل بين هؤلاء العلماء فيبدو حاداً ثائراً.. وإن كان في عاقبته ينتهي بالمودة والرفق وتبادل الاحترام.. إن اختلاف الرأي بينهم لا يفسد للود قضية.

كان الشيخ تقي الدين يطرح فكرته ويتحمس لها ويدافع عنها بكل ما أوتي من قوة منطق ومضاء لسن.

---

(١) انظر ترجمة صبري في مقالة علي صبري ص١٦٢.

(٢) انظر ترجمة عابدين في مقالة عبد اللطيف عابدين ص٢٦١.

(٣) نصوح الطاهر (١٩٠٦-١٩٨٢): ولد في يافا، أنهى دراسته الجامعية في القاهرة ثم في فرنسا، عمل أستاذاً للغة الإنجليزية في المدرسة الصلاحية في نابلس ثمَّ مفتشاً للبستنة، عمل في وزارة الزراعة الأردنية ثم أصبح وزيراً للزراعة، كما عمل في السلك الدبلوماسي الأردني، له العديد من المؤلفات والقصائد الشعرية المنشورة وغير المنشورة.

قال رحمه الله مرة في بعض المجالس: لا يصلح الناس فوضى.

وصمت الجميع مؤمنين مترقبين.

وأتم الشيخ حديثه قائلاً: ولا بد من رباط بينهم يجمعهم.. ويشدهم إليه.

فقال أحدنا: وهل مثل الأوطان رباط؟ وأردف قائلاً:

وحبب أوطان الرجال إليهمو مآب قضاها الشباب هنالكا[١]

واندفعت في حماسة لأقول:

لو مثلوا لي موطني وثناً لهممت أعبد ذلك الوثنا[٢]

فقال الشيخ أبو إبراهيم: ومتى كانت الوطنية رباطاً يفرض قوته ويذعن له كل المواطنين.

فقلت: أينكر أحد أن الوطنية رباط.. ورباط قوي؟

وقال الشيخ: لا لم أنكر أنها رباط.. ولكنها رباط قد تجد عليه خارجين.. وتابع حديثه ليقول: الوطن العربي واحد.. ولكن الخارجين على وحدته كثيرون.. انظروا في تاريخ الجزيرة العربية بشمالها وجنوبها كانا في احتراب دائم! وانظروا إلى الغساسنة والمناذرة[٣]. وهما دوحة واحدة. وأمة واحدة. فقد كان ولاء المناذرة

---

(١) قاله ابن الرومي في قصيدة يعبر فيها عن حبه لوطنه.

(٢) قاله خير الدين الزركلي في قصيدته نجوى.

(٣) أسس الغساسنة العرب مملكة في الشام موالية للروم البيزنطيين، في حين أسس المناذرة العرب مملكة في العراق موالية للفرس. وقد بقوا يحكمون تلك البلاد حتى فتحها الإسلام في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

للعجم.. وولاء الغساسنة للروم.. وقد يحترب أبناء العمومة فيما بينهم احتراباً دموياً عنيفاً.. متابعة لمن لهم عليهم ولاء ومتابعة! فقال أحدنا معقباً: بل انظروا إلى بلد واحد مثل يثرب في جاهليتها فقد كان أوسها وخزرجها في حروب متواصلة.. ولم يُجْدِ أهلَها منطقٌ يجمع.. ولا مصلحة توحد!

فقلت محتجاً: ويوم ذي قار.. ألم يجمع العرب؟ ألا تذكرون قول ابن مسعود الشيباني(١): المنية ولا الدنية.. هالك معذور خير من ناج معرور (٢) وتجمع العرب ورفعوا راياتهم وانتصروا.. وقد قال الرسول ﷺ: هذا أول يوم تنتصف فيه العرب من العجم(٣).

فقال الشيخ أبو إبراهيم: عند العرب مثل غيرهم أيضاً.. قواعد وأعراف

---

(١) هانئ بن مسعود بن عمرو الشيباني: من سادات العرب وأبطالهم في الجاهلية، هيج القبائل العربية من بني تميم وغيرها للقتال يوم «ذي قار»، وكان كسرى قد أقطعه «الأبلة» ومنازله مع قومه بني شيبان في بادية «ذي قار»، استجار به النعمان بن المنذر عندما شعر بكيد كسرى له فأجاره، فكان ذلك سبب معركة ذي قار.

(٢) نسبه الأصفهاني إلى هانئ بن مسعود، الأصفهاني: أبو الفرج، **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، بيروت، دار الفكر، ط٢، سنة النشر: بلا، ٢٤/ ٦٨. ونسبه أبو علي القالي إلى أوس شقيق الخزرج وهو يوصي ابنه مالكاً بألا يرضى الدنية من أولاد عمه، أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم، **الأمالي في لغة العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط: بلا، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م. ١/ ١٠٢.

(٣) رواه الطبراني بسنده عن بشير بن يزيد الضبعي رضِيَ الله عنه: قال قال رسول الله ﷺ يوم ذي قار: «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم» الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ط٢، ١٤٠٤-١٩٨٣. معجم بشير بن يزيد الضبعي، ح.ر: ١٢٣٨، ٢/ ٤٦. وضعفه الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، ح.ر: ٥٧٩، ٢/ ٤٧.

يقدسونها ويلتزمون بها. فمن أعراف العرب. حماية الأعراض والأنفة من العدوان عليها.. ومن أعرافهم حماية الجار.. وقِرى الضيف وحَمِيَّتهم لما يمس كرامتهم أو كرامة القبيلة.. وكانت هذه الأعراف بارزة أوضح ما يكون البروز فيهم. ولا سيما أهل الجاهلية منهم.. فليس غريباً أن تثور قبائلهم مجتمعة على الفرس حماية لكريمة من كرائمهم أن يتزوجها أعجمي ولو كان كسرى نفسه أو كان أحد أبنائه. ولكن ألا ترون أن هذه الأعراف تتغير مع الأيام وتختلف من حين إلى حين.. ومن مكان إلى مكان؟ فأي الناس غير الحطيئة[١] يحاول أن يذبح أحد أبنائه ليقدمه طعاماً لضيفه[٢]؟ إنها أعراف آنية موقوتة لا تبنى عليها أحكام شاملة.. ولا تصلح رباطاً لأمة.



(١) الحطيئة (ت ٤٥هـ ـ ٦٦٥م): هو جرول بن أوس بن مالك العبسي، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجّاء عنيفاً، سجنه عمر بن الخطاب في المدينة لكثرة هجائه ثم عفا عنه.

(٢) وردت الحادثة في قصيدة الكرم للحطيئة، ومما جاء فيها:

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه فلما بدا ضيفاً، تسور واهتما
فقال ابنه لما رآه بِحِيرَةٍ أيا أبت اذبحني ويسر له طعما
ولا تعتذر بالعدم عل الذي طرا يظن لنا مالا فيوسعنا ذما

الشيخ تقي الدين النبهاني

(٢)

كان الإخوة ذات يوم في نـزهة خلوية.. في كرم تـوت وخس غربي الرملة وكان كل منهم يتحفز لإبداء رأي يراه.

فقال أحدنا: إن رباط الوطنية وقد تقسمت المواطن أشتاتاً وصارت النعرات أيضاً أشتاتاً.. وأفضينا إلى إقليمية ضيقة.. فهذا مصري. وهذا سوري. وهذا يمني. وذا حجازي. وهلم جرا.. صار المنتمي إليه ضيقاً.. صار إقليمية صغيرة مضحكة! ورباط القومية العربية لا يشمل أجناساً أخرى من الأمة.. فهو دعوى ضعف وتمزق.

وقال الشيخ أبو إبراهيم: لا ينكر عاقل أن القومية والوطنية في الحروب تذكي المشاعر.. وتبعث على جسام التضحيات.. ولكنهما رباط ينقصه الشمول.. كما قد يعتريه الوهن.. فكثير من الناس أمام مصلحته الشخصية تهون لديه الرابطة الوطنية والقومية.

قال أحدنا: خذوا مثلا.. الشاعر الأبيوردي[1] يتعصب للعرب على الفرس..

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد القرشي الأموي، أبو المظفر (ت ٥٠٧هـ-١١١٣م): شاعر، مؤرخ، عالم بالأدب، ولد في أبيورد بخراسان، ومات مسموماً في أصبهان كهلاً، من كتبه «تاريخ أبيورد» مطبوع، وغيره.

وهو من أصل غير عربي.. هو من أصل فارسي.. والشاعر مروان بن أبي حفصة[١] يتعصب للفرس على العرب.. وهو من أصل عربي!

وقال أحدنا: ألا نرى أشخاصاً عرباً يخدمون الأعداء.. ويتعاملون معهم بإخلاص كأنهم منهم.. وهؤلاء المتعاملون معهم المخلصون لأعدائهم من صميم العرب.

وقال أبو إبراهيم: إن تاريخ العرب فيما بينهم تملأه المشاحنات والحروب الداخلية.

وقال أحدنا: إن كلمة واحدة أطلقها العز بن عبد السلام[٢] في خضم المعركة مع التتار.. وكانوا مندفعين كالعواصف.. يتحركون بقوة كأن الأرض تميد بالمسلمين.. وكادوا ينهزمون. لكن الكلمة وقد انطلقت زلزالاً غير مجرى المعركة.. فانتصر المسلمون على التتار الذي كان يقال فيهم: إنهم لا يقهرون. نعم.. أطلق العز بن عبد السلام نداء واإسلاماه.. مستغيثاً بكامن القوة في نفوس المسلمين.. فارتد المسلمون على أعدائهم أعاصير جارفة.. وبراكين مندفعة قاذفة.. وتحول سير المعركة.. غلب التتار.. وانهزم الأقوياء.. وقهر الذين كانوا لا يقهرون..

---

(١) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد (١٠٥-١٨٢هـ = ٧٢٣-٧٩٨م): شاعر، نشأ في العصر الأموي، باليمامة، حيث منازل أهله، وجمع معاصرنا قحطان بن رشيد التميمي، ما وجد من شعره، في دراسة نشرتها مجلة المورد.

(٢) عبد العزيز بن عبد السلام الدمشقي، عز الدين الملقب بسلطان العلماء (٥٧٧-٦٦٠هـ = ١١٨١-١٢٦٢م): فقيه شافعي، ولد ونشأ في دمشق، تولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي، ثم الخطابة بالجامع الأموي، اشتهر لدوره في مساندة السلطان قطز في حربه ضد المغول، له «قواعد الاحكام في إصلاح الأنام» مطبوع وغيرها، وكان من أمثال مصر: «ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام».

وانتصر المسلمون بإسلامهم وأمامهم قائدهم بيبرس[١] يردد معهم: واإسلاماه واإسلاماه.

كان الأخوة كلهم على أتم إصغائهم وهذه الكلمات تنساب.. وقد ظهر الانفعال على وجوههم.

وقال أبو إبراهيم: أحسنت بياناً وأصبت.. نعم.. هذه هي الرابطة الحقة الرابطة التي تتكفل بتحويل الأمة من حال إلى حال ولا رابطة تعلوها.. هي رابطة العقيدة.. العقيدة الإسلامية.

فقال أحد الأخوة: أنلغي الرابطة الوطنية والقومية!؟

فقال أبو إبراهيم: لا.. إنهما ستبقيان روافد تصب في مجرى الأمة الموحدة. وتتواءمان معها في إطارها.. ولكن العقيدة هي الرباط الشامل الأقوى. وتابع أبو إبراهيم حديثه ليقول: ولن يكون ذلك ممكناً حتى تستأنف الحياة الإسلامية استئنافاً حقيقياً.. ومن هنا كان إلغاء منصب الخلافة أكبر طعنة وجهت إلى المسلمين. وإلى الشرق بكل أديانه وشعوبه.

قال أحدنا: وهل يسهل على الناس استئناف الحياة الإسلامية بهذه الصورة المنشودة! ونقل الجبل من مكان إلى مكان أيسر منها وأسهل. فقال أبو إبراهيم: لا يأس ولا تخاذل.. أنا معكم في أن الطريق صعب ولكن ليس معنى ذلك أنه

---

(١) بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر (٦٢٥-٦٧٦هـ = ١٢٢٨-١٢٧٧م): صاحب الفتوحات والأخبار والآثار، مولده بأرض القبچاق، وأسر فبيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة، وفي أيامه انتقلت الخلافة إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ، وآثاره وعمائره وأخباره كثيرة جداً. توفي في دمشق.

مستحيل.. إن الأمة لو كشفت عن ضمائرها لوجدتها في شوق عارم.. إلى استئناف الحياة الإسلامية.. ولا يحول دون قيامها إلا أصحاب المصالح الخاصة.. نعم.. إن الطريق طويل.. ولكن لا إنقاذ إلا بقطع هذا الطريق واجتيازه.. ومن هنا كانت المهمة شاقة.. ومن هنا.. على العاملين أن يعملوا جادين مخلصين.

إن الغرب المستعمر أدخل إلى روع الأمة.. ولا سيما المسئولين فيها أن استئناف الحياة الإسلامية (بعبع) مرهب.. ورجعية بغيضة.. ويستجيب المستضعفون مع الأسف.. وفي الحق.. لا إنقاذ لأمتنا إلا باستئناف الحياة الإسلامية استئنافاً صادقاً..

وبعد فمن أين بلد أبو إبراهيم؟ وأين تعلم؟ وهو محمد تقي الدين النبهاني من إجزم قضاء حيفا. وقد ولد سنة **١٩٠٩** ووالده[١] شيخ متفقه في الدين وجده لأمه[٢] الشيخ الصوفي الكبير وذو الباع في الأدب والتأليف في المجال الصوفي.. وقد درَس في الأزهر ودار العلوم وتخرج سنة **١٩٣٢**.. وهو أحد تلامذة القسام[٣].. وقد عمل معلماً ـ كما عمل في المحاكم الشرعية.. ورفض الوظائف الكبيرة.. وتوفي في بيروت سنة **١٩٧٧** رحمه الله وأجزل له كريم المثوبة.

---

(١) إبراهيم النبهاني، فقيه ومدرس للتربية الإسلامية إبان الانتداب البريطاني.

(٢) يوسف النبهاني (١٨٤٩-١٩٣٢): عالم أزهري فلسطيني، عمل في القضاء الشرعي، له عدد من المؤلفات.

(٣) عز الدين القسام (١٨٨٣-١٩٣٥): ولد في جبلة في سوريا، درس في الأزهر، شارك في الثورة السورية ضد الاستعمار، وصل فلسطين في بداية عشرينيات القرن الماضي، عمل مدرساً وإماماً وخطيباً في جامع الاستقلال ومأذوناً شرعياً، بادر لتأسيس تنظيم عسكري سرياً للثورة على بريطانيا، وقد استشهد في أحراج يعبد مع عدد من مجموعته إثر معركة بطولية مع الجنود البريطانيين.

الشيخ توفيق جرار مفتي جنين

[توفيق جرار (١٩٢٢-١٩٩٦): أزهري فلسطيني، ولد في جنين، درس في الأزهر، عمل في سلك القضاء الشرعي، من مؤسسي الحركة الإسلامية في فلسطين، ترأس شعبة الإخوان المسلمين في جنين، عين مفتياً لجنين عام **١٩٥٣**، وأعيد تعيينه من جديد رغم تقاعده بعد مجيء السلطة الفلسطينية، كان عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى في القدس، ترأس لجنة الإصلاح في محافظة جنين].

سنة **١٩٣٨** تدفقت على مصر، قبلةَ الدراسة الدينية والعربية، أعداد كثيرة من شتى أنحاء بلدنا الغالية فلسطين ميممين شطر الأزهر الشريف. وكنا نرى طلاباً جداً كثيرين من شمال بلادنا وجنوبها على السواء. وكان توفيق جرار رحمه الله يتميز من بين هذه الأعداد المتكاثرة، بالحفاظ على السمت الأزهري، عمامة مكورة على رأسه تنسجم مع وجهه أي انسجام. وجبة (كاكولة) كما يسميها إخواننا في مصر يحافظ على شكلها وأناقتها. ولحية كانت في أول نباتها شقراء تنسجم مع لونه الأشقر. كان حريصاً على دروسه كل الحرص. ومبادر إلى الصلاة يؤديها في أول أوقاتها. فكأنه كان شيخنا منذ دبت قدماه على الثرى! كان يحلو لبعض الزملاء أن يسمي هذا الطراز من الرجال متزمتاً أو هو على (باب الله)!

ولكن توفيقاً كان دؤوباً على طلب العلم يبذل فيه أقصى مجهود معرضاً عن

فئة من الطلاب. لا شأن لها إلا التعليق، وتوليد فقاقيع الطرائف تسلية وإضحاكاً وقتلاً للوقت الثمين!

نال الشيخ شهادة من القسم العام في الأزهر تؤهله أن ينتسب إلى كلية الشريعة الإسلامية إحدى كليات الأزهر الشريف.

وانتظم فيها مع طلابها. درساً وتحصيلاً يواصل ليله بنهاره، مستقيماً جاداً. وتمر السنون، والشيخ جاد متواصل العمل والتفقه في دينه. يستوعب المعارف العلمية بغير كلل أو ملل. غيوراً على استقامة زملائه الطلاب.

جاءني ذات الشيخ (...) منفعلاً ثائراً في حزن مكبوت. وقال لي إن طلاب الرواق ويتزعمهم الشيخ توفيق جرار سطروا لائحة اتهام لي بأني مختلسٌ أموالاً عامة وأستغلها لمصلحتي الخاصة!

وتبين لي أن الأمر جد يسير.. بل هو مضحك يدعو إلى الاستغراب والعجب. وذهبت إلى الشيخ توفيق المتزعم في هذا الشأن. وبعد التفاهم معه وجدت أنه يهدف إرجاع ذلك الشيخ (...) إلى بلده ليعمل أي عمل يليق به.. وأن البقاء في الأزهر زمناً طال حتى تجاوز العشرين عاماً ليس في صالحه.. والخير له أن يندمج في الحياة الاجتماعية في البلاد الفلسطينية.

لقد تفهمت وجهة نظر الشيخ توفيق.. ولكني لم أوافقه على أسلوب الاتهام. إن الاتهام ولو بالصغائر جداً مرفوض، وهو منكر من القول وزور، وهو مجلبة للعداء والبغضاء، وإن بدا في ظاهره ضعيف الشأن عديم الأثر. وانتهينا إلى تمزيق لائحة الاتهام.

واعتبرت ما وصلنا إليه مكرمة لي، من إخواني الفضلاء، وعلى رأسهم الشيخان توفيق جرار وحافظ صندوقة(١).

وتمضي الأيام.. وفي يوم عيد ونحن مجتمعون للمعايده والزيارة في غرفة الشيخ حافظ صندوقة رحمه الله.. قال الشيخ توفيق جرار رحمه الله: يا إخوان تعلمون أن يد الله مع الجماعة وتعلمون أن الكف وحدها لا تصفق كما يقول المثل.

قلت: وماذا يريد الأخ الكريم؟

قال الشيخ توفيق: حينما اجتمعنا معاً في لائحة اتهام.. كانت لنا قوة الجماعة، فلماذا لا نحتفظ بقوة الجماعة هذه في شئون أخرى؟

وأتم حافظ الكلام فقال: شئون أخرى إيجابية وبناءة.. ولقيت الفكرة قبولاً وترحيباً.. وبالفعل طبقت في مجالات التعاون والإرشاد والأخذ بيد الضعيف.. وكان للشيخين حافظ وتوفيق أثر في هذا المجال.. وكان شيخنا المبرور عيسى منون(٢) راضياً عما يقوم به الزملاء، وكان يشترط علينا أن نطلعه على ما نقوم به خشية الوقوع في خطأ أو زلل.

وتمر السنون.. وأصبحنا على أهبة التخرج في الأزهر الشريف.. وحيث كنت قد آثرت مختاراً أن أكون معلماً استرشاداً بنصيحة شيخنا الروحي أمين النقشبندي* تغمده الله برحمته ورضوانه، فقد قال لي في مقام الإمام الشافعي رضِيَ الله عنه: (التعليم وظيفة الأنبياء الكرام وسيدنا رسول الله ﷺ بعث معلماً وخير المعلمين من كان عنده دين وغيرة على الأمة ونشئها).

---

(١) انظر ترجمة صندوقة في مقالة حافظ صندوقة ص١٣٥.

(٢) انظر ترجمة منون في مقالة عيسى منون ص١٦٨.

لا تزال عبارة الشيخ رحمه الله في أذني. وأصداؤها الموحية في قلبي ووجداني. ومن هنا.. فأنا مصمم أن أكون معلماً، وكان من تمام سعادتي النفسية أن كنت طالباً في كلية اللغة العربية.. وحينما تخرجت فيها عزمت أن أبدل لباس الأزهر من جبة وعمامة بما يلبسه الناس من ثياب عادية. وتهيأت لذلك عازماً على تنفيذه وإذا بي بعد صلاة المغرب أسمع قرعاً على باب حجرة أنا فيها.. وإذا بالشيخين الفاضلين حافظ وتوفيق بسمتهما الوقور الأزهري.. فرحبت بهما في هشاشة وبشاشة، وقلت في نفسي: إن للشيخين شأناً دعاهما لزيارتي.

وابتدرني الشيخ توفيق قائلاً: نحن قاصدان راجيان!

فأجبتهما وأنا في دهشة مفاجئة.. بل أنتما الأخوان الآمران المطاعان.

قال حافظ داخلاً في الموضوع مباشرة سمعنا يا فلَّاح.. وبهذه الكلمة تعوّد حافظ رحـمه الله أن يخاطبني.. أنك تريد أن تبدل زيك الأزهري فتصبح بالبدلة الإفرنجية كهؤلاء الأفنديات.. ونحن نريد لك أن تظل محتفظاً بزيك الشرقي الأزهري لباس المنتمين لأزهرنا الشريف. أدلى حافظ قوله بحماسة ظاهرة وقال توفيق رحمه الله مؤكداً ما قاله حافظ: أنت يا أخي قد حباك الله تعالى بالقدرة الأدبية شعراً ونثراً، وكمـا نراك تكتب في صحف مصر، تكتب إن شاء الله في صحف فلسطين، وتخطب في منابرها، وتحاضر في نواديها وستعلم بإذن الله في مدارسها، ونريد أن يقال عنك: إنك شيخ منا نحن الأزهريين، حتى يكون لنا في ميدان الفن الأدبي صوت مسموع!

وقال حافظ في حماسة وانفعال: ألا تـحب الدين؟ نريدك أن تكون مع دعاة الدين!

وبعد فترة صمت أطرقت فيها مفكراً.. أجبت الأخوين الكريمين قائلاً: يا أخوي الفاضلين لست أقل منكما غيرة على الإسلام، ولست أقل اهتماماً بالطابع العربي الشرقي.. فسأبقى بالزي الأزهري كما بقي فيه، وهو يزاول مهنة التدريس في المدارس الشيوخ الفضلاء أمثال تقي الدين النبهاني(١) وخلوصي بسيسو(٢) وغيرهما من كرام الشيوخ.. وكان ما أراده الله وأنا به قرير سعيد.

وفي أواخر شهر شعبان اجتمع المجلس الأعلى لدور الإفتاء في فلسطين في مدينة رام الله وفي دار الفتوى في رام الله والتقيت شيخنا توفيقاً رحمه الله وتذاكرنا الماضي المنصرم، واستعرضنا المآسي والمصاعب التي تمر في ظلالها البلاد وما بلغ بها من سوء وهوان وضعف.

فقال الشيخ: أنسينا قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦].

وأردف قائلاً: وكيف ستتحقق البشائر وترتفع رايات الانتصار لولا الاحتكاك والصدامات.. إن المستقبل لنا لأن المستقبل للحق والإسلام ونحن أصحاب الحق والإسلام.

وفي اليوم الخامس من شوال من سنة ١٤١٦هـ وفق ٢٤/ ٢/ ١٩٩٦م كنت في مدينة البيرة ذاهباً إلى الطبيب لوعكة ألمت بي.. التقيت أخي الفاضل الشيخ

---

(١) انظر ترجمة النبهاني في مقالة تقي الدين النبهاني (١) ص١٢٠.

(٢) خلوصي بسيسو(١٩٠٩-١٩٦٣): ولد في غزة، تخرج من الأزهر عام ١٩٣٢، درّس اللغة العربية والدين في مدارس غزة، وعين قاضياً شرعياً في محكمة غزة، وعضواً منتدباً لمحكمة الاستئناف الشرعية العليا، مارس الوعظ والإرشاد في المساجد، له العديد من المؤلفات.

عباس نمر[1] فأنبأني بالخبر الصادع.. لم أتمالك مشاعري وغلبني جائش العاطفة. قال الشيخ عباس: كان الشيخ يؤم الناس في صلاة العيد وما أن بلغ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلى: ٤-٥] حتى وقع ملاقياً ربه. نعم يا أبا عبد المهدي نشأت تقياً صالحاً، وأمضيت الحياة تقياً صالحاً، وها أنت ذا تلاقي ربك تقياً صالحاً، في هذا اليوم الأغر بعد إنهاء واجب رمضان صياماً وقياماً ودروساً يفيض منها الأمل والثقة والإيمان بتحقيق الأماني بمشيئة الله فإلى رحمة الله.



(١) عباس نمر(١٩٥٣): ولد في البيرة، حصل على الثانوية العامة من مدرسة البيرة الثانوية، عمل في وزارة الأوقاف حتى تقاعده عام ٢٠١٣، عضو اتحاد المؤرخين العرب وعضو مؤسس للموسوعة الفلسطينية، يكتب بانتظام في صحيفة القدس الفلسطينية منذ عام ١٩٩٤، له العديد من المؤلفات.

الشيخ الشهيد حافظ صندوقة *

التدين والاندفاع في تياره.. وحب البلاد.. يخالط هذين جراءة واضحة هذا المتجه النفس.. أزعم أن نفس حافظ صندوقة لا تخرج عن إطاره.

كان رحمه الله صديقاً لي. إذ نحن طالبان في الأزهر الشريف. وبعد أن تخرجنا فيه. ومن هنا فقد بلوته عن كثب.

كنت ذات يوم في القسم العام[١] في الأزهر الشريف.. وإذا بأخ مصري يناديني قائلاً: هل تعرف صاحب هذه الكتب وهذا الفرو؟ وقبل أن أجيبه على ما سأل قلت: أرني الكتب.. عل اسمه عليها! وإذا قد كتب على الصفحة الأولى من حاشية الباجوري على شرح ابن قاسم الغزي.. حافظ عبد العزيز صندوقة.. فأجبت الأخ المصري: لا أعرفه بالضبط ولكن أسرة صندوقة من بلدي فلسطين. ولعله طالب جديد.. فاتفقنا على أخذ متاعه والسؤال عنه. وتبين لي بعد ذلك شخص قال لي هذه الكتب لي.. وأنا حافظ صندوقة فاستلمها شاكراً.

ومر زمن طويل.. وكلما التقينا حيا بعضنا بعضاً.. وذات يوم قال: علمت أنك مغرم بالكتب.. فهل تتكرم علي بالسير معك لأرى من أين تشتري الكتب؟

---

(١) يقال له القسم العام أو الأزهر القديم، كان يعتمد فيه على نظام الحلقات داخل المسجد، ويسمح للطالب فيه باختيار أساتذته بكل حرية، وكان يتدخل في هذا الاختيار قدرة الطالب على هضم ما يختار، ومدى استيعابه لما يدور بين الشيخ وطلابه بعيداً عن التقيد بسنين منتظمة.

فقلت: أهلاً ومرحباً وأتبعت قولي: باعة الكتب هنا كثيرون. ولنذهب إلى بعض أماكنهم. ومع الأيام نزور أكثر أماكنها.

وأخذ يشتري منها ولا سيما ما يرتبط بالتفسير والحديث والتاريخ وفنون الأدب.

وتوثقت الصداقة ما بيني وبين أخي حافظ رحمه الله.. وقال لي يوماً: جاءنا الليلة ضيف جديد جاء ليصبح من طلاب الأزهر.. تعال فسلم عليه.. وامتثلت وجئت وسلمت على الضيف الجديد.. ولاحظت عليه الرهبة من الأزهر.. شأن كل مقبل جديد على مجهول فقلت مؤانساً: مرحباً بالأخ الكريم.. نحن هنا أخوة متعاونون.. أخونا الجديد من الخليل؟

قال: نعم.. من الخليل ومن مواليد القدس واسمي عبد القادر عبد المحسن عابدين[١]. فقلت: أهلًا ومرحباً.. وأسأل الله لك التوفيق.. وإذا بالأخ الجديد يقدم حبة معمول[٢] ومعها كأس شاي فشكرته وقلت إنها تحمل رائحة البلاد. كان هذا دأب حافظ رحمه الله يستقبل ويساعد ويعمل على طمأنة كل من يأتي من الطلبة المستجدين.

ولم أنس ولن أنسى طالباً آخر نزل أول ما نزل عند حافظ رحمه الله وجئت

---

(١) عبد القادر عابدين (١٩٢٧-٢٠٠٣): ولد في الخليل، درس في الأزهر، درَّس في القاهرة ما بين أعوام ١٩٥٠-١٩٥٧، ودرّس في السعودية، ثمَّ في القدس في مدارس الرشيدية والمأمونية وكلية العروب، عمل قاضياً شرعياً في القدس عام ١٩٧٢، ثم رئيس محكمة الاستئناف وقائم بأعمال قاضي القضاة ثم مفتي القدس.

(٢) حلوى فلسطينية مشهورة.

للسلام عليه والتعارف قال هو: أنا أمين عارف الخطيب من جبع جنين وسكان حيفا.. قلت مرحباً بالشيخ أمين.

لاحظت على الضيف الجديد نطقه بالعربية وكأنها سليقة فيه.. وإن كان التكلف بادياً قلت أراك تحافظ على قواعد العربية في أحاديث التخاطب العادية! أجابني حتى أعتادها. قلت ولكنك تزبب قبل أن تحصرم[١]. فضحك الحاضرون.. وهكذا كان حافظ مع كثيرين من الإخوة الجدد.

جاء ذات صباح طالب حبشي أصيب بلوثة في عقله وهو يحمل عصا قصيرة.. ربط في أعلاها خرقة خضراء. وقد جاء رواق الشوام. وهو يهتف متراقصاً رقصة خاصة.. ويقول: الجنة خضرة.. الجنة خضرة.. يا مؤمنون. ويكرر هذا الهتاف.. وأحسست بأنه جائع.. فدعوته ليفطر معي.. وإذ دخل حجرتي فإذا بالشيخ حافظ يأتي مغضباً قائلاً: أنت تريد أن تعبث بهذا الدرويش.. فاتق الله.. أجبته أريد أن نفطر معاً. قال: فليفطر معي أنا.. وجذب الرجل وقال: تعال عندي.. وقلت له: لك ما تريد.. وذهبت بعد حين إلى حجرته فإذا بهما يفطران معا.. ودعاني الشيخ حافظ للإفطار فاعتذرت بأني أفطرت.

وبعد شربنا للشاي عمد الشيخ حافظ إلى قمبازه[٢] الجديد (ويسميه بعضهم كبراً ويسميه المصريون قفطاناً) فخلعه وألبسه للدرويش ثم خلع جبته

(١) مثل يقال في الشيء الذي يأتي قبل أوانه، كأن يدعي طالب علم أنه عالم قبل أن يحوز على ما يؤهله لذلك.

(٢) هو: «قباء أو جبة واسعة ذات كمين يلبسها الرجال» رينهارت بيتر آن دُوزِي، **تكملة المعاجم العربية**، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، من ١٩٧٩-٢٠٠٠. ٧/ ٤٣٧.

الجديدة وتردى بها ذلك الحبشي.. فقلت مستغرباً. ما هذا يا أخانا؟ فأجاب: كان السلف إذا تصدقوا بثياب تصدقوا بها يلبسون. لأنهم يلبسون أجود ما لديهم.. وقد تصدق الرسول ﷺ ببردة كان يلبسها[1].. فقلت ممازحاً: أحسن الله إليك أيها السلفي الصالح!

واجتمعنا في البلد العزيز الغالي القدس الشريف.. كان هو مديراً لمكتبة صندوقة ومدرساً في المسجد الأقصى المبارك.

وأشهد أن حافظاً رحمه الله كان أكثر الأخوة الأزهريين وفاء ولطفاً وكرماً.. ما كلفه أحدهم مهمة يقوم بها أو يساعد فيها إلا وكان سباقاً محسناً للقيام بها.. ولو تعب من جرائها.

كان إذ يقوم بالتدريس في المسجد الأقصى المبارك.. يتدافع إليه المصلون يقبلون عليه.. ليستمعوا إليه.. قال أحدهم وقد سمعته: هذا الشيخ مخلص وصادق وكلامه يخرج من قلبه.. قلت له: صدقت وأصبت.

---

(١) حديث صحيح، رواه البخاري، عن سهل بن سعد، قال: جاءت امرأة ببردة، قال سهل: هل تدري ما البردة؟ قال: نعم، هي الشملة منسوج في حاشيتها، قالت: يا رسول الله، إني نسجت هذه بيدي أكسوكها، فأخذها رسول الله ﷺ محتاجاً إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فجسها رجل من القوم، فقال: يا رسول الله، أكسنيها، قال: «نعم»، فجلس ما شاء الله في المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت، سألتها إياه، وقد عرفت أنه لا يرد سائلاً، فقال الرجل: والله ما سألتها إلا لتكون كفني يوم أموت. قال سهل: فكانت كفنه. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه المعروف صحيح البخاري**، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، مكان النشر: بلا، ١٤٢٢هـ. كتاب: اللبس، باب: البرود والحبرة والشملة، ح. ر: ٥٨١٠، ١٤٦/٧ وأشير إليه: البخاري، مصدر سابق، كتاب، باب، ح.ر، ج/ ص.

عمل أبو محفوظ وهذه كنية الشيخ في محكمة رام الله الشرعية رئيساً لكتابها وكان يتبرع بالخطبة يوم الجمعة.. والتدريس في المساجد في البيرة ورام الله.

ولم تكن جماعة تجتمع لإصلاح ذات البين.. أو لإقامة مشروع خيري إلا وكان إليها سابقاً.. وباذلاً أقصى جهده لإنجاح أي موضوع يشارك فيه.

كنا نداعبه بإطلاق اسم أبي هريرة عليه.. إذ كان يشفق على القطط ويقاسمها طعامه.. ويحاول تدفئتها أيام البرد.. يتأسى في ذلك الصحابي الجليل أبا هريرة رضِيَ الله تعالى عنه.. ويقول مفاخراً بهذه الكنية: يكفي شرفاً بهذه الكنية أن الذي أطلقها على الصحابي المكتنى بها هو سيدنا رسول الله ﷺ.

ومات حافظ في أواخر السبعينات.. وكيف مات؟

لقد كان قاضياً لمدينة الطفيلة.. وخرج للصلاة يوم العيد ولم يعد.. وتعددت الروايات في أسباب اختفائه. فمن قائل: أن خطابته وانتقاده ما آلت إليه قضية فلسطين هو السبب.. ومن قائل: حنقه على الزعامة العربية وتخاذلها في القضية هو السبب.. ومن قائل: إنها أحقاد شخصية.

والمهم أنه اختفى ولم يعد.. ولا زال مختفياً!

رحمك الله يا أخي حافظ رحمة واسعة.. وأنزلك في واسع جنته مع الأنبياء والصديقين والشهداء.. وطاب ذلك منزلاً وحسن أولئك رفيقاً.



الشيخ رجب بيوض التميمي

[رجب بيوض التميمي (١٩٢٢-١٩٩٦): أزهري فلسطيني، ولد في الخليل، درس في الأزهر، عمل في سلك القضاء الشرعي كاتباً فقاضياً، عضو الهيئة الإسلامية العليا، أسهم في تأسيس كلية الشريعة في جامعة الخليل عام ١٩٧١، وكان أول عميد لها، أبعد إلى لبنان عام ١٩٨٠، وعاد إلى فلسطين عام ١٩٩٦، وكان عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني].

ومع أنه ذهب إلى القاهرة وهو في الرابعة من سني عمره ونشأ قاهرياً في لغته وعاداته إلا أن مُجالسَه والمتحدث معه يحسب أنه قدم من الخليل حديثاً ذلك أن لهجته محض خليلية والبادي أن صلته بلداته [بالقاهرة] لم تؤثر على لهجته الأولى التي لقنها عن والديه.

كنت أراه في رواق الشوام وفي صحف الأزهر الشريف ومعه رفيق مضت فترة غير قليلة وأنا أحسبهما أخوين رجب بيوض وأسعد بيوض[1]. إن تشابه اسميهما موقع في هذا الوهم.

---

(١) أسعد بيوض التميمي (١٩٣١-١٩٩٨): ولد في الخليل، درس في الأزهر، خطيب وإمام المسجد الأقصى، عمل في وزارة الأوقاف، كان أحد أقطاب حزب التحرير في الأردن سابقاً، أسس حركة الجهاد الإسلامي بيت المقدس عام ١٩٨٠، عرف بعلاقاته القوية مع ياسر عرفات، له العديد من المؤلفات، اعتقل في الأردن أكثر من مرة.

لقد كان الصديقان ابنا العائلة الواحدة جادين نشيطين. لا يراهما أحد يعبثان أو يلغوان. وإن كان أسعد فيه مرح ودعابة أكثر من قريبه.

كان أكثر طلابنا الأزهريين يطلبون العلم في شيء من الحرية في اختيار الشيخ الذي يستمعون إلى دروسه. وكان ذلك في القسم العام أو الأزهر القديم الذي يجلس الطلاب فيه على شيخهم جالسين على الحصر في حلقات متراصة والشيخ يشرح مادة الدرس وهم يستمعون ويناقشون في شيء من الاستفاضة والتوسع.

وكان الأقل من الطلاب الشوام منتسبين إلى القسم النظامي الذي يتبع ترتيب السنوات والفصول والتقسيم من مرحلة ابتدائية إلى مرحلة تليها ثانوية تنتهي كل مرحلة بنوال الطالب شهادتها العلمية وبعد المرحلة الثانوية ينتمي إلى الكلية التي يختار الانتماء إليها وأكثر الطلاب كانوا ينتمون إلى كلية الشريعة.

كان الشيخ رجب من طلاب القسم الثاني يغدو إليه نهاراً وبعد مضي الوقت المحدود يروح إلى بيت والديه حيث يسكنان وحيث يدير والده حانوتا له.

ورأيت ذات يوم الشيخين رجب وأسعد في حركة ذهاباً وإياباً يرافقهما الشيخ حافظ صندوقة[1] وسألت الشيخ أسعد: ما بالكم في نشاط غير عادي إلى خارج الرواق.

فأجاب: إن طالباً جديداً جاء إلى الأزهر نريد أن نبتاع له ما يلزمه من متاع وكتب ليستقر في وضعه الجديد وترتاح نفسه في حياته الجديدة.. فأكبرت منهم عملهم في مساعدة من يقدمون إلى الدرس في الأزهر الشريف.

(١) انظر ترجمة صندوقة في مقالة حافظ صندوقة ص١٣٥.

كان عادة متبعة وتقليداً حسناً أن يساعد الطالب القديم الطالب الـجديد حتى يأخذ سمته في الحياة العلمية الجديدة والتي تختلف اختلافاً كبيراً عما ألفه من لون الدراسة في بلده التي قدم منها. هنا في الأزهر الجد الشخصي والمثابرة المتواصلة لهما أعظم الأثر في حياته التعليمية كان الشيخ رجب من الطلبة المثابرين الجادين وقلما تراه يمر في حديث خارج عن موضوع درسه إنه كتلة من الجد والعمل الدءوبين المتواصلين.

واجتمعنا ذات صباح بعد الـمجهود الصباحي في الـمطالعة والاستذكار لنتناول إفطارنا وكان الإفطار على فول مصري نضيج.. يغشى وجه الأطباق طبقة من زيت الزيتون الطيب المذاق مزيجاً بشيء من عصير الليمون.. كان عددنا سبعة طلاب والتهموا إفطارهم التهاماً.. وتناول كل طالب كأس شاي وبعضهم يزيد من كئوس الشاي زاعماً أنه يريد أن يطفئ من لهب الفول في معدته.

ولكن فجأة ارتفع صوت الشيخ رجب وكان مليئاً علياً: هيا يا إخوان. أفطرتم فقوموا إلى واجب دروسكم. كان بعضهم يؤثر أن يتشقق الحديث عن الأوضاع السياسية والأحوال الاجتماعية ولا سيما أحوالنا وأوضاعنا في فلسطين والعالم الإسلامي والأمة العربية.. ولكن صوت الشيخ رجب قطع أطراف الحديث فقام كل واحد فتأبط كتبه وملازمه ذاهباً إلى الأزهر الفسيح ليذاكر ما عليه ويقوم بواجبه.

كان تخرج الشيخ في الأزهر الشريف في إحدى كلياته وهي كلية الشريعة الإسلامية سنة ١٩٤٤.. وكان ذلك إبان تخرجي أيضاً في كلية اللغة العربية.

كان الأشياخ الوشيكو التخرج يأخذون على عاتقهم أن يكونوا قدوة خير

لمن يجيء بعدهم من الطلبة.. وكان عملهم محصوراً في بعض المساعدات المالية كلاً قدر طاقته.. إصلاح ذات البين.. إرشاد الطالب الفاتر الجدَّ والدرس ليعود إليه نشاطه.. تقوية من ضعف تديناً وأخلاقاً وكان الشيخ في ذلك مع الأخوة ذوي النشاط والدأب.. أردنا الإصلاح بين زميلين فترت الصلة بينهما فانتدب الإخوان لذلك الشيخين المرحومين حافظ صندوقة ورجب بيوض وفي الحق كانا يقومان بالمهمة خير قيام.. وبعد تخرجنا في الأزهر الشريف جئنا راجعين إلى بلدنا الغالي فلسطين حفظها الله.. وإذ كنت ذاهباً في الحافلة إلى مدينة الأمويين الرملة البيضاء حيث كنت معلماً في مدرستها الثانوية. كان في الحافلة أخي وزميلي الشيخ رجب وأحسست بفرحة مفاجئة وجلست بجانبه في مقعد الحافلة وبعد التحية والسؤال عن الأحوال قلت له: أرى فضيلتكم في الحافلة الذاهبة شمالاً! خيراً إلى أية جهة تقصدون؟

قال: إلى يافا حيث المحكمة الشرعية.

قلت: خيراً إن شاء الله وأسأل الله لك التوفيق.

قال: وأنت إلى أين أنت ذاهب؟

قلت: إلى الرملة حيث أعمل معلماً للعربية.

قال: موفق إن شاء الله، وأردف قائلاً: إن مدير مدرسة الثانوية من الخليل.

قلت له: وأنعم به مديراً.. إنه إنسان فاضل وكريم الأخلاق.. ولا أدري هل يوجد مثله في مديري المدارس؟

قال: هو طيب والدنيا لا تخلو من الفضلاء.

قلت: إن بلدنا فلسطين بل أمتنا كلها في أشد الحاجة إلى الفضلاء العقلاء

الذين يأخذون الحياة ويزاولون الأعمال فيها بتوازن عقلاني أخلاقي. وتابع ليقول رحمه الله: إن نجاح أي داع في دعواه أو عامل في عمله إنما يكمن سر ذلك في أخلاقه ونوع تصرفه في الحياة.

وأجبته قائلاً: لم ينجح هولاكو(١) وجنكيز خان(٢) ولا من ماثلهما من الطغاة الماديين الجشعين لفقدانهم هذا الشرط من شروط النجاح.. التوازن العقلاني.. فلا شطط في التعامل.. ولا غمط لحقوق الناس.. ولفقدانهم التوازن الأخلاقي.. فلا عنصرية بغيضة.. ولا هوى جائر.. ولا حب للنفس يعمي ويصم.

وقال الشيخ رجب وهو يبتسم رحمه الله قال بسرعة وعلى عجل: وسر النجاح في دعوة الإسلام ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قلت: نعم والله فبالإضافة إلى الكريم وإرادته سبحانه كان خلق رسوله الكريم صلوات الله وسلامه قنديل فضيلة.. وشمس هداية.. ومنبر إصلاح.. ورحم الله القائل في حق رسول الله:

خلقت مبرأ من كل عيب　　كأنك قد خلقت كما تشاء(٣)

صلوات الله وسلامه عليه..

---

(١) هولاكو: قائد مغولي، عُرف بجبروته وقساوته، اجتاح بلاد فارس والعراق، احتل بغداد عام ١٢٥٨، وعاث فيها فساداً، ثم انتقل إلى الشام، أسلم بعد هزيمة جيشه على يد المماليك في معركة عين جالوت.

(٢) جنكيز خان (١١٦٧-١٢٢٧): قائد مغولي، استولى على مغنوليا والصين وتركستان وبلاد ما وراء النهر وأفغانستان، وأغار على بلاد فارس، عُرف بقساوته في الحروب.

(٣) بيت من الشعر قاله الصحابي الجليل حسن بن ثابت في وصف المصطفى ﷺ.

وأتممت قولي بهذه الجملة: ما أحوج كل مسئول. ولو صغر محيط مسئوليته إلى الخلق الكريم ورحم الله الأمير حيث قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا[١]

ووصلت بنا الحافلة موقفها في مدينة.. وهبطت إلى الأرض مودعاً أخي الشيخ رجب آسفاً على فراقه.

وضربت الأيام ضربتها.. وافترق أهل البلاد هائمين.. ولم أره من بعدها إلا مرتين.. مرة في عمارة المجلس الإسلامي في القدس صانها الله من شر الأحابيل.. ومرة في عمان.

كان مولده رحمه الله في ٢٢/ ٥/ ١٩٢٢ ووفاته في ١٩٩٦. وقد أنشئت في خليل الرحمن حفظها الله كلية للشريعة وكان الشيخ عميدها.. وقد أصبحت هذه الكلية نواة لجامعة الخليل وقد شغل عدة مناصب كان عضواً في مجلس الأوقاف الأعلى وعضواً في الهيئة الإسلامية العليا، كما عمل معلماً للتربية الإسلامية والعربية كما كان مفتياً للقوات الفلسطينية، كما كان عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني. كما انتخب ليلة إبعاده رئيساً لرابطة الجامعيين في الخليل.

وكانت قضية فلسطين شغل قلبه الشاغل فقد نبتت جذورها من عقيدته.. وقوي إيمانه لا يمل ولا يكل من الحديث فيها وحولها.. وكان في ذلك كله شديد الإيمان واثقاً من تحقيق هدف النصر واستظلال أمته جميعاً بظل العزة والكرامة. رحمك الله أيها الصديق ولقَّاك في ظل رضوانه نضرة ونعيماً.

---

(١) بيت من الشعر من قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقي.

الشيخ سعيد صبري

[سعيد صبري (١٩١٠-١٩٧٣): أزهري فلسطيني، ولد في قلقيلية، تخرج من الأزهر عام ١٩٢٨، عمل مأذوناً شرعياً وواعظاً ومدرساً، وفي المحكمة الشرعية في يافا ثمَّ الناصرة ونابلس، عين قاضياً شرعياً في جنين ونابلس والسلط، ساهم في تشكيل الهيئة الإسلامية في القدس].

في سنة ١٩٣٨ قال زميلي في رواق الشوام في الأزهر الشريف الشيخ سعد الدين صبري ؒ: أحس أن رواق الشوام مقفر موحش بعد ذهاب أفاضل طلبته منه.. ومغادرتهم إلى بلدانهم.

فقلت لزميلي: أليس هدف كل طالب بعد تحصيله ما قدر له من علم وشهادة أن يسافر إلى بلده؟

قال سعد الدين: هو ذلك. ولكن الطيب يترك وراءه فراغاً.

وقال الزميل الشيخ هاشم صبري[1]: هو الإلف وطول العشرة. أما الطلبة فكثيرون وأكثرهم.. بغير مبالغة.. طيبون.

---

(١) هاشم صبري (١٩١٧-١٩٩٥): ولد في قلقيلية، تخرج من الأزهر عام ١٩٣٩، عمل في سلك التدريس في صرفند ويافا وقلقيلية، مارس الخطابة والوعظ في مسجد العمري في قلقيلية، وعين مفتياً لمحافظة قلقيلية حتى وفاته.

وقلت لأخي سعد الدين: ولماذا الوحشة والاكتئاب.. ولا يزال الرواق عامراً؟ ثم من هؤلاء الأخوة الذين أشعروك بالوحشة والاكتئاب.. ثم الفراغ النفسي؟

قال: هم كثيرون.. وفي رأس القائمة سعيد صبري وعلي صبري(١).

قلت: يا صديقي لعل للقرابة أثراً فيما نحس به.. ونستوحش له!

وتمضي الأيام.. وأكون في القدس معلماً في مدارسها.. وكنت ألقى في طريقي شيخا معمماً جليل الطلعة متزناً في سيره. ونتبادل التحايا ثم يسير كل منا في سبيله. والتقينا ذات يوم قرب المتحف الفلسطيني.. واستوقفني مسلماً مصافحاً.. ثم قال.. أخوكم سعيد صبري.

قلت تشرفت.. ومن لا يعرف أستاذنا الفاضل؟ وأنا فتح الله السلوادي أعمل معلماً في الرشيدية.

فقال على الفور: ولماذا لا نتزاور ونتعارف؟

قلت: يسعدني أن أتشرف بزيارتكم.

وذات يوم قبيل الظهر.. ذهبت لعمارة المحكمة الشرعية في القدس أزور الشيخ الكريم فيها. ووجدت الشيخين الفاضلين معاً.. الشيخ حلمي المحتسب(٢)

---

(١) انظر ترجمة صبري في مقالة علي صبري ص١٦٢.

(٢) حلمي المحتسب (١٩٠٦-١٩٨٢): ولد في الخليل، درس في الأزهر الشريف، عمل في مهنة التدريس بعد عودته من الأزهر، اعتقل زمن الانتداب البريطاني أكثر من مرة، عمل واعظاً في بئر السبع وقاضياً شرعياً في عكا، ثم قاضياً في إربد ونابلس وعمان، ترأس الهيئة الإسلامية العليا في القدس حتى وفاته.

والشيخ سعيد صبري.. وجلسنا معاً كان الحديث ممتعاً.. يكاد شيخانا رحمهما الله يسيلان أدباً جماً.. ولطفاً رائقاً وهنا قال الشيخ مستفسراً: ما هي عنايتك بالحديث الشريف؟

أجبته: لسوء حظي. قليلة.. ولكن المراجع إذا توفرت.. تعين من يبحثون. قال: ما مدى علمك بهذا الحديث: «أنت على ثغرة من ثغر الإسلام. فلا يؤتين من قبلك»[(١)]؟

قلت: بحثت عنه فيما مضى.. فلم أجده في مظانّ الحديث.. مع أن سيد قطب الداعية الإسلامي.. أستشهد به في بعض كتبه.. ولكن سيداً ليس من رجال الحديث وإن كان باحثاً دقيق البحث.

وهنا قال الشيخ حلمي: ألا يتلاقى هذا الحديث في معناه.. مع حديث آخر وهو: «كلكم مسئول»[(٢)]؟

---

(١) رواه المروزي في كتابه السنة عن يزيد بن مرثد مرفوعاً بلفظ: «كل رجل من المسلمين على ثغرة من ثغر الإسلام، الله الله، لا يؤتى الإسلام من قبلك». المروزي، محمد بن نصر بن الحجاج، **السنة**، تحقيق: سالم أحمد السلفي بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ. ح.ر: ٢٨، ١/ ١٣. وضعفه الألباني: **سلسة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، ح.ر: ١١٦٥، ٣/ ٣٠٩.

(٢) حديث مشهور، متفق عليه، البخاري، مصدر سابق، كتاب: العتق، باب: العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، ح.ر: ٢٥٥٨، ٣/ ١٥٠. والنيسابوري، مسلم بن الحجاج، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المعروف صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط: بلا، سنة النشر: بلا. كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم، ح.ر: ١٨٢٩، ٣/ ١٤٥٩. وأشير إليه: مسلم، مصدر سابق، كتاب، باب، ح.ر، ج/ ص.

قلنا معاً: بلى.

وتمر الأيام وألتقي الشيخ صبري في المسجد الأقصى المبارك.. وكان الشيخ ساهماً[١] مكتئباً.

وقلت: ما لشيخنا على غير عادته في الانطلاق والتفاؤل؟

فأجاب: إن أحوال المسلمين تملأ النفس غماً وكآبة.. كلهم يتمدح بالإسلام وكلهم يرى أن القرآن هو العلاج.. وكلهم يقول: ما نكب المسلمون إلا بتفرقهم وتخاذلهم.. فبعضهم منحاز للغرب. وبعضهم منحاز للشرق.. وهناك تيار سياسي له دعاية كبيرة يسمى عدم الانحياز[٢] (كان هذا الحديث في آخر الستينات) قلت يا سيدي الشيخ: أنت تنصح الناس بالصبر. وحسبنا قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥] وقول رسوله الكريم: «اشتدي أزمة تنفرجي»[٣].

---

(١) ورد في لسان العرب: «يقال: سهم لونه يسهم إذا تغير عن حاله لعارض»، ابن منظور، مصدر سابق، ١٢/ ٣١٤.

(٢) تجمع دولي ظهر في خمسينيات القرن الماضي، ضم دولًا من آسيا وإفريقيا، يهدف إلى عدم الانحياز لأحد طرفي الحرب الباردة؛ الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وكان على رأس هذا التجمع مصر والهند.

(٣) حديث موضوع، رواه التنوخي بسنده عن علي بن أبي طالب رَضِيَ الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتدي أزمة تنفرجي»، التنوخي البصري، المحسن بن علي بن محمد، **الفرج بعد الشدة**، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، ط: بلا، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م. ١/ ١١٣، وقال عنه صاحب كنز العمال: «فالحديث موضوع»، الهندي البرهان فوري، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ-١٩٨١م. ٣/ ٢٧٤.

قال: نعم.. ولكن حالة الغضب في النفوس تغلي غلياناً.. وتنفس الصعداء.

ثم قال: ألا يشعر المسلمون والعرب.. بل ألا يشعر العالم كله بالخزي والعار؟

قلت: بلى.. ولكن العمي لا يبصرون سواء الطريق.

وفارقت الشيخ وقد أصابت نفسي شظايا مما يقاسي.. والتهبت أحاسيسي بنار يصطلي بها قلبه الكبير رحمه الله.

وهنا تذكرت ما كان يقوله زميلي المرحوم سعد الدين صبري بأن مغادرة أمثال الشيخ للرواق تركت فراغاً فيه.. إنه لا يعيش لنفسه.. إنه يحس أنه مسئول عن الأمة كلها.

لقد ولد رحمه الله سنة ١٩١٠ في مسقط رأسه قلقيلية وتوفي سنة **١٩٧٣** في القدس الشريف.. وشغل منذ تخرجه في الأزهر وظائف ومناصب متعددة.. كان آخرها منصب قاضي القدس الشرعي.. القدس التي أحبها كثيراً وامتزج حبها بروحه ودمه.



الشيخ سليمان الجعبري

[سليمـان الجعبري (١٩١٢-١٩٩٤): أزهري فلسطيني، ولد في الخليل، درس في الأزهر الشريف، عمل في المحاكم الشرعية في أكثر من مدينة فلسطينية، مفتي الجيش الأردني، عينته الحكومة الأردنية مفتياً للقدس عام ١٩٩٣].

في أواسط الأربعينات من هذا القرن التاسع عشر كنت في منزل الأستاذ عبد اللطيف عابدين(١) في مدينة الرملة البيضاء.. إذ كان مدير مدرستها الثانوية. وكنت معلماً فيها. وتذاكرنا المعلمين ولا سيما المشايخ منهم.. وأخذ الأستاذ يحدثني عن الشيخ سليمان الجعبري رحمه الله. قال: هو لطيف المعشر مع أخوانه. دمث الأخلاق. حاضر البديهة حلو الفكاهة.. ومن ميزاته أنه إذا تكلم عن مشكلة أو حادثة تكلم بحكاية أخرى مشابهة من التراث قديمة أو حديثة فيلقي بذلك على الموضوع جواً مرحاً ومريحاً لدى سامعه.

قلت لمحادثي: هذا شيخ أديب ومهذب. ثم قلت: أحب أن أقول عنه شيئاً آخر: إنه واحد من قلة من المشايخ القدامى ممن نالوا الشهادة العالمية المصرية. قال الأستاذ عبد اللطيف: وهل في الأزهر شهادة عالمية تخص المصريين وأخرى تخص الشآمين وأخرى للعراقيين إلخ.

قلت: لا المعادلة بين مصريين وغرباء ممن هم ليسوا بمصريين.

---

(١) انظر ترجمة عابدين في مقالة عبد اللطيف عابدين ص٢٦١.

العالمية تباح للجميع من طلاب الأزهر مصريين وغير مصريين ولكن لها شروطاً وميزات، من شروطها على الطالب المتقدم لها أن يدرس منهاجاً معيناً في عمق واتساع في المعارف الدينية على اختلافها. وفي العربية نحواً وصرفاً وبلاغة. وتاريخاً وفلسفة. وعليه بعد ذلك أن يثبت أنه أمضى اثنتي عشرة سنة في الأزهر أو في ما يشابهه من معاهد.. وحامل هذه الشهادة يمكنه أن يكون موظفاً في الأزهر الشريف. والعالمية الأخرى هي عالمية الغرباء. ومنهاجها أقل كثيراً من منهاج العالمية المصرية. ولا يشترط فيها مدة معينة. فقد ينالها بعضهم في سنة وقد ينالها بعض آخر في أكثر من السنين [سنة] ولا يسوغ له أن يكون موظفاً في الأزهر أو غيره في مصر.. وفي الثلاثينات من هذا القرن ألغى الأزهر الشهادة العالمية المصرية واستعاض عنها بالعالية من إحدى الكليات الأزهرية ذوات التخصص المتفرد الواسع المواد.

قال الأستاذ: وهل نال هذه العالية من بلادنا أحد؟ قلت: كثيرون.. ولكنهم ليسوا بالضرورة على مستوى موحد.

وفي القدس في أواخر الأربعينات إلى أواسط الخمسينات كنت فيها معلماً أسكن والشيخ سليمان في حي وادي الجوز.

كان يزور المدرسة العمرية ليرى ابنه علياً فيها ويسأل المعلمين عنه وكان مليئاً بالذكريات والطرف.

كنت أقول مازحاً معه رحمه الله: هل أفطر شيخنا على (عنسبيخ[1])؟

---

(١) حلوى تصنع من العنب في مدينة الخليل، ويطلق عليها البعض عنطبيخ.

فيجيب ببديهة سريعة: لقد سرقه (الحرامية) من عندنا فنتضاحك معاً. وهو يشير بالحرامية إلى أن سلواد قريبة من (عيون الحرامية)[1] على الطريق الموصل ما بين القدس ونابلس.

أو أقول لـه مداعباً قول شوقي: صار شوقي أبـا علي، فيجيب فوراً وهـو يبتسم: في الزمان الترللي.

كان رحمه الله قد يبدأ قائلاً: (قضية ولا أبا حسن لها). وهذا قول مأثور في وصف سيدنا علي كرم الله وجهه مشار به إلى إصابته في القضاء وصواب الفهم.. فأعلم أنا أن وراء كلمة الشيخ رحمة الله عليه قضية يراد بحثها من آية أو إعراب أو تدارس لحكم.

كان يقول دائماً هذه المقولة ويضمنها دروسه الكثيرة في المسجد الأقصى المبارك: إن أجدادنا نصرهم الله على أعدائهم.. وانتشرت حضارة الإسلام بهم بسبب صدق الإيمان إيماناً لا تشوبه شائبة.. وإن هذا الجيل لا يسترد قوته ولا تتسنى له عزيمته ولا يرجع سلطانه وكرامته إلا بالإيمان الصادق الذي لا تشوبه شائبة.

كان يبادر إلى ميادين الخير والإصلاح والإرشاد. وفي شهر رمضان المبارك.. كنت أكتب لصحيفة القدس حديثاً رمضانياً. فأحب أن يدلي بدلوه في هذا الميدان وكان في ذلك نشطاً دءوباً.

---

(١) تقع شمال غرب سلواد على طريق نابلس ـ رام الله، ولهذه العين صهريج أو بركة مبنية بالحجارة الكبيرة المنحوتة تتخذ الشكل المربع، وكانت مياه العين تتجمع فيها بواسطة قناة قصيرة، وما زالت بعض جدران هذه البركة ماثلة إلى الآن.

وقد مرت على عمله الوظيفي أطوار مختلفة. كان معلماً في مدينة اللد. وكان مفتياً للقوات الأردنية. كما كان موجهاً تربوياً في مدينة رام الله. وكان بعد أن بلغ سن التقاعد مدرساً في الأقصى الشريف. وآخر وظيفة شغلها رحمه الله هي وظيفة مفتي القدس الشريف.. وفي الحق كان مفتي القدس مفتياً لكل مستفتٍ من أنحاء البلاد كلها.

وكان في أعمالها نشطاً جاداً على تقدمه في السن رحمه الله. وقد وافاه الأجل رحمه الله في ١٠/ ١٠/ ١٩٩٤م.. وقد شيعه جمهور كبير من المترحمين عليه.

إن هـذا الـتراب في القـدس غال   كـم دم سـال فـوقـه عربـيـا[١]

إن صـوت الإسـلام فيـه جهـير   فـاسـمِعوه في جـوهـا جَـهْوريـا

نـم سـليمـان.. في حـماها أنيسـا   بـالتلاوات.. مـصبحاً وعـشيا

كان مـحباً للقدس ولا سيمـا الأقصى الشريف.. وها هو ذا يدفن في ثراها الطهور.



(١) جزء من قصيدة للشيخ فتح الله في رثاء الشيخ سليمان الجعبري.

الشيخ عبد الله القلقيلي

[عبد الله القلقيلي (١٨٩٩-١٩٧٣): أزهري فلسطيني، من مواليد قلقيلية، درس في الأزهر الشريف، عمل مدرساً للغة العربية في الجامعة المصرية، درَّس في عدة مدن فلسطينية، أسس جريدة الصراط المستقيم الأسبوعية في يافا عام ١٩٢٥، درَّس بعد النكبة في دمشق].

قال لي زميلي وصديقي الشيخ سعد الدين صبري: تعال عندنا لنتناول الغداء معاً في بيتي على شرف ضيف سأفاجئك به.

قلت: من هذا الضيف؟

قال: ضيف فاضل وقد جرى اسمه بيننا في مناسبات كثيرة.

قلت: سألبي هذه الدعوة الكريمة من أخ كريم للقاء ضيف فاضل.

كان ذلك عام ١٩٤٠ إذ كنت لا أزال طالباً في رواق الشوام في الأزهر الشريف. وفي الموعد ذهبت وفي نفسي تساؤلات وتخمينات: من هذا الضيف؟ وما اتجاهه في الحياة؟ أشاعر، أكاتب، أو موظف كبير، أزعيم من زعمائنا المجاهدين؟

وفتح الباب، وإذ بصديقي يرحب قائلاً: تفضل.. وحييت مصافحاً إياهما. وجلست معهما. وقدمني صديقي للضيف بنعت شاعر المستقبل الوطني. ورحب بي الضيف وتطلعت في نفسي أن يعرفني صديقي بالضيف.. ولكنه لـم يفعل. وسكنت في وجوم وتطلع.

كان الضيف معمماً يلبس زي (رجال الدين) حسب التعبير الشائع.. كان طلق اللسان.. موزون الكلام.. لهجته ثقة وتفاؤل واحتراس وأنا لا أزال متطلعاً لمعرفته إذ وردت هذه العبارة في كلامه: الاستعمار أو الانتداب عندنا متعال متعجرف. لا يصغي للحق. ولا يريد الإصغار إلى صوته. لأقل كلمة حق تكتب في الصحيفة يغلقونها. ويصادرون أعدادها. الديمقراطية الشوهاء عنوان مزور كاذب.. كنت أحتج لإغلاق الصحيفة. ولكنهم صم بكم. والهجرة لا تزال تتدفق والسماسرة يعملون بنشاط!

وهنا تجرأت وسألت: هل شيخنا الكبير يصدر جريدة؟

فقال لي صديقي: الصراط المستقيم. ألا تعرفها؟

قلت: بلى وأقرأ ما يصل إلينا من أعدادها.

إذاً فهذا الشيخ، هو الأديب الصحافي الموجه الشيخ عبد الله القلقيلي!

حقاً.. إنها مفاجأة من صديقي الشيخ سعد الدين!

وهنا نشطت للمساءلة والحديث بغير تحفظ. لقد كنت لاحظت أن الشيخ يفتح صدره للحديث. وأنه كان يجاملني بلطف وتوجيه. كما يفعل الأستاذ الحكيم مع تلاميذه.

قلت: يا سيدي الشيخ! إن نظرة فاحصة إلى أوضاعنا ترينا أن أوضاعنا تتمثل في كفتي ميزان غير متوازنتين، كفة راجحة، وكفة مرجوحة!

كفة فيها نهب الأراضي ومصادرتها، وقتل العرب لأقل حركة، ونفي زعمائهم والمضايقة عليهم في كل مجال، وهناك الإغراءات ذات البريق مما يندفع إليها ضعاف الدين وفاقدو الضمير، وهم كثير.

وكفة فيها الحفاظ على الأراضي على ضعف في سواعد المحافظين. وفيها شباب مؤمن متحمس يضحي. ومع ذلك فغطرسة الانتداب وقمعه. ورصاصه المنطلق. ومكايده وضعاف النفوس من أمتنا. كل ذلك يشل حركة القائمين المدافعين.

قال الشيخ: أصبت وأحسنت.. ولكن لي تعقيباً عليك أتمنى أن تصغي إليه. وواصل حديثه ليقول: أنت طالب.. فلا تشغل نفسك بغير العلم الذي أنت بصدده.. إن الانشغال بالأوضاع السياسية يضعف توجهك العلمي. والبلاد في حاجة إلى علماء موجهين ومرشدين.. وللسياسة والمجتمع رجال تفرغوا لهما.

قلت: ومع تقديري لنصيحة أستاذنا وشكري له. إلا أنني أتساءل: هل يستريح الإنسان ومستقبله في بلده شائك مهدد. لا يشعر في مستقبله بأمن واطمئنان؟

قال الشيخ: نعم يا ابني هذا وضعنا.. وأعان الله تعالى جيلكم. وألهمه سبل العمل المثمر.. ولكن أعط كل وقت ما يناسبه.

قلت: شكراً يا سيدي الشيخ.. وهذه نصيحة غالية لي ولإخواني، وشكراً.

وبعد ثلاثين سنة مرت على هذا اللقاء.. كان لقاء آخر مع سماحة مفتي المملكة الأردنية الشيخ القلقيلي على صفحات جريدة الجهاد الغراء، لكنه كان لقاء صحفياً.. كان يجرى مع بعضهم اختلاف في الرأي.. وكان الشيخ رحمه الله نصيراً لي.. يؤيد وجهة نظري.. وكان بذلك يعيدني إلى جلستنا في القاهرة حيث كان يزودني بآرائه وتوجيهاته.

وفي سنة ١٩٦٩ جـمعنا الله في مكتبة الأقصى في عمـان وكان الشيخ وقد تقدمت به السنون. كعادته في اللقاء معه. هاشاً باشاً يضفي على المجلس هالة من لطفه وبشاشته.. ولكنه كان متألماً لفراق بلده ولا سيما القدس. حانقاً على دول الإسلام بعامة. ولا أنسى قوله: أنا في السبعين من عمري وما مر على الأمة يوم أنكى وآلم من هذه الأيام.

وقد علمت بعد ذلك أن الشيخ من مواليد سنة ١٨٩٩ رحمه الله وأسكنه رضي جنانه.



الشيخ عبد القديم زلوم

[عبد القديم زلوم (١٩٢٣-٢٠٠٣): أزهري فلسطيني، ثاني رئيس لحزب التحرير، ولد في الخليل، درَسَ ودرَّس في الأزهر الشريف، له عدد من المؤلفات، منها: «كيف هدمت الخلافة»].

التقينا في الـخمسينات.. وربمـا كان ذلك اللقاء في ١٩٥٥ ما بـين باب العامود وباب الزاهرة على إفريز[١] الطريق العام.. وتبادلنا التحايا والتسليمات والأسئلة عن الأحوال.. ثم قال بلهجته الهادئة الرصينة: أنا أتابعك فيما تنشره في الصحف.. ولا تزال أنت أنت.. كما كنت في الأزهر.. لا تزال حماستك لم تتخذ لها درباً مرسوماً.. دعك من كلام لا يجدي.. ولا تضيع موهبتك في لغو ضائع.. لا ينتج.. وليس له ثمرة ترجى.

فطنت لما يريده أخي الشيخ.. ولكنني آثرت الإجابة بالقول العام.. إبعاداً له عن الموضوع.. فقلت بغير كلفة.. كعهدنا إذ كنا طالبين متزاملين: أهذه تحيتك يا عبيد القديم بعد زمن طويل؟!

ولكن أخي الشيخ أصر على موقفه قائلاً: إن إخوانك الذين يعرفونك ليدهشون من بقائك بعيداً عن السير في طريقهم!

---

(١) جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: «إفريز المحطة: رصيفها»، عمر، د. أحمد مختار عبد الحميد، وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م. ١/١٠٢.

فأجبته قائلاً: أنا معكم قلباً وقالباً.. ولكنني أقول لك ما قلته لشيخنا.. أنا لا أحب الانتماء الحزبي.. ولكنني على درب القرآن أسير.. ما استطعت. ودعوت أخي إلى بيتي إذ كنت أسكن في القدس.. فأعتذر بما تقيد به من عمل.

ومضينا كل في سبيله.. وانفتح لذهني باب الذكريات.. إذ نحن طلبة في رواق الشوام.. نعم هذا عبد القديم زلوم.. الطيب النفس، المستقيم السلوك الأديب قولاً وعملاً.. المثالي في حياته الإنسانية.. المؤثر لغيره على نفسه.. ولو أصابه ضيق.. لا أزال أتصوره أثناء ما يجري بينه وبين غيره من حديث.. إذ ينطق بهذه الجملة التي لصقت به وعرف بها.. لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها.. بالعودة إلى الإسلام وإلى أخلاق الإسلام.. ونظام الإسلام.

وكنت أعلق على قولته هذه في شيء من الدعابة الأخوية قائلاً: أطال الله عمرك يا شيخنا (البنا)[1] الصغير تشبيهاً له بالمرشد العام.

هذا عبد القديم الذي يبحث عن العمل الإنساني ليقوم به.. كما يبحث التاجر، الحريص عن الذهب ليكتنزه.

كنت ذات يوم راجعاً من الكلية التي أتلقى العلم فيها إلى الرواق.. ولا بدّ من المرور في ذلك الطريق الضيق الشديد الازدحام بالعابرين فيه طريق باب الغورية.. وإذ كنت أسير بهدوء كلما انفرج لي موطئ قدم لمحت عن بعد.. خلال الناس شيخاً معمماً لا تستقيم به الطريق.. أو لا يستقيم هو في الطريق.. يدافعه السالكون عن يمنة وعن يسار.. أدركت أنه كفيف البصر.. فقلت في نفسي: إن أدركت الشيخ لآخذن بيده. ولكن الزحمة شديدة لا تسمح بالوصول السريع..

---

(١) يقصد به الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين.

وكان المسكين يتعثر بهذا مرة ويصطدم بغيره أخرى.. وفجأة استقامت مسيرة الرجل.. وصحت به الطريق.

وعجبت من الذي أخذ بيده.. إن الناس في هذه الزحمة البشرية المتراصة لا يلتفت أحد إلى آخر.. لا بد أن الآخذ بيده إنسان غريب يساعد الآخرين.. وفي آخر الطريق خفت الزحمة وأسرعت الخطى لأكتشف من هذا القائد؟ وكم كانت دهشتي بالغة إذ رأيت قائده هو عبد القديم زلوم وراجعت نفسي لأقول لا عجب ولا استغراب.. فقد ألف كل من يعرفون عبد القديم هذا الصنيع من عبد القديم.

كان معنا زميل أجريت له عملية جراحية في عينيه.. ولـم يكن له قريب يقوده إلى الطبيب أو يعود من عيادته به إلى الرواق.. وتطوع عبد القديم وإن أضر بدوامه في كليته.. ثم أخذ يحضر له طعامه وما يحتاج.. تناول جماعة من المنتسبين إلى الدين.. أخاً لهم. وأخذوا يغتابونه ملصقين به نقائص ليست به.. وقد استغلوا في ذلك تباعد ذلك الإنسان بطبعه عن الناس.

وما راع الحاضرين إلا أن يروا عبد القديم الحيي الخجول ثائراً ثورة أسد.. ديس عرينه فقال: اتقوا الله واحذروا الظلم لأخيكم بالباطل ولا يغتب بعضكم بعضاً.. ماذا تنقمون من أخيكم؟ إنه خير أقرانه علماً وأدباً وخلقاً.. هو زميل لكم وتعرفونه جميعاً.. هو أخلصكم بصديق وأكرمكم لمحتاج سائل.. وهو العفيف النبيل فيما علمت وفيما تعلمون أنتم.. لأننا جميعاً ما علمنا عليه صفة غير ذلك.. فاتقوا الله.. ولا تجرحوا كريماً بريئاً.. وأنتم تجهلون.. وتطلعت أنا في وجوه الحاضرين فإذا بهم صامتين صمتاً مفاجئاً كصمت أبي الهول.. أو أعمق منه صمتاً.

هكذا كان عبد القديم سراجاً منيراً بدد ظلام الظالمين.. وأنار لهم سواء السبيل.

الشيخ علي صبري

[علي صبري (١٩١٠-١٩٧٩): أزهري فلسطيني، ولد في قلقيلية، التحق بالأزهر الشريف عام ١٩٢٤، درَّس في مدرستي النجاح الوطنية في نابلس والرملة الثانوية، ثمَّ عُين مفتشاً للّغة العربية والدين، كما درَّس بعد النكبة في مدارس سوريا والعراق والأردن، إضافة إلى عدد من الجامعات والمعاهد في السعودية والأردن، له العديد من المؤلفات في اللغة والأدب والفلسفة والدين].

في يوم السبت وبتاريخ ١٠/ ٥/ ١٩٤٥ كان اليوم الأول من أيام قيامي بواجب التدريس لمواد اللغة العربية في مدرسة الرملة الثانوية رملة الأمويين الذين كانوا يقطنون بها ولا سيما أيام الربيع والشتاء.

كان تعييني في الرملة مدرساً للعربية مكان الشيخ علي صبري الذي رفّع إلى وظيفة مفتش لمادة الدين أو التربية الإسلامية كما يقال الآن.

وقضيت اليوم الأول مرافقاً لأبي أسامة يقوم هو بأداء الدرس وأنا استمع وألاحظ كانت طريقته في تدريس المادة تقوم على كتابة الأمثلة على السبورة. ثم يبدأ في النقاش مع الطلبة حتى ينتهي من نقاش الموضوع وتحليله إلى الوصول إلى القاعدة وكان الطلبة يتجاوبون فهماً واستيعاباً.

وفي اليوم التالي استقللت بقيامي بالدرس بحثاً وشرحاً وتوضيحاً.

علمت من الطلاب فيما بعد أنهم كانوا متذمرين من ذهاب الشيخ علي غير راضين عن البديل أيًّا كان. وقبل أن يقوم بمزاولة التدريس لاعتقادهم أن الشيخ علياً لا يماثله في أدائه مماثل. ومن ثم اتفقوا على اختباري من قبل طالب منهم رتبته في الصف الأول. وهو الطالب النبيه (رجائي بصيلة*) قابلت أنا من جانبي هذا الأمر بوضوح مغتبطاً راضياً. وانتهى بنا الأمر إلى رضا وطمأنينة. تحولاً إلى ثقة وصداقة. أكرم ما تكون الثقة والصداقة.

وما كان هذا الشأن ليكون لولا براعة الشيخ علي وحسن أسلوبه وعرضه مما أكسبه ثقة طلابه به وبعلمه.

تطورت الصداقة مع الشيخ علي ومع زميلنا الثالث السيد مدير المدرسة المرحوم عبد اللطيف عابدين[1].

وقد كثرت بيننا اللقاءات والمشاركات العلمية في إعداد بحث أو تحقيقه. كان الشيخ موسوعة علمية مع الدقة والموضوعية فيما هو بصدده من حديث. وكانت إقامتي في مصر لم يبق لها إلا يومان. وابتداء عطلة الربيع بعد الدوام المدرس بقي لها ثلاثة أيام. وبهذا تنتهي الإقامة في مصر وما يتبعها من البقاء وتجديد الإقامة قبل أن ينتهي الدوام المدرسي. وإن لي في رواق الشوام كتباً كثيرة أريد إحضارها.. ولا يسمح بمغادرة المدرسة إلا بإجازة رسمية.. وقال الصديقان علي وعبد اللطيف رحمهما الله: خذ إجازة مرضية من طبيب الصحة وتسافر قبل بدء العطلة بيوم وتخلص من عائق الإقامة في مصر.. وقلت للأخوين الفاضلين ألا أكون كاذباً في ادعائي أني مريض وليس بي في الواقع أي مرض!؟

(١) انظر ترجمة عابدين في مقالة عبد اللطيف عابدين ص٢٦١.

قال الشيخ علي: هي الضرورة ولا يترتب على غياب يوم ضرر أو انتقاص في شأن واجبك المدرسي.

قلت: ولكنني أكون أمام الله والحق كاذباً.

وهنا ضحك المرحوم عبد اللطيف عابدين وقال: إنه كذب لا ضرر فيه لأحد. بل فيه منفعة ومصلحة بجلبك كتبك التي هي حق لك.

قلت: ومع شكري لكما وتقديري البالغ لاهتمامكما بمصلحتي إلا أنني يهون لدي أن تذهب كتبي.. ولا أَسِمُ نفسي بسمة الكذب والتزوير.

ولكم حاولا رحمهما الله إقناعي بذلك. ولكن ذهبت المحاولات عبثا وأصررت على موقفي إصراراً.

كان الوقت ربيعياً ماطراً وكانت سحابة قد عبرت أجواء المدينة الحبيبة الرملة البيضاء تسح ما حملته من ماء سحاً وتذكر بقول شاعرنا أبي تمام[1]:

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

لو سعت بقعة لإعظام أخرى لسعى نحوها المكان الجديب

وسمعت أثناء ذلك المطر المنسكب دقاً على باب المنزل الخارجي وذهبت إليه لأرى من وراءه.. وإذا بالصديقين الطيبين الشيخ علي وحضرة المدير وقد تبللت ثيابهما بالمطر بللاً ظاهراً.. وقد ظهر على عمامة الشيخ علي شيء من لون

(١) حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام (١٨٨-٢٣١هـ = ٨٠٤-٨٤٦م): الشاعر، الأديب، أحد أمراء البيان، ولد في حوران في سوريا، ورحل إلى مصر، يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع، له عدد من المؤلفات أشهرها ديوان الحماسة.

الطربوش الأحـمر.. ودهشت لذلك واستغربت مستطلعاً جلية الأمر.. وقال الشيخ علي: ذهبنا إلى مدير التربية في يافا وكان الـمدير حينئذ هو العالـم الغيور والمرحوم المبرور مصطفى الدباغ[1].. وأطلعناه على حقيقة موقفك فشاركنا في مشاعرنا تجاهك.. وقال: أنا لا أستطيع أن أسمح له بإجازة يوم ولا أملك ذلك إلا بإجازة من طبيب الصحة. ومع ذلك فالحل واضح ميسور.. إن القطار القادم من مدينة حيفا يمر من اللد في الساعة العاشرة وليثبت هذا الشيخ وجوده في المدرسة صباح ذلك اليوم الأخير من أيام الدوام المدرسي ولو لدقائق معدودة ثم فليستقل سيارة توصله للمحطة قبل وقت مجيء القطار. وبهذا يحل الإشكال.. وتابع ليقول: ومدير التربية يسلم عليك.

ثم أخرج الشيخ تذكرة للسفر المجاني في القطار حيث إني موظف من موظفي حكومة الانتداب. وقلت للشيخ: لا آخذها ولا أريد منة يتفضل بها علي مستعمر.. فقال الأستاذ المدير: أنت موظف.. وهذا من حقك بهذا الاعتبار وليس منة من أحد. فلا ترفض ألست تبذل جهداً في تعليم أبناء الأمة؟ وهذه التذكرة من الأمة وليست من مستعمر، فهي ليست منة من أحد ولا تفضلاً من محسن.

ورجعت من مصر ومعي الكثير من كتبي وإن بقي أكثرها هناك.. كان معي مما أحضرته ديوان الجداول للشاعر المهجري الكبير أبي ماضي[2]. وكان الشيخ

---

(١) مصطفى مراد الدباغ (١٨٩٨-١٩٨٩): ولد في يافا، خدم في الجيش العثماني، عين مديراً لمدرسة المنشية في يافا ثم مدرسة الخليل، ومفتشاً للمعارف في نابلس، لجأ إلى سوريا، عين وكيلاً لوزارة المعارف الأردنية في الخمسينيات، ثم مديراً للمعارف في قطر، نشر العديد من الكتب.

(٢) إيليا بن ضاهر أبي ماضي (١٨٨٩-١٩٥٧): من كبار شعراء المهجر. ومن أعضاء (الرابطة القلمية) فيه، ولد في لبنان، وسكن الإسكندرية، وأولع بالأدب والشعر حفظاً ومطالعة ونظماً، =

علي مغرماً بقراءته وترداد قصائده. ولا أزال أذكر تعلقه بقصيدة الطلال (لست أدري) وكان يردد فقراتها بتذوق وانفعال باديين على سرائر محياه.. ولا أزال أذكر انفعاله الموحي ونحن نمشي على ريث وهدوء بجانب تلكم المئذنة الباسقة الرائعة الجميلة التكوين.. والتي وضع رسمها على الورقة النقدية من فئة الخمسين ليرات وهي مئذنة النبي صالح كما يقولون. وكان يقول باقتناع: لا يوجد من يضارع[١] هـذا الرجل في مشاعره وأدائه الرائق الـجميل على سهولة في ألفاظه وإشراق ديباجته وخلوه من المعاظلة[٢] والتعقيد مع عمق في المعاني وغوص في أعماق النفس الإنسانية وحسن تـجليه لمظاهر الطبيعة. وتابع الشيخ قوله: ولا أرى لأبي ماضي مشابهاً في اتجاهه ومنحاه. قلت مدلياً بدلوي: إن الشاعر الأصيل كالشجرة المثمرة لا تعطي غير ثمارها. فإذا شئت أن تأخذ من دالية العنب رطباً يانعاً أخطأت السبيل.. إن لكل دوحة ثمارها.. وعندنا في بلدنا شعراء وشعراء رائعون جداً.

إن طوقان وعبد الكريم[٣] وعبد الرحيم[٤] في اتجاههم لا يمـاثلون وتعطي

= وهاجر إلى أميركا (١٩١١) نضج شعره في كبره، وغني ببعضه، وزار وطنه قبيل وفاته. له (تذكار الماضي) و(ديوان أبي ماضي) مطبوعان وغيرهما.

(١) أي يشابه ويماثل، ورد في لسان العرب: «والمضارعة: المشابهة، والمضارعة للشيء: أن يضارعه كأنه مثله»، ابن منظور، مصدر سابق، ٨/ ٢٢١.

(٢) الكلام المكرر، ورد في لسان العرب: «لم يعاظل الكلام أي: لم يحمل بعضه على بعض، ولم يتكلم بالرجيع من القول، ولم يكرر اللفظ والمعنى»، ابن منظور، مصدر سابق، ١١/ ٤٥٦.

(٣) عبد الكريم الكرمي (١٩٨٠-١٩٠٩): ولقبه أبو سلمى، شاعر فلسطيني ولد في طولكرم، أنهى مراحله التعليمية حتى الثانوية في دمشق، ثم انتقل إلى القدس، التحق بمعهد الحقوق في القدس وعمل في حقلي التدريس والمحاماة، ثم انتقل إلى بيروت وعاش فيها بقية عمره.

(٤) عبد الرحيم محمود (١٩١٣-١٩٤٨): شاعر فلسطيني، ولـد في عنبتا، درس في كلية النجاح =

نفس المرء ما تجده فيها وهم يعطون الأمة شعراً مما يحسون به وتجود به مشاعرهم.

وقد أمن الصديقان على قولي. وظل الشيخ يقرأ ملوناً صوته متحمساً تارة ساكناً هادئاً تارة أخرى. ونحن نسير في هدأة وطمأنينة في طرائق حول البيارات ذات الأريج المنبعث مع الأنسام العليلة الرحبة ذلك الأريج من أزهار البرتقال الذي لا ينسى أبداً طوال الحياة.

وقلقيلية أول أرض مس جلده ترابها سنة ١٩١٢ وقد توفاه الله في عمان سنة ١٩٧٩ . إن للشيخ علي كتباً في الدين الإسلامي تدرس في الصفوف الثانوية، تناول في موادها فقرات من المجلة الشرعية شارحاً معلقاً وضارباً الأمثلة تناسب بوضوحها وحيويتها لذهاب الطلبة وتقع منهم موقع الرضا والقبول. كما كان في العربية من فرسانها المحسنين على خلق رائع من التواضع وجمال التهذيب.

وقد تخرج في الأزهر الشريف بنواله شهادة العالمية. ثم انتمى إلى دار العلوم مكملاً تحصيله العلمي.. ولا سيما العربية وآدابها رحمه الله رحمة واسعة وأجزل له الثواب لقاء ما قدم لأمته.



= الوطنية، شارك في ثورة ١٩٣٦، تخرج ضابطاً في الجيش العراقي، درّس في كلية النجاح الوطنية، كتب شعراً عبر فيه عن وجدانه الوطني، استشهد في معركة الشجرة بالقرب من الناصرة.

الشيخ عيسىٰ منون

[عيسى منون (١٨٨٠-١٩٥٧): عالم أزهري فلسطيني، ولد في بلدة عين كارم من ضواحي القدس، أخذ العلم من الشيخ يوسف الحبية، انتسب إلى الأزهر في سنة ١٩٠٤، نال شهادة الأهلية عام ١٩١١، ثمّ العالمية، وأصبح شيخاً لرواق الشام ومن جماعة كبار علماء الأزهر عام ١٩٤١، له العديد من المؤلفات أشهرها «نبراس العقول في تحقيق القياس عن علماء الأصول»].

في سنة ١٩٣٧ وصلت القاهرة وانتسبت إلى الأزهر الشريف في عداد طلبة رواق الشوام.. وكان علينا حقاً أن نذهب إلى منزل شيخ الرواق لنسلم عليه ونحييه ويجري بيننا تعارف.. كما جرت العادة.

كان الشيخ يسكن حي شبراً.. وكان دليلنا إلى منزله الشيخ محمد الحمد(١). أو الشيخ قباطية. كما تعارف الطلاب تسميته باسم بلده.

ونزلنا من الترام وبعد قليل من المسير بلغنا منزل الشيخ. كنا خمسة من الطلبة الذاهبين للتعارف والتحية.

---

(١) محمد الحمد (١٩١٢-١٩٩٥): أزهري فلسطيني، ولد وتوفي في قباطة، درس في الأزهر، اشتغل مدرساً في جنين قبل حرب ١٩٦٧، وثم انتقل إلى التدريس في الأردن، واشتغل إماماً وخطيباً وواعظاً ومأذوناً شرعياً.

كان الشيخ قباطية يقول: شيخنا ابن عين كارم[١] هو من جماعة كبار العلماء وهو فريد في علم الأصول. كما أنه شيخ كلية أصول الدين.

كانت هذه الكلمات تزيد في الهالة التي نتخيلها للشيخ.. إجلالاً على إجلال. وبلغنا المنزل وجلسنا قبالة الشيخ. وقد ذكر كل واحد منا اسمه وبلده. وينطلق الشيخ مسائلاً كل واحد عن المشايخ الذين تخرجوا في الأزهر من قبل. وكان يسدي إلينا نصائحه. وكلها تدور حول الجد والاستقامة. وأوصانا قبل انصرافنا أن نزوره كل أسبوع. وأن نعرض عليه كل مشكلة تعترض. وتكررت الزيارات. كنت إذا قرعت الباب الخارجي أنا أو أي من الزملاء نسمع من داخل المنزل صوت الشيخ قائلاً: مين هاظ[٢].

فنحييه وعلى الفور ينفتح الباب ويتلقانا هاشاً باشاً.

كنت أسائل نفسي: وهل يزيد شأن هذا الشيخ عن أي شيخ في بلادنا؟

وذات يوم ونحن عنده وإذا بجماعة من مشايخ الأزهر يأتون لزيارته ورأيت بعضهم لا يرتضي إلا أن يقبل يد الشيخ.

إذاً فالشيخ على غير ما نتصور.. إنَّ الشيخ كبير والعلماء يعرفون العلماء. وتمضي السنون.. وكنت قد نلت العالمية من الأزهر والتحقت بكلية اللغة العربية.. وكنت أحسبني بتخصصي شيئاً كثيراً. فسألني الشيخ: كيف أنت ودروسك؟

---

(١) قرية فلسطينية مهجرة من ضواحي القدس إلى الغرب منها، ترتفع نحو ٥٠٠-٦٠٠م فوق سطح البحر، بلغ عدد سكانها عام ١٩٤٥ (٣١٨٠) نسمة من المسلمين والمسيحيين، فيها مسجد وعدد من الأديرة والمقامات المسيحية.

(٢) أي: من هذا؟ وهي لفظة عامية.

وأخذ يناقشني فأجيبه تارة وأتعثر تارة أخرى.. ثم أتعلل بالنسيان.

فيقول: هذا الكتاب الذي أسائلك فيه درَّسته لتلاميذي منذ ثلاثين سنة.. ومع ذلك لا أزال أذكره بل أحفظ مسائله.

وتعجبت.. وأنا على يقين أن الشيخ لا يغالي في حديثه.. وقد كان الشيخ رحمه الله يفسح لتلاميذه في رحابة صدره ولا يضيق بجراءتهم عليه.. بل يقف منهم موقف المشجع المسرور.

فقلت: قلت يا سيدي الشيخ إنك لم تنس كتاب الأشموني. وأنا أريد أن أمتحنك فيه فتبسم ابتسامة لم تظهر، وأرشدني إلى مكان الكتاب، فأحضرته وأخذت أقرأ باب الابتداء من متن الألفية. ثم أمسكت عن القراءة. فأخذ بسرد الشرح سرداً لا يخرم منه حرفاً وأنا أستمع في عجب. ثم تلا على الشرح شيئاً من حاشيته اعتراضاً وإجابة أو توضيحاً وإرشاداً. وهو لا يتلكأ ولا يتردد.

هنا.. تذكرت ما كان يشاع عن الشيخ من أنَّه منحه الله حافظة تذكر بحافظة الإمام الشافعي[١].

كان رحمه الله إذا ترأس لجنة امتحان لمناقشة رسالة مقدمة لنيل العالمية من لقب أستاذ (الدكتوراة) خشي المتقدم فيه الصرامة وعمق المباحثة لكنه يشعر في قرارة قلبه بالطمأنينية لعلمه أنَّ الشيخ في النهاية يرجح من كفة الطالب المستحق.

---

(١) محمد بن إدريس القرشي أبو عبد الله (١٥٠-٢٠٤هـ = ٧٦٧-٨٢٠م): أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد في غزة، له تصانيف كثيرة، أشهرها كتاب الأم في الفقه، المسند في الحديث، الرسالة في أصول الفقه وغيرها، توفي في مصر وقبره معروف في القاهرة.

كان كتاب شيخنا رحمه الله (نبراس العقول في تحقيق القياس على علماء الأصول) فتحاً في هذا الفن ويشار إليه دائماً بالإعجاب والإجلال.

كان كثير الثناء إذا ضمَّنا مجلس على المرحوم الشيخ عبد الفتاح السلوادي(١) ويشفع ثناءه بقوله: أقوى من علمني العربية والمنطق في المسجد الأقصى.

وكان يذكر بالثناء دائماً المرحوم الشيخ أمين العوري ويقول عنه: أقوى زميل وصديق. كان فسح الله له في رحيب جنته يحذرني من الرجوع إلى بلدي سلواد ويرغبني في العمل في الأزهر الشريف ويضيف إلى هذه الرغبة قوله: إن القرى مقابر العلماء.

شيخنا العلامة من مواليد عين كارم من قضاء القدس الخالدة. ومتى ولد؟ لا أعرف بالتحديد ولكنني أحدس حدساً فأقول: ربما كان من مواليد سنة ١٨٨٠ .. وأما وفاته فكانت سنة ١٩٥٧.

رحمه الله وطيب ثراه علماً من أعلام الإسلام في الأزهر الشريف.



---

(١) عبد الفتاح السلوادي (١٨٣٧-١٩٠٩): ولد في سلواد، درس في الأزهر، درَّس في مدارس القدس والمسجد الأقصى، درَّس عدداً من الطلاب السلاودة قبل ذهابهم إلى الأزهر مثل المشايخ خليل عياد وعبد الحميد أبو جودية والشيخ محمد بن زغرة.

الشيخ محمد عبده هاشم

[محمد نـمر «محمد عبده» هاشم (١٩١٦-١٩٨٩): مـفتي الأردن السابق، ولد في نابلس، درس في الأزهر، عمل قاضياً في المحكمة الشرعية في يافا، ثم مدرساً ومفتشاً في وزارة التربية والتعليم الأردنية، وقاضياً شرعياً في محاكمها، كان صاحب فكرة إنشاء تجمع منظمة مؤتمر الفقه الإسلامي].

من أسرة هاشم ذات العديد من العلمـاء البارزين.. والذين بلغوا أعداداً كبيرة في عهد الحكومة العثمانية.. وهم يملأون مراكز كبيرة من مرافق الدولة.. ولا سيما المحاكم الشرعية.. في عرض بلاد الإسلام وطولها.. من هذه الأسرة المباركة من مدينة نابلس الأثيرة.. كان طالبان شقيقان في الأزهر الشريف سنة ١٩٣٥ يقيمان في حجرة واحدة من رواق الشوام.. والكبير منهما هو محمد سعدي هاشم(١).. والأصغر منه هو محمد عبده هاشم رحمهما الله وكانت تجمع الاثنين صفات الأدب والجد والحياء والإيثار.

وكان الأول صوفياً منزوياً.. مثله الأعلى ابن الفارض(٢) والبوصيري وشرح

---

(١) سعدي هاشم (١٩٢٠-٢٠٠٠): ولد في نابلس، درس في الأزهر، اشتغل في القضاء، وعمل واعظاً وخطيباً في مسجد السعدي في عمان، له العديد من القصائد في مدح المصطفى ﷺ.

(٢) عمر بن علي بن مرشد ابن الفارض (٥٧٦-٦٣٢هـ = ١١٨١-١٢٣٥م): أشعر المتصوفين، يلقب بسلطان العاشقين، في شعره فلسفة تتصل بما يسمى «وحدة الوجود»، له ديوان شعر جمعه سبطه علي، وشرحه كثيرون؛ منهم: حسن البوريني وعبد الغني النابلسي. وشرحاهما مطبوعان.

الشيخ النابلسي على ديوان ابن الفارض.. وكان الثاني متميزاً بالمعارف الإسلامية من فقه وتفسير وتاريخ. وكان هذا الثاني موفقاً في الحياة والتعرف على كبار الشيوخ.. مع بشاشة ووفاء لزملائه الكثيرين.. وبعد التخرج في كلية الشريعة من كليات الأزهر الشريف. عمل مدرساً للمادة الإسلامية في المدارس فمفتشاً. فمسئولاً عن التربية الإسلامية في المملكة الأردنية.

وفي هذه الفترة.. كان يؤثر إخوانه ورفاقه في الأزهر ممن يتوسم فيهم المقدرة والخلق.. بالوظائف المتاحة ويسعى في ذلك سعي المجدين.

وإذ انتقل إلى مركز ملحق ثقافي في السفارة الأردنية في جدة. عمل على تسهيل لحاق إخوانه ليقدموا بالتدريس في الجامعات السعودية وعلى أن يتسنموا فيها مراكز عالية.. واستقر رحمه الله أخيراً في عمان ليشغل وظيفة مفتي المملكة فيها.

وشهدْتُ الإفتاء في حجرته المخصصة لذاك.. فكان حركة دائمة.. والمستفتون ـ ما أكثرهم ـ يأتون إليه زرافات ووحداناً.. وقد عين معه مساعد يعينه في فتاواه.. فقد كانت كثرة المستفتين والمراجعين تستوجب تعاوناً معه.

وقد كان يأتي إليه في دار الإفتاء زملاؤه ورفاقه من الضفة والقطاع يستعينون به وبوجاهته لدى المسئولين في استخراج جواز سفر. أو لحاق بجامعة أو معهد أو تسهيل لعقبة أمام وظيفة.

كان رحمه الله وفياً صادقاً.. ومعروفاً بهذا الوفاء.. وكان لا يقول لطالب معه: لا، وكان لا يقدر أن يقولها.. ولو تكبد في سبيل ذلك وفاءه وإنسانيته المشاق.. وسرعان ما تراه أقام نائبه المعاون مقامه.. وأخذ هو وصاحب الحاجة يهرولان حتى تنقضي الحاجة.

كان لا يلقى أبداً معبساً أو مكفهر الوجه.. كان هاشاً باشاً مع الناس أجمعين وكان على عرفانه.. والانتماء إلى صداقته كل من عرفه من الأردن وغيره.. كنت في عمان أبحث عن طريق انتساب ابني لجامعة من الجامعات وكانت طرق الانتساب تكتنفها صعوبة.. وتعترض مداخلها الوعورة.. وبينما كنت في بعض الشوارع.. وإذا بي يفاجئني الزميل الصديق الأستاذ فؤاد حمارنه* وعرف مقصدي من مجيئي إلى عمان.. فقال لي: إن لي صديقاً يبذل جاهه في سبيل مساعدة الإخوان.. ولا سيما من تتعسر الطرق أمامهم.

فقلت له: من هو؟

فقال: هو سماحة المفتي الشيخ محمد عبده هاشم.

قلت: أتعرفه؟ قال: هو صديقي الطيب.

فقلت: وهو أيضاً صديقي الطيب.

كان الشيخ رحمه الله لم يولد له أولاد، فكان يقسم راتبه قسماً لأولاد أخيه وقسماً في سبيل الله.. وقسماً ينفقه عليه وعلى بيته.

شاع في العالم الغربي موضوع اختيار فتاة شابة جميلة حسب شروط معينة ملكة جمال! وسرت عدوى هذا الاختبار إلى بعض دولنا العربية التي تلهث في عماية وجهالة.. وراء الغرب في فسوقه وعهره.. وأرادت بعض الجماعة الداعرة في الأردن أن يكون للأردن ملكة جمال!

وأخذ بعضهم يروج لهذا الابتكار العظيم في عالم الفسق والضلال. وكان يوم الجمعة.. وفي مسجد من أكبر مساجد عمان.. وكان يؤمه الآلاف من المصلين..

وجاء خطيب الجمعة فضيلة الشيخ محمد عبده ليقول في خطبته: يريد بعضنا أن يقلد الغرب العدواني.. لنقنع أنفسنا بأننا راقون كالغرب حضاريون متقدمون كالغرب.. فلا نقلده في ابتكارات علمائه ولا نقلده في قواه المادية والعسكرية.. ولا نقلده في صناعات مصانعه واكتشافات علمائه الرواد حتى نكون في مستوى قوته العسكرية فنحمي بلادنا ونصون ثرواتنا ونبني كما بنى الأجداد.. ونفتح بلاداً جديدة كما فتح الأوائل. يريدون لنا أن نقلده في عهره وفجوره. وفي سفساف[1] هواه وأضاليله.. ويريدون لنا أن نقلده في جعل العهارة شيئاً رسمياً.. يحميه القانون وتصونه الأعراف.

إن الغرب الفاجر يتنبأ له أبناؤه. أصحاب الغيرة فيه بضياعه وانحداره بسبب فجوره واستهتاره. ونحن لا سبيل لنا في إرادة الرقي إلا أمراض الغرب.. وأسباب معرته ودماره.

اتقوا الله أيها الناس.. واستمسكوا بكريم الأخلاق.. وفاضل العادات لقد جاء في حديث رسولنا الأكرم ﷺ.. ما معناه: «ما تركت فتنة أشد على الرجل بعدي من النساء والمال»[2].

---

(١) هو الرديء من الشيء، ورد في لسان العرب: «سفساف الأخلاق: رديئها»، ابن منظور، مصدر سابق، ٩/ ١٥٢.

(٢) لم يرد الحديث بهذا النص، وإنما رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن أسامة بن زيد رضِيَ الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»، واللفظ للبخاري، البخاري، مصدر سابق، كتاب: النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة وقوله تعالى «إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم»، ح.ر: ٥٠٩٦، ٧/ ٨. ومسلم، مصدر سابق، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء، ح.ر: ٢٧٤٠، =

اتقوا الله أيها الناس في أنفسكم. وفي أبناء الأمة جميعاً. لا يجوز لنا برضانا وطيب خاطرنا. أن نفتح أبواب المنكرات لنسيء إلى أجيالنا الطالعة. وبدلاً من إرشادها وتهذيبها نسوقها إلى العطب والضياع.

وكانت خطبة الشيخ رحـمه الله نداء للمسئولين الأخلاقيين لوأد الفتنة المسمومة في مهدها.

كـان الشيخ أحياناً يـمشي في الطرقات فتلقف آذان مرافقيه أمثال هذه العبارات: حيا الله العالـم العامل.. بارك فيك يـا بطل الإسلام.. أكثر الله مـن أمثالك يا سيدنا الشيخ.

ورحم الله الشيخ محمد عبده فقد كان قد نذر نفسه لخدمة الناس وكان حقاً عالماً عاملاً.



= ٤/ ٢٠٩٧. أما أن فتنة هذه الأمة بالمال فقد روى الترمذي بسنده عن كعب بن عياض رضِيَ الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال»، وقال الترمذي عنه: «صحيح غريب»، أبو عيسى الترمذي السلمي، محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط: بلا، سنة النشر: بلا. كتاب الزهد، باب: أن فتنة هذه الأمة بالمال. ح.ر: ٢٣٣٦، ٤/ ٥٦٩.

الشيخ نمر الخطيب

[محمد نمر الخطيب (١٩١٨-٢٠١٠): أزهري فلسطيني، من رجالات حيفا قبل النكبة، ولد في حيفا، درس في الأزهر، عمل مدرساً في مدرسة البرج، أسس جمعية الاعتصام الإسلامية في حيفا، وكان ممن أشرفوا على أعمال لجنة المقاطعة للبضائع الصهيونية، كما شارك في معارك الدفاع عن حيفا عام ١٩٤٨، وأصيب بعدة رصاصات، ترك العديد من المؤلفات في الدين والسياسة. توفي في السعودية].

سنة ٣٦ من هذا القرن كنت والمرحوم والدي في مقر القنصلية المصرية في القدس في طلب سمة دخول لمصر كي ألتحق بالأزهر الشريف.

ورأينا في مقر القنصلية شيخاً معمماً واعتقدنا أن له علاقة بالأزهر في مصر.. وأقبل عليه والدي رحمه الله يسأله: أسيدنا الشيخ أزهري؟

قال: نعم

فقال والدي: أمثل ابني هذا يقبل في الأزهر؟

قال: يقبل إن شاء الله. ثم سألني: إلى أي صف وصلت في المدرسة؟

فأجبته: الصف الرابع.

ولفظتها بشيء من الفخر.. لأني أعتقد أن الصف الرابع شيء كثير؟

وقال الشيخ: المستقبل بيد الله.. وهو متوقف على جدك واجتهادك.. ومدى استقامتك في سلوكك.. ولم أفهم مما تعني الكلمة الأخيرة شيئاً.

كان الشيخ طويل الجسم مهيب الطلعة.. حاد السمات.. جاداً في كل قولة تبدر منه. وسألنا من أي بلد أنتم؟ أجبناه من سلواد.. فقال أنا من حيفا.. واسمي نمر الخطيب.

ورجاه والدي: هل تتكرم بشيء من الإشراف على ابني هذا؟

فقال: نحن في الأزهر كلنا إخوة.. ويرعى بعضنا بعضاً.

وانصرفنا راجعين كلاً إلى بلده.

ولقد سُرَّ والدي بلقاء الشيخ نمر وبأن طلاب الرواق أسرة واحدة.. يرعى كبارها شئون صغارها.. ويوجه الأكثر علماً الأقل حظاً منه.

والتقينا في رواق الشوام وكان الشيخ مهيباً بين إخوانه.. وله تأثير بأسلوب التي هي أحسن في سلوك الطلاب.. مع أنه طالب مثلهم.. وهنا حكاية كان الأزهريون يروونها.

نشب خلاف بين القصر في مصر وشيخ الأزهر الإمام محمد مصطفى المراغي[١].. فصدر مرسوم بإقالة المراغي من مشيخة الأزهر وتعيين الإمام محمد أحمد الظواهري[٢].. وغضب الأزهر وثار وأضرب الطلاب عن الدراسة.

---

(١) انظر ترجمة المراغي في مقالة محمد مصطفى المراغي ص٨٧.

(٢) محمد الأحمد الظواهري (١٨٧٨-١٩٤٤): من شيوخ الأزهر المصريين، درس في الأزهر، وتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، ولي مشيخة الأزهر عام ١٩٣٠، أدخل نظام الكليات إلى الأزهر، وعدَّل في مناهجه التعليمية، كما أصدر مجلة الأزهر.

وفي سنة ١٩٣٥ صدر مرسوم حكومي بتعليق الدراسة في الأزهر.. وشغلت الصحف بالتعليق على هذا الحدث.

وطالب كثير من الزعماء بإرجاع المراغي إيقافاً للفتنة.. وإرجاعاً للأزهر إلى وضعه الطبيعي.. وكانت الإجابة أن ذلك ثلمة لهيبة الحكومة.

واشتدت الثورة وحوصر الأزهر بالشرط المسلحين حوله.. وكان للطلاب الشآميين دور كبير في هذه الثورة.. ولا سيما الفلسطينيين.. لقد عمد هؤلاء الطلبة إلى تقليع البلاط عن سطح رواقهم.. ثم يكسرونه قطعاً صغيرة.. وأخذوا يقذفون به رجال الشرطة.. مما أسفر عن عديد الإصابات وغضب وزير الداخلية.. وأصدر الأمر باقتحام الرواق وأصاب الرصاص طالباً فلقي مصرعه.. وضجت مصر كلها وتناقلت الأمر الصحافة العالمية.

وكان الشرط يقدمون واحداً بعد واحد إلى ضابط كبير يسجل اسمه. ثم يضربه بالسوط.. ويقاد إلى سيارة ضخمة ليعتقل.

وجاء دور الشيخ نمر فذكر اسمه للضابط وانحنى له الضابط برأسه احتراماً وقال: تشرفنا يا سيدنا الشيخ.. وأشار إلى الشرط ألا يمسوه بسوء.

وقال الطلبة: سبحان الله! لقد فرض هيبته حتى على رجال الشرطة العتاة.. وانجلت المشكلة كلها برجوع الإمام المراغي إلى الأزهر الشريف.. يتبوأ كرسي مشيخة الأزهر الرفيع.

وفي سنة ٣٨ التقيت الشيخ على سطح رواق الشوام وابتدرني سائلاً: ماذا تقرأ؟ فناولته الكتاب الذي بيدي.. وكان ألفية ابن مالك.

فقال: أحفظت منها؟ فأجبته كدت أن أتمها حفظاً.

فقال مسروراً: إحفظها وافهم شروحها.. تكن أنهيت الأزهر وصرت عالماً كبيراً في كل البلاد.. فأجبته أستغفر الله.. بدعائكم وتوجيهكم يا سيدي الشيخ.

وذات يوم آخر التقيت الشيخ ومعي كتاب أراجعه حفظاً.

فسألني كما هي العادة.. ما هذا الكتاب؟ فناولته إياه قائلاً: المعلقات العشر. فقال أحفظت منه؟ قلت: حفظته جميعاً.. فقال: أسمعني.. وأسمعته متنقلاً كما أراد.. من معلقة إلى أخرى.

فقال: أنا مسرور.. لأنك لم تخطئ في تشكيل الكلمات.. فقلت: بدعائك يا سيدي الشيخ. وأسأل الله المعونة.



الشيخ يوسف النجار*

عرفت الزميل الشيخ يوسف النجار رحمه الله في الأزهر الشريف خفيف الظل.. فكه الحديث.. لطيف الدعابة.. ألمعي الفطنة.. كان يملأ جو الجماعة التي يجالسها حيوية ومرحاً ولطف حديث.

كان طالباً في كلية أصول الدين من كليات الأزهر الشريف.. وكان من مواد الدراسة الموسعة فيها التاريخ الإسلامي.. يدرسه أو يحاضر فيه فيلسوف التاريخ الإسلامي في العصر الحديث الشيخ عبد الوهاب النجار[١].. ومادة الفلسفة.. والمحاضرون فيها كثير الدكتور محمد البهي.. والدكتور محمد غلاب[٢].. والدكتور أحمد محمد موسى*.. وكلهم كانوا أوجاً في النشاط والحماسة لما يدرسون.. وكان التلميذ الذكي متأثراً بأساتذته يحاكيهم في أساليبهم.. وطرائق نقاشهم.. مع أدب في الحديث وخفة روح في الفكاهة.

---

(١) عبد الوهاب النجار (١٨٦٢-١٩٤١): ولد في القرشية من قرى الغربية بمصر، درس في مدرسة دار العلوم، اشتغل بالمحاماة، ودرَّس التاريخ في الجامعة المصرية، أسس مع آخرين أكثر من جمعية خيرية منها جمعية الشبان المسلمين، له العديد من المؤلفات.

(٢) محمد غلاب (١٨٩٩-١٩٧٠): عالم مصري، درس في الأزهر والجامعة المصرية، حصل على الدكتوراه في الأدب من جامعة ليون الفرنسية، اشتغل بالصحافة، ودرَّس في الأزهر، اهتم بالفلسفة، له العديد من المؤلفات في الفكر الإسلامي. درَّس في كليتي الشريعة واللغة العربية في الأزهر، أصبح عضواً في هيئة كبار العلماء، ثمَّ مديراً للوعظ.

أما أنا فقد كنت متحفظاً في صلتي بزملائي في الرواق.. أميل بطبعي إلى ما يشبه العزلة.. لقيت مرة الأخ الشيخ يوسف وبدأني قائلاً: قرأت قصيدتك المنشورة في مجلة الأنصار وأعجبتني.

قلت ممازحاً: إن أعجبت بها فقد فهمتها.. وهذا القول مدح لك أكثر مما هو مدح لها.. فضحك وقال: من تواضع لله رفعه ياسي شوقي!

وتمر الأيام وتزداد وثاقة صداقتنا.. وكم كانت الساعات الطوال ونحن في جدل ونقاش.. يوسف وسليمان عطية* رحمهما الله.. وكاتب هذه السطور والنقاش حول شاعر، أو قصيدة، أو رجل تاريخي ولا سيما الفاتحين، وقد ينضم معنا رابع وخامس.. وكثيراً ما يكون المرحوم حجازي أيوب الجعبة* هو الرابع أو الخامس.. وقد كان فطناً حاضر البديهة ساخر النكتة.

ودعينا في رمضان إلى حفلة إفطار في قصر عابدين.. وكان يوسف وكنت ضمن العشرة المدعوين من رواق الشوام.

وكانت اللياقة تقتضي أن يتكلم أحد المدعوين شاكراً حامداً حسن الرعاية وسابغ الإكرام.. يقدمان للطلبة الوافدين.

واختار الجميع يوسف رحمه الله.. فارتجل كلمة بليغة رائعة تركت أثراً طيباً في الداعين والمدعوين على السواء.. وكان من المتكلمين المحسنين أيضاً الشيخ محمد المنصوري* عضو البعثة السعودية حينذاك.. وسفير السعودية في القدس الشريف فيما بعد في الستينات.

ولم يزل الأخوة معجبين بيوسف وإنه ليوسف الذي يحسن تمثيل المواقف.. ويكون فيها كفئاً كريماً!

وأنهى يوسف دراسته واختار أن يعود إلى بلدنا فلسطين.. ولا سيما قدسنا الغالية بلده ومسقط رأسه.. وعمل سكرتيراً أو أميناً للسر في المجلس الإسلامي في القدس.. وساقتنا المقادير لنذهب إلى ذلك المجلس مع عمي الحاج عبد العزيز عواد[١] في مسعى مساعدة لأخ يريد عملًا في الأوقاف.

وجلستُ في ردهة الانتظار مع الجالسين وذهب الرفاق الآخرون إلى أغراضهم.. وفي هذه اللحظات دخل شيخ معمم لا أعرفه وما كنت رأيته من قبل.. ولكن وقف له إجلالاً.. كل من ينتظر في الردهة.. وكانت مفاجأة لي.. وظللت جالساً.. ولاحظته ينظر في الحاضرين وفوجئت بعد حين بخروج الشيخ من حجرته. ويتوجه نحوي سائلاً فقال: ماذا تريد يا شيخ؟ أجبته: مقابلة أمين بك عبد الهادي[٢].. ففتر ما في لهجته من غضب مكبوت.. ثم قال: من أي بلد أنت؟ قلت: من سلواد. ثم قال: ماذا تشتغل؟ قلت: معلماً للعربية في مدرسة الرملة.. ثم انصرف عن مساءلتي. ولم يقل لي شيئاً.. وأدركت أن في نفسه شيئاً.. وسألت مجالسا لي: من هذا الشيخ؟ فنظر إليَّ في شيء من الاستغراب قائلاً: ألا تعرفه؟ إنه الشيخ كمال إسماعيل* عضو المجلس الإسلامي.. قلت: مع الأسف لم يسبق لي معه أي لقاء.. وبعد لحظات فوجئت بالشيخ يوسف يجيء ليسلم علي.. وقال: لماذا تجلس هنا؟ تعال إلى مكتبي.. وذهبت معه وكانت لحظة كريمة جددت فيها

---

(١) عبد العزيز أبو عواد (ت ١٩٦٦): ولد في سلواد، عمل في الزراعة، كان مختاراً لبلدة سلواد ما بين ١٩٢٩-١٩٥٤.

(٢) أمين بيك عبد الهادي (١٨٩٧-١٩٦٧): ولد في جنين، حصل على إجازة في الحقوق من الأستانة، عضو مجلس المبعوثان العثماني، عضو المجلس الإسلامي الأعلى في القدس ورئيسه عام ١٩٤٨، عاش في القاهرة في ستينيات القرن الماضي.

لقائي مع أخي وصديقي.. وجرت المساءلات.. ولا سيما عن الشعر والمطالعة.. وفجأة.. وما أكثر المفاجآت في دائرة الأوقاف.. دخل علينا شيخ من بلدة كذا.. وسلم وجلس ومد يده إلى ورقة بيضاء ليأخذها.. وهنا انتهره يوسف قائلاً: دع الورقة مكانها.

وتركها ذلك الشيخ وانصرف معتذراً في غضب مكبوت.. وعجبت لتصرف يوسف.. وقلت له معاتباً في حيرة: متى كنت غليظ الطبع يا يوسف؟ ما عهدتك هكذا! أم أن ذلك لأنك صرت تجلس على كرسي وظيفة؟ وهممت بالانصراف.. وقال يوسف على الفور: ستبقى طول عمرك صاحب قلب أبيض.. وأردف اجلس في مكانك لا تبرح، ثم ذهب وأحضر ذلك الشيخ وأعطاه كل ما عنده من ورق وطلب له فنجان قهوة.. وكان هذا من يوسف تصرف مفاجئ غريب.. وموقف ينطوي على إثارة.

وانصرف ذلك الشيخ.. وقلت ليوسف: ما هذا الذي رأيت؟ إني أرى عجباً! فقال يوسف: لا تعجب.. سأزيل أسباب عجبك.. لقد ذهبت إلى الشيخ كمال إسماعيل في بعض الشأن وسمعت صوت ذلك الشيخ عنده.. وتلبثت قليلاً وراء الباب.. وسمعته يقول عنك: اسمه كذا وكله حماقة وغرور.. وهو يرى نفسه أعلم العلماء.. ولا يرى للعلماء الكبار فضلاً.. وهو يعدهم مثل (الهسهس) الغرور والكبرياء يملآن نفسه.. وهو جاهل ليس لديه تحصيل علمي.. ثم دلفت إلى حجرة الشيخ كمال وحييته.. ثم قلت لذلك الشيخ بصوت غاضب: أكلكم يا أهل بلدة كذا حاسدون نمامون كاذبون؟ أين هي الأخلاق! ثم توجهت إلى الشيخ كمال قائلاً: والله إنه لأطيبهم قلباً وأكرمهم خلقاً وأنبلهم نفساً وأفضلهم علماً.. ولكنهم حاسدون.

ودهش الشيخ كمال.. وأسقط في يد ذلك الشيخ قلم يدر بما يجيب. هكذا قال أخي يوسف في شرحه أسباب ذلك الموقف الذي كان منه. رحمك الله فقد كنت كريم الأخلاق حي الضمير يا أبا مروان.

ولن أنسى أبداً أنه هو الذي ربط بيني وبين جريدة الجهاد فاستفدت منها وأفدت.. كما أنه هو ممهد للطريق إلى الإذاعة الأردنية في الخمسينات وأوائل الستينات وهي في مدينة رام الله.

لقد كنت يا أبا مروان.. وأنت في دنياك بين الناس فاضلاً تحب الحق. ولا تغمط الناس حقوقهم.. مصلحاً لما عساهم يقعون فيه من خطأ.. تحامل عليك بعضهم لأنك قومي بعثي.. وقد كنت مع ذلك أكثر منهم تديناً واستقامة أخلاق.

وقد انتقلت إلى دار الحق عند ربك مأسوفاً عليك ممن يعرفونك. في وقت كانت البلاد أشد ما تكون احتياجاً إلى صراحتك وذكائك واستقامة سلوكك.

رحمك الله يا أبا مروان فقد كنت للفضيلة والصدق والكرامة نعم المثال.



المجموعة الثالثة
ساسة وشعراء وكتّاب وأكاديميون

شاعر الحب والشباب أحمد رامي

[أحمد رامي (١٨٩٢-١٩٤٨): شاعر مصري، تخرج من دار المعلمين عام ١٩١٤، أصدر ديوانه الأول عام ١٩١٨، حصل على شهادته الجامعية الأولى من جامعة السوربون عام ١٩٢٤، لقب بشاعر الحب والشباب].

كانت صلتي بالصديق الراحل الشاعر حسن البحيري[1] سبباً في تكرار زيارتي لدار الكتب المصرية في القاهرة لمقابلة مدير الدار حينئذ المرحوم شاعر الشباب أحمد رامي.

وكان قد أخبرني البحيري بأن بينه وبين رامي صداقة وثقة.. فبينهما تزاور متواصل.. أكانا في القاهرة أو حيفا.

وكان هدف زيارتي أنا للشاعر رامي أن أطلعه على ما تنجزه مطبعة للكتب من ملازم ديوان البحيري (ابتسام الضحى) ليشير بملاحظته على المطبوع أثناء غياب البحيري في حيفا.

كان رامي ذكياً رقيق الإحساس ولكنه قد يخطئ في العربية.. فقد كان يتساءل عند نقاط تساؤلاً ينبئ عن عدم تمكنه من النحو على الأقل.. وكنت أبين له أسباب ذلك.

---

(١) انظر ترجمة البحيري في مقالة حسن البحيري ص٢٠١.

توثقت العلاقة بيني وبينه.. وكان يقول لي: أنت في العربية إمام ونحن نتعلم منك.. فأشكره وأشعر بشيء من الحرج.

صار رامي يطلعني على ما ينشئ هو من شعر.. وفي الحق كان مطبوعاً أصيلاً يقول السهل الممتنع.. وذكرني بالبهاء زهير[١].. الشاعر المصري السابق.. ولما صارحته بإحساس أنه يتلاقى مع البهاء زهير.. نظر إليَّ في دهشة بالغة وقال: لقد أصبت ما في نفسي.. إن أحب شعر إلى نفسي هو شعر البهاء زهير. وسارعت لأقول مستدركاً: ولكنك شاعر آخر وشاعر مستقل اللغة والإحساس والتصور.

فقال: أشكرك على هذا الشعور الذي هو وصف صادق ونظر مصيب.

قلت: هي الحقيقية.

وقال: من يعجبك من الشعراء؟

قلت: لا أحب أن أذكر شعراء بأسمائهم.. ولكني أذكر الصفة التي تروقني في الشعر.. أحب صدق الإحساس النفسي مؤدى بجميل الأداء اللغوي مع الحفاظ على موسيقاه ورائق كلماته..

وبعد حين من الزمن.. وفي مناسبة أخرى.. ذهبت لدار الكتب مع الصديق البحيري ودلفنا إلى حجرة مدير الدار.. وإذا بالمدير لديه زائر تبين من لهجته أنه سوري.

كان لقاء رامي بمسرة واحترام واضحين.. وكان في ترحيبه عربياً أصيلاً..

---

(١) زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي، بهاء الدين (٥٨١-٦٥٦هـ = ١١٨٦-١٢٥٨م): شاعر، ولد بمكة، ونشأ بقوص. له ديوان شعر مطبوع ترجم إلى الإنكليزية نظماً.

لكن ذلك الضيف تنقصه الهشاشه والبشاشه.. وكأنه أظهر الكراهية لمجيئنا.

كان أمام الضيف كتاب يقرأ فيه ويشاركه رامي في التصحيح والملاحظات.. ثم يكتب ذلك الضيف ما اتفقا عليه من تعليق.

ثم بدا لرامي أن يجعلنا شريكين لهما في الملاحظة والتعليق.. وكان الكتاب موضوع القراءة ما قدر على جمعه ذلك الأخ السوري من شعر لأبي فراس الحمداني(١).. وقد سافر إلى بلاد متعددة في سبيل اقتناص شوارده من مظانّ متعددة.. واسم ذلك الزائر هو الدكتور سامي الدهان(٢).. ولم أكن قد سمعت عنه أو قرأت له حتى ذلك اليوم.

كان ذلك الرجل يقرأ.. والتصحيف والأخطاء شائعة فيما يقرأ.. ثم يتفقون على إصلاح الخطأ.. ولاحظت أن بعض الأخطاء لا يتوقفون لإصلاحها أو أنهم قد يتفقون على غير الصواب.

وإذ أدليت بدلوي معهم كان رامي أول المتقبلين.. ولكن ذلك الزائر كان يتبرم من ذلك التصحيح.. وكان يلجأ إلى الاستعانة بالأخوين الآخرين ليساعداه عليَّ.. ولكنهما كان يخلفان ظنه.. فيقبل مغيظاً محنقاً.. ورأيت حفاظاً على شعوره ألا أشارك في النظر معهم فاعتزلت.. وكانوا أحياناً يقفون عند جملة مترددين فيطلب المرحوم رامي مشاركتي فأتوقف متردداً.

فيقول رامي: يسرنا أن تشاركنا.. وأنت شيخنا ويوافقه البحيري على طلبه.

---

(١) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، أبو فراس الحمداني (٣٢٠-٣٥٧هـ = ٩٣٢-٩٦٨م): أمير، شاعر، فارس، وهو ابن عم سيف الدولة، له ديوان شعر.

(٢) سامي الدهان (١٩١٠-١٩٧١): كاتب وأديب وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

فـأقول مـداعباً: إن رضى الأخ الـدكتور مـشاركتي.. بـشرط أن يـبتسم.. وأعود لأشترك معهم.

وقال رامي رحمه الله في لقاء آخر: لا تغضب منه.. ولا تعتب فإنه لا يعرفك.

فأجبته: لا بأس يا شاعرنا الكبير.. إن المتأدبين أخوة وجدير بهم ألا يحمل بعضهم على بعض.



أكرم زعيتر

[أكرم زعيتر (١٩٠٩-١٩٩٦): كاتب وسياسي فلسطيني، ولد في نابلس، التحق بمعهد الحقوق في القدس، عمل مدرساً في نابلس وعكا ما بين (١٩٢٦-١٩٢٩)، تولى رئاسة تحرير صحيفة مرآة الشرق في القدس عام ١٩٣٠، ثم رئيس تحرير صحيفة الحياة في القدس، سجن عدة مرات زمن الانتداب البريطاني، عمل سفيراً للأردن في عدة دول، وعين عضواً في مجلس الأعيان الأردني، له العديد من المؤلفات، توفي في عمان]

هو أكرم بن عمر بن حسن زعيتر.. ولد أمدّ الله في عمره في مدينة نابلس سنة ١٩٠٩م.. وكان ميلاده في وسط مثقف يهتم بالعلم والأدب. وشواهد مدى ثقافة الأسرة دليل على ذلك.. وبحسبنا عادل زعيتر رحمه الله.

علمت وأنا أزور ضفتنا الشرقية إذ كنت في عمان لبعض شأني أن أديبنا السياسي الكبير يرأس اللجنة الملكية في عمان.. وهنا رجعت بي الذاكرة عشرات السنين إلى سنة ٣٦ و٣٧ قبل انتمائي إلى الأزهر.. وكانت الثورة العربية الفلسطينية في إبان اشتعالها.. وكانت صحفنا المحلية ذلك الحين تزين صدر صفحاتها بمقالات أكرم زعيتر النارية.. وخطبه الشعبية الثائرة.. وكان شيوخ سلواد يقرأونها.. وأهل البلدة يصغون باهتمام وحماسة متأججة.. وهم يتحلقون حول من يقرأ لهم.. وأي الناس كان يستمع أو يقرأ مقالات أكرم الثائرة ولا يثور.. ولا تمتلئ نفسه بالغضب الملتهب والثورة العصوف؟

وصعدت درجات مركز اللجنة واستأذنت بالدخول إلى الأستاذ للسلام عليه والتعارف عن كثب.. ودخلت إلى أستاذنا في مكتبه من دار الجمعية الملكية.. وإذا به لا يزال يمعن النظر في كتاب منشور أمامه.

وبعد التحية وتبادل كلمات المجاملة قال: لا أجد اسمك مسجلاً في سجل ذكريات سنة ٣٦ عن أيام الاعتقالات الظالمة والنفي الجائر.. في سجون عكا وصرفند وعتليت!

قلت: لست من جيل الرعيل الأسبق من شيوخ سلواد.. إنما كنت تلميذاً لبعضهم رحمهم الله.

قال: وكيف حال البلاد وشبابنا الأعزاء وأهلينا الكرماء؟

قلت: بخير إن شاء الله.. جذوة الإيمان في نفوسهم مشتعلة.. وستؤتي ثمارها بإذن الله.. وبالتصميم والإصرار الأبيين.

كان أستاذنا الأديب الكبير زعيتر قد فعلت به السنون فعلها. فهو في هذا التاريخ ١٩٩٠ داخل في العقد التاسع من سنيه المباركة.. وإذا مرّ ذكر الانتفاضة رأيته يفيض حماسة وقوة كأنه على منبر رفيع يخطب في جمهور صلاح الدين في معركة حطين.

قلت: إن شيخنا الكبير لا يزال في حماسة الثلاثينات. وتابعت: أسأل الله العظيم الذي بيده كل شيء أن يسبغ توفيقه بين صفوف أمتنا. وإنجاحه لمسيرة انتفاضتنا المباركة.. وفي نفسي أنا شيء من الإشفاق والحذر على مسيرتها المباركة.

وما إن سمع أبو سري هذه الجملة الأخيرة حتى انتفض هو بدوره كما

انتفض (النسر) بلله القطر وقال: كيف تشفق على حركة أمتنا المباركة. وهي وليدة ثورتنا عام ٣٦.

قلت: كما أشفق المشفقون على ثورة ٣٦ لنفس الأسباب ذاتها تنازعنا وضعفنا ولم تؤت ثورتنا ثمارها.

فأجاب في حدة واضحة: وهل تحسب أن ثورة ٣٦ قد خبت نيرانها. إنها لا تزال قوية في النفوس متصاعدة مع الأجيال.. ولن تطفئ لهيبها قوى الشر مهما عتت وتفننت في خداعها وأساليبها.. ضرورة أن الحق منتصر دائماً.. وأتبع كلامه بقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

قلت: صدق الله العظيم.

وقال: إن كتاب الله العظيم سيبقى إلى الأبد أكبر مدد نفسي لأمتنا في قواها وتطلعاتها وخط مسيرها.

وقلت: حياك الله يا شيخنا الرائد.. ويا قائدنا الطليعة. وأطرقت مفكراً في إيمان أبي سري وثورة ٣٦.. التي كان هو أحد العقول المدبرة لها. إذ كان رفيقاً وصديقاً وشريكاً لقسامها رحمه الله.. وأخذت أفكر في قول الأستاذ: إن الحق منتصر دائماً.. مهما عتت الظروف.

وكم سمعت من زملائي في الأزهر من أبناء نابلس أن أكرم زعيتر كان إذا خاطب الجماهير بلغته القوية ونبرته الثائرة جعل فيها من الحماسة لهباً ومن الإقدام اندفاعاً لا يرد.. لا تخشى رصاصاً ولا مسيل دماء.. لا تخشى سجوناً ولا نفياً إلى خارج البلاد.

كان أبو سري في جلسته تلك يكثر من ذكر شقيقه الأكبر المرحوم عادل زعيتر العالم المتمكن والمترجم عن الفرنسية ترجمة دقيقة أمينة.. قلت: إنكم شجرة مباركة.. في كل أغصانها ثمر وخضرة وظل وريف.. وإنك يا أستاذنا مؤرخ يحسن الاعتبار بالتاريخ في حصافة وحسن ادكار.. وانصرفت ولا أزال أذكر ذلك اللقاء.



أنور الخطيب

[أنور الخطيب (١٩١٧-١٩٩٣): سياسي فلسطيني، ولد في الخليل، درس العلوم الاجتماعية في الكلية العربية في القدس، عمل مدرساً في بئر السبع والقدس، سكرتير المجلس الإسلامي الأعلى عام ١٩٤٥، تولى رئاسة بلدية القدس عام ١٩٤٨، وعين محافظاً للقدس، انتخب عضواً في البرلمان الأردني في خمسينيات القرن الماضي، أصبح سفير الأردن في مصر، عين وزيراً لأكثر من مرة، توفي في القدس].

كنت أجد متعة وقناعة في نفسي إذ كنت أقرأ افتتاحية أو تحليلا سياسيا لواحد من هؤلاء الكتاب ميشيل جودة* أو يوسف حنا[1] أو أنور الخطيب.. فقد كانت الواقعية والعقلانية وصدق الحدس والموضوعية نسيج ما يكتبه هؤلاء الكتاب مع بعد عن المجاملة والتزلف الرخيص.

كنت أقول للأخ أبي مروان[2] إذ كنت أعمل معه في الجهاد أو القدس: إن

(١) يوسف حنا (١٩٨٩-١٩٧٦): صحفي مصري، عمل مترجماً للجيش البريطاني في فلسطين، ثمَّ رئيساً للكتاب في دائرة حاكم غزة، تفرغ للكتابة الصحفية منذ ١٩٢٩، وتولى رئاسة تحرير جريدة فلسطين ما بين ١٩٣٢-١٩٤٨، سكن الأردن بعد النكبة وبقي يعمل في الصحافة، له العديد من المؤلفات في الأدب والشعر. توفي في عمان.

(٢) محمود أبو الزلف.

كانت الافتتاحية أو صاحب التحليل وهما بغير توقيع أبو هاشم فيجيبني.. نعم.

وأقول: إن أسلوبه وتفكيره ينمان عليه.

كان رحمه الله بعيد النظر.. رحيب الأفق.. صادق الإصابة.. كان يتابع ما يسطره قلمي الضعيف.. ولا سيما الشعر.. ويناقشني في موضوع القصيدة.. كنت ألتقي معه في كراهية ما يسمى شعراً عند بعضهم.. لأنه انحرف عن عمود الشعر العربي الأصيل.. كما كان رحمه الله معجباً بشوقي وحافظ وإبراهيم طوقان.

زرته في مكتبه بمناسبة.. فوجدناه يقرأ قصيدة لي منشورة في الفجر. فقال معلقاً: إنها تصور الواقع بعاطفة جياشة وفكر مضيء.

فأجبت: هذا من لطف أستاذنا وجمال مجاملته.

وقال: ليتك تتفضل بصورة عن أي قصيدة تخطر لك.

قلت: سأفعل إن شاء الله.

كان أبو هاشم أريحياً كريماً.. لا يرد مستعيناً به في حاجة يريدها.. جاورني في منزلي في سلواد رجل من القدس أو من سكان القدس.. وقال في رجاء: لي حاجة وأنت تقدر على قضائها.. قلت: ما حاجتك؟ تفضل ببيانها. قال: أنت تعرف السيد أنور الخطيب. قلت: نعم. قال: وهو يستطيع أن يقضي حاجتي. قلت: فاذهب إليه. قال: إنه لا يعرفني وأنا أعلم أنه يحترمك.

فعرفت ما يريده هذا المتشفع بي.. أن ابنه أنهى الجامعة ولم يجد بعد عملاً يعينه في نفقات العيش.. وهو رب أسرة. واتفقنا على ميعاد في صباح الغد.. والتقينا في الموعد قريباً من مكتب أبي هاشم في مقابل البريد في قدسنا الغالية.

واستأذنا بالدخول فإذن في بشاشة وترحاب كالعهد به. وأوضحت له رحمه الله موضوع الرجل.. فما تعايا(١). ولا تغير وجهه.. بل أمسك بقلمه وسطر كتاباً طواه في غلافه وناوله الرجل. وقال: أوصله إلى فلان يداً بيد. وتلوت معلقاً قوله تعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ [النساء: ٨٥].

وقال مستجيباً: صدق الله العظيم.

وهيأ الله للرجل بغيته. فكان له ما أراد.. وانفرجت ضائقته. وكذلكم كان أبو هاشم لا يخيب قاصده.

تذاكرت مرة مع الأخ الفاضل الحاج حسن طهبوب(٢) سجايا أبي هاشم.. فقال هو ابن الشيخ عبد الحي الخطيب* مفتي الخليل.. الذي كان له ولرفاقه موقف مشرف أمام ما أقدمت عليه جماعة الاتحاد والترقي(٣) من إنزالهم السلطان عبد الحميد(٤) رحمه الله عن كرسي الخلافة.. وتم أن نفي الشيخ ورفاقه الفضلاء معه.. قلت في نفسي: والأصل تتبعه الفروع.. شنشنة أعرفها من أخزم.

كانت مناسبة رأس السنة الهجرية. وكنت قد حملت له صورة من قصيدة أعدت لهذه المناسبة. فأخذ يقرأ فيها صامتاً متأنياً.. ثم قال في ألم: نعم تدفقت

---

(١) أي: «عجز عنه، ولم يطق إحكامه»، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ١٥/ ١١١.

(٢) انظر ترجمة طهبوب في مقالة حسن طهبوب ص٢١٦.

(٣) حزب تركي نادى بتفوق العنصر التركي على باقي عناصر الدولة العثمانية، ومارس سياسة عنصرية تجاه باقي أعراق الدولة العثمانية بناء على هذا التصور.

(٤) السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨): السلطان الخامس والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، حكم في الفترة ما بين (١٨٧٦-١٩٠٩) عرف بموقفه الرافض لسيطرة الحركة الصهيونية على فلسطين، فُرضت عليه الإقامة الجبرية بعد خلعه حتى وفاته.

على فلسطين وعلى القدس خاصة ظلمات الغزو الأوروبي. ثم الغزو الذي ينعت بالغزو الصليبي. وكانت الجيوش الباغية. والمذابح الدامية. والاعتداء المشين الذي لا تزال معرته تثير السخط والألم والندم. ولكن الظلمات إذا اشتدت فإن وراءها فجر يضيء. وإشراقة شمس تنير.. ألا تتخيل معي كيف لبى صلاح الدين نداء فلسطين. ومن معه من المسلمين المجاهدين.. وكانوا في القدس انطلاقة فتح أمام العدوان الطاغي.. فانكمش الظلام وولى.. وانطلق الأذان من منابره ومآذنه. رفيعاً مدوياً تقر به قلوب المؤمنين.

قلت: إن هذه الانطلاقة في الحديث قصيدة أخرى في هذه المناسبة.. حبذا لو صيغ هذا المعنى في مقالة ضافية. أو كتاب يجمع ما تلاقى بهذا المعنى في إطار بديع فصمت ولم يجب.. ولكن كانت الإجابة فيما بعد فقد أصدر رحمه الله كتابه: «مع صلاح الدين في القدس».

وفي سنة ١٩٦٧ حينما سقطت القدس في أيدي قوات الاحتلال رفع المحتلون علمهم فوق قبة الصخرة المشرفة.. وارتاع الناس وأحسوا بقباحة هذا التحدي فوق رمز الإسراء الشريف. وظلت المداولات والمراسلات منه رحمه الله إلى أن أنزل علم الاحتلال عن قبة الصخرة. نعم إنه ابن مفتي الخليل وقد امتلأ قلبه بمعاني دينه. وكرامة أمته. ونبالة التاريخ المجيد. وها هو ذا أنور الخطيب لم يبارح المسجد الأقصى. إذ إنه في بابه الشمالي مقيم ينتظر القادمين. رحمه الله.



حسن البحيري

(١)

[حسن البحيري (١٩١٨-١٩٩٨): شاعر فلسطيني، ولد في حيفا تلقى تعليمه الابتدائي فيها، عمل في سكة الحديد في حيفا، كتب سلسلة مقالات في صحيفة الدفاع الصادرة في يافا وغيرها من المجلات العربية، كان ناشطاً سياسياً ضد الانتداب البريطاني، عمل بعد النكبة في القسم الإذاعي بإذاعة دمشق، وشغل منصب رئيس دائرة البرامج الثقافية في الإذاعة والتلفاز السوري، نشر عدة دواوين شعرية].

سنة ١٩٤١ التحق بالأزهر الشريف طلباً للعلم في معاهده طالب من جبع جنين وهو الزميل الشيخ أمين عارف الخطيب المقيمة أسرته مدينة حيفا.. وكنت معه ذات يوم في محادثة عن الأدب في فلسطين.. وكان الحديث ينتقل بنا من طوقان إلى أبي سلمى إلى عبد الرحيم رحمه الله جميعاً.

وقلت لزميلي: لقد قرأت لهم وما سمعت لهم إلقاء لشعرهم. وإلقاء الشعر من الشاعر يزيده روعة ويضفي عليه جمالاً بمقدار إحسان الشاعر في إلقائه.. فأجابني الشيخ أمين: نعم. وأضاف قائلاً: لو رأيت أو سمعت البحيري وهو يلقي شعره في جمعية الاعتصام بحيفا!

قلت: أحسن الإلقاء هو؟

قال: نعم.. إنه يجعل السامعين في ثورة.. وما أكثر ما يقولون له أثناء إنشاده: أعد.. أعد

قلت: أله شعر منشور؟

قال: نعم له ديوان الأصائل والأسحار.

قلت: إن في اسم الديوان ما ينبئ عن ميل الشاعر للمناظر الطبيعية.

وتمر من شوارع القاهرة وميادينها الفساح فرقة الكشاف العربي من مدينة حيفا الحبيبة بقيادة رئيس الكشاف العربي السيد عاطف نور الله*.. وكانت الفرقة الموسيقية في المقدمة بأنغامها الحماسية المثيرة مما يؤجج المشاعر في النفوس.. وقد خرج الناس من محلاتهم و مكاتبهم إلى الشوارع العامة وقد اختنقت بهم الميادين والطرقات.. أما أنا فقد جاشت نفسي بالبكاء وانسابت مدامعي غزاراً.. استمرت هذه الصورة منعقدة في مخيلتي وهي لم تبرحها حتى اليوم.

وبعد صلاة العشاء.. وقد كنت في حجرتي في الرواق أراجع وأحضر دروسي.. جاءني زميلي الشيخ أمين ليقول لي: إن حسن البحيري عنده في الرواق.. كان النبأ مثيراً لي ولهجة زميلي أكثر إثارة.. وسرت معه إلى حجرته.. ووجدت اثنين ينتظران وكان التعارف. الشاعر حسن البحيري ورفيقه اللابس حلة الكشاف السيد محمد حجازي*.

وابتدرت قائلاً للسيد حجازي: يبدو أنك من أفراد الفرقة الكشفية؟

فقال: نعم.

قلت: صدفة طيبة.. وتابعت لأقول للشاعر: سمعت عن الأخ الشاعر قبل أن أراه.. كثيراً وكثيراً.

فأجاب: شكراً.. وأنا سعيد بهذا اللقاء. وأردف: أتحب أن تسمع من شعري؟

قلت: حبذا سماع شعرك!

فأنشدنا قصيدة.. ثم نظر إلي يريد أن يعرف أثرها.. ورأيي فيها.

فقلت: قصيدة جيدة. ديباجة ومضموناً.. ولكنني لا أقول رأياً أعتمده إلا بعد قراءتي ممعناً محللاً.

وانصرف الأخوان على وعد اللقاء بهما في دار الشبان المسلمين.. وفي غروب اليوم التالي ذهبنا إلى دار الشبان المسلمين ولقينا جملة من شبابنا وشعرت بالمسرة الفائقة بلقائي هؤلاء الأشبال.. وقد كان ممن لقينا من قادتهم السيد عاطف نور الله والشاعر المحامي برهان الدين العبوشي[1] والشاعر الشاب عبد الفتاح السباعي*.. ودعوتهم لزيارتنا في الرواق.. لكنهم اعتذروا.

وزارنا في اليوم التالي الشاعر البحيري ورفيقه محمد حجازي.. وأخذ في إنشاد شيء من شعره المنشور في ديوان له.. فقال:

---

(١) برهان الدين العبوشي (١٩١١-١٩٩٥): ولد في جنين، التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٣٣، اعتقل عدة مرات على يد الانتداب البريطاني، شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١، شارك في معارك جنين عام ١٩٤٨، عاش في العراق بعد النكبة، له العديد من المؤلفات، توفي في بغداد.

فلسـطين.. إن العلا.. من أس إذا ذكـروك لـهـا.. تـطـرق
ترابـك هـذا الـتراب الطهور وفي روحـه عطـش مـزهـق
سأسـقيه مـن نفثـات اللهيب وفـيـض الدمـاء حيـا يغـدق
لأنـبـت حـريتـي فـي ثـراك وأجـعـل أغصانـهـا تــورق
فتزهـر فيـك غصون السـلام ويـبسـم في ظلـهـا الزنـبـق

وتوقف عن الإنشاد.

وقلت: نسج شعري جميل وعذوبة الأسلوب واضحة.. وحماسة روحك وثابة. أحسنت يا حسن.. ولكن بها بيتاً لا يرضى عنه النحاة.

فقال: وأين هو؟ وماذا به؟

قلت إذا شرطية. وهي تجزم في الشعر دون النثر. والبيت هو فلسطين إن العلا والكلمة تطرق المرفوعة وحقها الجزم حسب القاعدة.

فنظر إلي في دهشة وقال: أنشدتها لعلماء كبار. فلم يعترضوا.

قلت: وقد نصت كتب القواعد بجزم إذا في الشعر خاصة.

واستمع إلي في هذا الشاهد:

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتحمل[١]

فقد عوملت إذا هنا على أنها شرطية جازمة ولو كانت تتحمل مضارعاً لكانت مجزومة.. فتأثر في شيء من الوجوم.

---

(١) بيت من الشعر منسوب إلى عبد القيس الحنظل.

وأسرعت لأقول له: لا عليك فقد وردت نصوص استنتج منها علماؤنا قاعدة تقول: إذا كان فعل الشرط ماضياً والجواب مضارعاً يجوز في الجواب أن تجزمه.. وألا تجزمه.

واسمع قول شوقي:

إن رأتني تميل عني كأن لم   تك بيني وبينها أشياء

فقد قال تميل. ولم يقل تمل.

فقال: إذن (خيه) لم أخطئ!

قلت: على هذا الرأي لم تخطئ يا (خيه).

وتضاحك الحاضرون من جوابي له بقولي يا خيه.. مشاكلة لقوله (خيه) وهي تصغير أخي بلغة حيفا.

أواه يا حيفا وأخواتها!



حسن البحيري

(٢)

في سنة ١٩٤٨ إثر النكبة.. والتي تـمخضت عـن سقوط أكثر فلسطين بحكم التآمر الغربي والتخاذل العربي الإسلامي.. في هذه السنة كان الناس في وجوم وذهول. وكنت قد تركت مدينة الرملة لأقيم مع والدي في سلواد. وكانت الأنباء عن الرحيل والهجرة والشهداء والمفقودين حديث الناس. وفجأة وإذا بأخي حسن البحيري في سلواد يسأل عني.. ومعه ثلة من أصدقائه من شباب سلواد الذين كانوا يعرفونه في حيفا..

وكان السلام والترحاب الحزين.. وكانت الأحاديث عن الحاضر الأليم.. وتمزق الأسر الرهيب والمستقبل المجهول.. وسألته أين أهلك يا أخي؟

قال: تركت والدتي وأخي في نابلس عند أقارب لنا.. وأنا جئت لأبحث عن عمل في دار الإذاعة في رام الله.

قلت له: ويسألونك عن مؤهلاتك العلمية. وأنت كما علمت منك لم تتجاوز السادس الابتدائي.

قال مشيراً إلى مجموعة دواوينه الأربعة حينذاك.. أقول لهم: هذه شهاداتي

قلت: لعل وعسى! وأسأل الله لك التوفيق، ومع ذلك منزلنا منزلكم فأحضر

الوالدة والأخ ونعيش على ما تيسير في سلواد. أجابني شاكراً.. وقال: فلأبحث عن عمل.

ذهب إلى مدينة رام الله وكانت الإذاعة الفلسطينية قد نقلت إليها، ذهب آملاً.. وعاد مصدوماً نفسياً.

وأبى بعض أصدقائه من سلواد إلا أن يأخذه لينام في منزله، وأخذت الذكريات تعود إلى ذاكرتي تباعاً.

ذهبت إلى حيفا في عدة مناسبات.. جملة مرات.. وفي أكثرها يأبى حسن إلا أن أكون ضيفه.. ونقضي أكثر وقتنا في قراءة شعره.. ومراجعة فيما كان أنشأ.. وأحاديث وطنية عن بعضهم.. وكان طروباً يحب الموسيقى والغناء.. وكان مأخوذاً مبهوراً بأهل الحماسة من خطباء المساجد وغيرهم. وكان القسام وعبد القادر[١] وغيرهما يؤلفون قطباً أو مركزاً نفسياً تدور عليه أحاديثنا بإعجاب وإكبار.

وكان شعراء فلسطين وما أنتجته قرائحهم مدار بحثنا وشغلنا الأثير لدينا.. وتذاكرنا المشايخ الفضلاء الشيخ نمر الخطيب[٢] والشيخ عبد الرحمن مراد* والشيخ عبد الكريم*.. وعرض علي أمر زيارتهم.. فقلت: إن الوقت في حيفا قليل.. وإني على سفر.

---

(١) عبد القادر الحسيني (١٩٠٧-١٩٤٨): ولد في القدس، التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت، وفصل منها بسبب نشاطه السياسي، ثم التحق بالجامعة الأمريكية في القاهرة، كان مقرباً من نشطاء حركة الإخوان المسلمين في مصر، انضم إلى الحزب العربي الفلسطيني، عين موظفاً في دائرة الأراضي، أحد قادة الثورة الفلسطينية الكبرى، وقائد منظمة الجهاد المقدس في أربعينيات القرن الماضي، استشهد في معركة القسطل.

(٢) انظر ترجمة الخطيب في مقالة محمد نمر الخطيب، ص١٧٧.

كان حسن يسمي منزله الصغير في وادي النسناس (جوسق الإلهام) وكان قد غرس شجرة تين أمام المنزل.. وقد أرخى لها لتطول.. العنان.. وكان يأخذ عنها الأغصان الجانبية.. فلم تنمُ كما ينمو شجر التين عريضة متهدلة الإغصان.. دانية الثمر.. وإنما كانت كالنخلة الباسقة يضرب رأسها نحو العلاء.

وقال حسن: ها هو ذا (كوز تين[1]) تركته لك (خيه) حتى تجيء.

قلت: ألم تدر بعد أن بلدتي تسمى سلواد القطين.. لكثرة تينها! وتسلق حسن على جذع الشجرة بيديه ورجليه ليجني (كوز التين) وإذ نزل نزل ممسكاً بيد جذع الشجرة، وفي اليد الأخرى (كوز التين) وقلت مازحاً: من قال: إن أصل الإنسان قرد فعندنا أحد الأدلة.

وبعد فهذا كتاب يتناول شعر حسن البحيري (مدينة وشاعر حيفا والبحيري) بقلم الأديب الشاعر هارون هاشم رشيد.. وقد حلل الكثير من قصائده رابطاً بينه وبين أحداث البلاد برباط نفسي.. يلقي على شعره وضوحاً وبياناً.. فأحسن الله إليه كما أحسن لشاعر قاسى وعانى وعمل مخلصاً.

وقد كان شاعر حيفا حسن البحيري رحمه الله ـ بكونه شاعراً مرهف الحس ـ يتصور الأحداث قبل وقوعها.. فهذا الطوفان الغريب لا تنقطع روافده وأمتنا ممزقة لاهية. ولا زعامة تصحو والمسئولية العربية والتعاون الإسلامي لا وجود لهما.. والعدو ومن يعاونه من دول الاستعمار في تسلط وعمل دائبين. وهذا كله

---

(١) سلة منسوجة من قش الخيزران، وهي طولية الشكل، ويطلق عليها أيضاً سبتة، وهي لفظة عامة، وأصل الكوز في اللغة أنه: «إناء من فخار أصغر من إبريق له عروة»، انظر: مسعود، جبران، **الرائد معجم لغوي معاصر**، بيروت، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٩٢، ص٦٧٧. وأشير إليه: جبران مسعود، مصدر سابق، ص.

يجعل حسناً مستوفر المشاعر. ثائر النفس غاضباً عاصفاً.. وكأنه المسئول الوحيد في أمة فقدت أسباب توازنها مع الأحداث.

فكان حسن في شعره مباشر الإداء.. كأنه خطيب على منبر يريد تحريك الجماهير التي لم تصْحُ بعد.. ولم تدرك بعد طوالع الكارثة المتوقعة فكان في عجلة من أمره في صياغة شعره الذي كان تعبيراً بالغاً عن آماله وآلامه. وتوفي حسن البحيري الأب في سنة ١٩١٨ وولد حسن البحيري الابن سنة ١٩١٩ وقد تلقاه اليتم والضيق وقسوة الحياة وعجز الأم.. ولؤم زوج أمه.. وضحالة نفسه من المعاني الإنسانية.

وفقدان الناصر والمعين من الأهل والأقارب.. والرياء الاجتماعي الذي يعشش في قلوب أكثر من نلقى.. اصطلحت هذه المعاني والأحداث كلها لتجعل من هذا الصبي الفقير المضطهد الحساس.. شاعراً يحمل آلام أمته.. وينوء بشقائها المرتقب.. فيهدر بشعره من على منابر محافلها الكبيرة.. مثيراً.. باعثاً.. محركاً للعزائم.. مذكياً للآمال.. التي لا تذبل أزاهيرها.

كنت أسمع حسناً يذيع بصوته من دار الإذاعة السورية فآنس بصوته.. وأرتاح لإلقائه.. فأستعيد ذكرى لقاءاتنا في حيفا والقاهرة وسلواد.. إلى أن اختفى سماعي صوته في مطلع الثمانينات.. رحمك الله يا حسن البحيري وطيب الله ثراك وذكراك.. يا من عشت تمثالاً للوطنية والمروءة.. وشبحا للحسرة والشقاء.



المرشد العام الإمام حسن البنا

[حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩): مؤسس جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨، ولد في المحمودية، ظهرت عليه علامات القيادة منذ صغره، تخرج من دار العلوم عام ١٩٢٧، وأصبح مدرساً، ونادى بشمولية الإسلام، نظَّم حملة في مصر وخارجها للتعريف بالقضية الفلسطينية والدفاع عنها منذ عام ١٩٣٦، أرسل المئات من المتطوعين الإخوان للمشاركة في حرب ٤٨، له العديد من المؤلفات، اغتيل عام ١٩٤٩].

هو رجل لقيته. وكان منه حديث.. وكان في حديثه رشاد وضياء. إشراقة إيمانية تزرع الأمل.. وترسم المستقبل.. وتضيء.. وترفع شأن المسلم أمام نفسه.. وتفهمه أن له.. أو يجب أن يكون له أثر بنَّاء في التاريخ.

نعم.. لقيته.. ولي كل الاعتزاز بلقياه وصداقته وإرشاده.

وأي امرئ سبيله. أو غرضه التعلم في المعاهد في مصر وفي فترة الثلاثينات والأربعينات وصدر الخمسينات لم يلق المرشد العام للإخوان المسلمين.. بل للأمة كلها عربية وغير عربية؟

كان معلماً.. ولا كالمعلمين.

وكان مرشداً.. ولا كالمرشدين.

لم تكن له من وراء ذلك رغبة شخصية يريد تحقيقها لنفسه.. وإنما كان معلماً للجيل.. همه أن يعي الجيل ذاته، ودعوته، وسبيل تحقيقها..

وإنما كان مرشداً همه أن يجعل من جيل الشباب كله مرشدين دعاة.. ومعلمين هداة. ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وكان خطيباً مؤثراً يترك أثراً واضحاً في نفوس من يصغون إليه.. كان خطيباً هادئاً ساكناً في طمأنينة لما يلقيه على مستمعيه.. ولم يكن ذا ضجيج أو صراخ... أو صوت تهزه أو تهتز به العواطف في جيشانها أو الانفعالات العاصفة في ثورانها، أو العصبية المتفجرة في توقدها.

كان يلقي على جماعته تعاليم الإسلام وأهدافها ومعانيها التي تتوضح فيها المشكلات المستحدثة، أو القديمة بلهجة المعلم الحريص على إيصال المنشود إلى أذهان سامعيه ليستقر مركزاً في مشاعرهم ونفوسهم. كان تواضعه جماً بالغاً.. لا يوازيه إلا ذكاؤه وإخلاصه.

وفي أول مرة أذهب بها إلى دار الإخوان في العتبة الخضراء. وكنت مع جماعة من الإخوان الأزهريين في رواق الشوام.. وكان يخطب ويعظ.. وقد لمح في الحاضرين وجوهاً جديدة.. وفي نهاية درسه تقدمنا نحوه للسلام عليه. كان باشاً مرحباً مسروراً كان بدء حديثه... أهلاً بالأخ.. ويذكر أحدنا اسمه، وبلده، ومكان تعلمه في مصر ويدعو لكل واحد متمنياً التوفيق والنجاح.

وكان الشيخ جذاباً في حديثه وبشاشته ولطيف مقابلته. ولم تحظ دعوة إسلامية في العالم الإسلامي بعرضه وطوله كما حظيت دعوته.. حقاً إن السر في الإسلام والإيمان به.. ولكن لأسلوب الداعية أثراً في ذلك أيضاً.. كانت في مصر

جـماعات إسلامية متعددة.. كانت جـمعية الشبان الـمسلمين ورئيسها المرحوم عبد الـحميد سعيد[(١)].. وكانت جـمعية الأخوة الإسلامية.. ورئيسها المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام[(٢)].. وكانت جـمعية مكارم الأخلاق الإسلامية.. ورئيسها الـمرحوم الشيخ الـخضر حسين[(٣)].. وكانت جمعية جماعة إحياء السنة.. ومن رؤسائها الشيخ المرحوم أمين الجعبري*.

وربما كانت هناك جمعيات إسلامية أخرى وأنا لا أحيط بها.. ومع ذلك كله لم تحظ أي منها بمثل ما حظيت به جماعة الإخوان سعة وانتشاراً.. ولا ريب أن لأسلوب الداعية أثراً في ذلك.

كنت أنا وبعضٌ من الزملاء في محطة سكة الحديد نودع زميلاً مغادراً وإذ بالشيخ البنا مع جماعة من الإخوان يودعون أيضاً.. ورآنا هناك.. فتقدم هو منا.. وبعد السلام ومصافحة الجميع قال: أمودعون أيضاً؟

قلنا: نعم. ورأى من نودعه في نافذة القطار وخف إليه هو ومن معه ليودعوه وداعاً رقيقاً مشفوعاً بالدعاء.

---

(١) عبد الحميد سعيد (١٨٨٨-١٩٤٠): سياسي مصري، نال الدكتوراة في الحقوق من فرنسا، عمل في وزارة الحربية، انتخب عضواً في مجلس النواب المصري، شارك في حرب البلقان مع الجيش العثماني وأصيب، ترأس جمعية الشبان المسلمين لسنوات، لعب دوراً في دعم صمود الفلسطينيين إبان الانتداب البريطاني عليها.

(٢) انظر ترجمة عزام في مقالة عبد الوهاب عزام، ص٦٠.

(٣) محمد الخضر حسين (١٨٧٦-١٩٥٨): من علماء الأزهر، ولد في تونس، جاور جامع الزيتونة، عمل في القضاء والتدريس في أكثر من بلد عربي وإسلامي، عرف لمعاداته الشديدة للاستعمار، وبمعاركه الفكرية دفاعاً عن الإسلام، تولى مشيخة الأزهر، أسس جمعية الهداية الإسلامية، وشارك في تأسيس عدد من الملتقيات الفكرية.

كنت مرة في دار الإخوان في الحلمية لأستمع لمحاضرات ستلقى.. وكنت مع الشيخ الصديق سيد سابق[١] في حديث.. وإذا بالشيخ يتقدم مرحباً ومسلماً في بشاشته المعهودة مسائلاً عن سير الدراسة وكيف أنا فيه.. فحمدت الله وأجبته بالرضا والتوفيق.. فحمد الله هو أيضاً.

قام شباب يحملون صناديق يجمعون فيها التبرعات. وكنت أحد هؤلاء. وكان زميل معنا من رواق الشوام قد حمل صندوقاً. وشارات ورقية تشبك في صدر المتبرع. وسلمنا الصناديق. ولكن ذلك الزميل لم يسلم صندوقه.. وقد جمع فيه مائة وسبعين قرشاً وألحت على الزميل بتسليمه.. فأبى بحجة حاجته.. وحزنت وغضبت جداً.. وجاءتني النفقة الشهرية من والدي رحمه الله. ومقدارها ديناران. وأخذت الدينارين لأدفع مبلغ الزميل. وعلم الأخ المسئول بجلية الأمر. وأعلم الأستاذ المرشد رحمه الله. فجاء في بشاشته ضاحكاً شاكراً. وقال: مبلغك لك نفقة.. ويبدو أن أخانا ذاك محتاج.. فلا بأس فيما صنع.

كتبت بعض الصحف القاهرية أن عدد المنتسبين لجماعة الأخوان بلغ ستة ملايين[٢].

أنشأ جماعات من الأخوان صناعات خفيفة وجيدة مما كان يستورد من

---

(١) سيد سابق (١٩١٥-٢٠٠٠): أحد علماء الأزهر، صاحب كتاب فقه السنة، التحق بجماعة الإخوان المسلمين، عمل في وزارة الأوقاف، ثمَّ مدرساً في الأزهر، له العديد من المؤلفات في الفقه الإسلامي، درَّس في جامعة أم القرى في مكة.

(٢) تجمع أغلب الدراسات التاريخية التي تناولت تاريخ الجماعة أن أعلى التقديرات لعدد أعضائها في ذلك الوقت هو ٦٠٠ ألف إخواني.

الخارج.. وعلى أثرها أخذ الصحفي الأجنبي المشهور جون كيمشي[١] يكتب وينبه إلى خطر الإخوان على الاقتصاد الأجنبي[٢]!

وقد كانت كتيبة الأخوان في سنة **١٩٤٨** أنشط كتيبة حملت السلاح[٣]. ومع الأسف جرت هناك صدامات مع الحكومات المصرية.. وانتهت إلى مآس محزنة راح فيها ضحايا كثيرون مما يعلمه الجميع.

فمتى تستيقظ الأمة كلها حكومات وشعوباً.. ويجمع الجميع طريق واحد. وهدف واحد؟؟

ورحمك الله يا شيخنا المرشد. الذي لا تزال أصداء صوته يرن إيقاعها في الآذان.

---

(١) جون كيمشي (١٩٠٩-١٩٩٤): صحفي ومؤرخ، يهودي سويسري، غطى بداية حياته الحرب الأهلية الإسبانية، حرر أسبوعية التريبيون ذات التوجهات اليسارية، وعمل مع وكالة رويترز، ركز عمله الصحفي على الصراع العربي الإسرائيلي، ألف عدداً من الكتب عن الهجرة الصهيونية إلى فلسطين وقيام دولة «إسرائيل».

(٢) بدأ الإخوان بتأسيس عدد من المصانع الخفيفة والجمعيات التعاونية القائمة على النظام الإسلامي؛ من حيث الاعتماد على المال المحلي والابتعاد عن الربا، وقد لاقت رواجاً كبيراً، وكان لها مستقبل واعد. للمزيد من المعلومات حول المشاركة الإخوانية في الاقتصاد المصري في أربعينيات القرن الماضي، انظر: الحسيني، إسحاق موسى، **الإخوان المسلمين كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٥٥.

(٣) كان الإخوان قد استعدوا للمشاركة بعدة آلاف من المتطوعين، لكن الحكومة المصرية منعتهم؛ فلم يتمكن سوى المئات منهم من الوصول إلى فلسطين. حول مشاركة الإخوان في حرب عام ١٩٤٨، انظر: الشريف، كامل، **الإخوان المسلمين في حرب فلسطين**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٩٨٧.

ولقد ولد الشيخ الجليل سنة **١٩٠٦** في قرية المحمودية القريبة من الإسكندرية وكان استشهاده غدراً وغيلة سنة **١٩٤٩** أمام مركز دار الشبان المسلمين في القاهرة.. وقبل أن يسلم الروح الطيبة إلى بارئها تلفت إلى المسئولين في الشرطة ذاكراً لون السيارة السوداء البوليسية ورقمها وكان بها رجال ثلاثة ولكن مُنعت النجدات من الوصول إليه. واستمر دمه في النزيف إلى أن أسلم روحه الطاهرة رحمه الله. وأجزل له بما صنع خير الجزاء. مع الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً.



الحاج حسن طهبوب

[حسن طهبوب (١٩٢٧-١٩٩٩): وزير الأوقاف الفلسطيني السابق، ولد حسن طهبوب في مدينة الخليل، عمل موظفاً في دوائر الأوقاف الإسلامية في القدس، شغل منصب رئيس الهيئة الإسلامية العليا، توفي في عمان].

سنة تسع وأربعين المليئة بالمفاجآت كنت في زيارة لفضيلة الشيخ المرحوم حلمي المحتسب في مقر عمله في عمارة المجلس الإسلامي في القدس الشريف. عرفت المرحوم الشيخ منذ أيام الرملة البيضاء إذ كان قاضياً مستشاراً فيها. وإذ دلفت إليه في مكتبه في القدس وجدت شاباً يجلس معه واسم هذا الشاب كما عرفني به الشيخ حلمي، السيد حسن طهبوب. كان السيد دمثاً لطيف العبارة مع أناقة تتبدى في حديثه. واندفعت بيننا الأحاديث عن الأزهر.. وعن أوضاعنا السياسية وعن الآفاق السياسية المجهولة الغد. وفجأة ارتفع صوت السيد حسن في قراءة لقصيدة حافظ إبراهيم:

كنا قلادةَ جيد الدهر فانفرطت   وفي يمين العلا.. كنا رياحينا
كانت منازلنا بالعز مشرقة   لا تشرق الشمس إلا في مغانينا
فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا   شزرا.. وتخدعنا الدنيا وتلهينا
حتى غدونا ولا مال ولا نشب[1]   ولا صديق ولا خل يواسينا

---

(١) أي لم يبق في أيدينا شيء، وورد في لسان العرب: «نشِب الشيءُ في الشيءِ بالكسر نشوباً أي: علق فيه»، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ١/ ٧٥٥.

فقلت له: رحم الله حافظاً.. فقد كان شاعراً ينضح شعره بفجائع الأمة في شرقها أو غربها.

وهنا يرتفع صوت الشيخ المحتسب ليقول لي: إذا كنت شاعراً فالأستاذ حسن يحب الشعر ويحفظه.

قلت: حفظ الشعر ولا سيما جيده حفظ للغة وتذوق لها في جيد ثمراتها.

ومن هنا جاء في المأثور: الشعر ديوان العرب[1].

وأخذ المرحوم الحاج حسن يرتقي في سلم وظائف الأوقاف درجة درجة إلى أن كان مديراً للأوقاف العامة.

كانت مجلة الأوقاف (هدى الإسلام) الشهرية.. وكانت لجنة التحرير تقوم بواجبها تجاه المواضيع والبحوث المقدمة لها انتقاء وتحريراً وتصحيحاً.. وكان الحاج أبو غسان يشارك اللجنة فيما هي بصدده.

---

(١) حديث موقوف على ابن عباس رضِيَ الله عنهما، فيما رواه عنه الطبري أنه قال: «الشعر ديوان العرب، هو أول علم العرب، عليكم شعر الجاهلية وشعر الحجاز» الطبري: أبو جعفر محمد ابن جرير، **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط: بلا، مكان وسنة النشر: بلا، ٢/ ٦٣٧. ورواه البيهقي بسنده عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٢٤]؟ قال ابن عباس: «إذا خفي عليكم شيء من القرآن، فابتغوه من الشعر، فإنه ديوان العرب» البيهقي، أحمد بن الحسين، **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، جدة، مكتبة السوادي، ط١، سنة النشر: بلا، باب ما ذكر في الساق ٢/ ١٨٣. وحسنه ابن حجر فقال: «وأسند البيهقي الأثر المذكور عن ابن عباس بسندين كل منهما حسن» ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، بيروت، دار المعرفة، ط: بلا، ١٣٧٩هـ. ١٣/ ٤٢٨.

وأشهد لقد كان دقيق الحس مستقيم الوزن للمواضيع متفطناً لمواضع الخلل أو الخطأ أسلوباً ولغة وأداء.. مما يدل على صفاء الفطرة لديه.. كان جريئاً في النقاش مفصحاً عن رأيه بغير مواربة أو زوغان.

احتاجت بلدية سلواد إلى إقامة دار جديدة لها ولم تجد أنسب من موقع لإقامة البناء يقع في أرض للأوقاف.. وجاءني رجال البلدية يستوضحون.. فأشرت عليهم بالذهاب إلى دائرة الأوقاف في القدس. واتفقنا على أن أكون معهم.

وشرحنا الأمر لأبي غسان رحمه الله فأجاب: هذه أرض وقفية لا تباع ولا تشترى.. وما يقام فوقها من منشآت يصبح تابعاً لها، فقال الحاج موسى أبو حمدان[1] في لهجة ثائرة: (عال والله بدنا نعمر لغيرنا!) فأجابه أبو غسان: يا رئيس البلدية تريد أن تنهب أرض الأوقاف!؟

وضحك الحاضرون جميعاً.

وقلت بدوري لأبي غسان: وكيف نحل هذه العقدة؟

فأجاب رحمة الله عليه: من أجل الصالح العام يجوز الاستبدال بقطعة أخرى إن لم تكن أفضل منها.. فيجب أن يجتمع لها مزايا وخصائص المبدلة بها.. وبعد التي واللتيا[2] وجدت هذه القطعة.. وإن كان ثمنها مرتفعاً وجاءت إلى سلواد لجنة للكشف والمشاهدة.. وكانت مؤلفة من السادة سماحة المحتسب والفاضلين طهبوب والحسيني.. وقد رأت اللجنة على الطبيعة القطعتين وأقرَّت التملك

---

(١) الحاج موسى أبو حمدان (١٩٠٧-١٩٨٤): ولد في سلواد، وكان أول رئيس لبلديتها لفترتين (١٩٦٤-١٩٦٩) و(١٩٧١-١٩٧٦) عمل في الزراعة.

(٢) عبارة تدل على احتدام النقاش قبل التوصل إلى رأي متفق عليه.

والتمليك وكان ثمن القطعة المشتراة مرتفعاً مما أثار حفيظة رئيس البلدية.. فأخذ يتسخط ويردد ما يقول في غضب فتبرع الحاج حسن بتهدئة أعصابه قائلاً: أنت لأنك طول الشبر فالمسافة بين قلبك ولسانك قليلة فما عندك عقل يرد غضبك. وكاد يحمله بيديه وتضاحك الجميع.

وبعد إتمام الصفقة.. علق الحاج موسى قائلاً: اللجنة لجنة خير وإصلاح (وأشهد: زنبركها أبو غسان).

وكلفني الأخ الفاضل الحاج هاشم عشاير[١] أن أكون خطيباً من خطباء المسجد الأقصى المبارك[٢].. وبدأت الخطابة فيه ولقيت ارتياحاً وتشجيعاً من الكثيرين ولا سيما دارسي العربية ومحبيها.. وفي ذلك الجو التقيت أبا غسان رحمه الله.

فأخذ يهنئني ويشجعني وقال: ليتك كنت خطيباً في الأقصى منذ ثلاثين سنة.

فأجبته: أستغفر الله. هذا من لطفكم وأدبكم يا أبا غسان هذه عين الرضى.

وعين الرضى عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا[٣]

---

(١) هاشم عشاير: (١٩٤٥-٢٠٠٦) ولد في سفارين، درس الهندسة الميكانيكية في العراق والباكستان، وأصبح مديراً للمدرسة الصناعية في نابلس، ومديراً لدار الأيتام الإسلامية الصناعية في القدس، ومديراً لأوقاف القدس من منتصف الثمانينات حتى منتصف تسعينيات القرن الماضي.

(٢) كُلف الشيخ فتح الله بالخطابة في المسجد الأقصى عام ١٩٨٨.

(٣) بيت من الشعر للإمام الشافعي.

وقال أبو غسان: الخطابة التي تروق ما تضمنت معايشنا ومشاكلنا ليكن الحدث ماضياً.. ولكن نجعل في خلاله أوضاعنا التي نقاسي منها أو نرغب في تحقيقها. أما سرد الماضي سرداً موضوعياً فذاك عمل التاريخ.

قلت معلقاً: ألا ترى أن الماضي بظروفه وبواعثه يكون أو ربما يكون مشابهاً للحاضر بظروفه وبواعثه؟

قال: نعم ولكن لا بد من براعة في الأداء الخطابي بحيث يبدو علاجاً اجتماعيا شافياً أو كافياً.

قلت: أوافق.

وجاءت السلطة الفلسطينية أيد الله خطواتها فاختارته وزيراً للأوقاف وكان اختياراً موفقاً.

لقد كان أبو غسان رحمه الله سديد الرأي موضوعي الاتجاه.. لا يماري هوى ولا يميل مع الريح حيث تميل.. كان يجابه المخطئ بخطئه.. ولكن في ذوق وجميل تصرف.. رحمه الله وأسكنه رحيب جنانه مع الصالحين الأبرار.



روحي الخطيب

[روحي الخطيب (١٩١٤-١٩٩٤): رئيس بلدية القدس السابق وأمينها، ولد في القدس، تعلم في جامعتي إكسفورد وكامبردج، عمل في عدة وظائف في سلطة الانتداب البريطاني، انتقل بعد النكبة للعمل في مجال الاقتصاد والترميم المعماري في القدس].

سنة ١٩٥٤ التقيتهما صدفة في باب العامود.. وهو على شكله القديم.. ساحة واسعة لم تقسم أدراجاً متعددة ما بين مشرقه ومغربه ومنها السوي السمت.. ومنها المتعرجة المنحنية.

نعم.. التقيتهما معاً ووقفاً أمامي.. أما أحدهما فهو الأستاذ المربي المرحوم ربحي العارف[1] مدير مدرسة سلواد الأسبق، والصديق الودود والذي أكن له احتراماً كبيراً لشخصه وعلمه ووفائه.

وأما ثانيهما.. فقد كنت رأيته ولم يسعدني الحظ بمعرفته.. وظهر هذا في تلاقينا المفاجئ.

ومن هنا.. اندفع أستاذي مدير مدرسة سلواد الأسبق ليقول والعبارة للأستاذ رحمه الله: أنتما لفلسطين رائدان أصيلان. أنت رائد في الأدب والوعي

(١) انظر ترجمة العارف في مقالة ربحي العارف ص٢٥٤.

والتوجيه. والأستاذ روحي الخطيب رائد اقتصادي كبير ومفكر عمراني ملهم.. فهو صاحب المشاريع الناجحة في الحاضر وعلى المدى البعيد.

قلت فوراً: هذا لطف جم من أستاذي وشتان بين الحقيقة والخيال.. وما أبعد الفرق بين الواقع الـملموس وصور الأحلام. وتواعَدنا لنلتقي.. وأخذت أتذكر ما يقوله زملائي المعلمون في الرشيدية والعمرية عن روحي الخطيب.

حقاً إن الرجل بمشاريعه الجريئة الكبار.. هذه المشاريع التي تهب البلد العمران والرخاء والازدهار أسطورة مثيرة.. وبدع من الرجال. فلسطين ولا سيما القدس بلد سياحي ومقصود بالزيارة والاعتمار إليه من الديانات السماوية الثلاث.. ثم هو قبلة المؤرخين يستطلعون مكنونه وظاهره.. وخفيه وسافره فإنشاء شركة للفنادق فيه شيء مثمر، وشركة الكهرباء البريطانية لماذا لا تعرب وتحول شركة كهرباء عربية!؟ والمياه ضرورية ومصادرها موفورة، وإذا بذلنا جهداً منظماً منتجاً استغللناها.

والقدس قلب المقدسات فيها.. فلماذا لا نوجد وعياً ثقافياً بإنشاء مكاتب للدارسين والمراجعين؟ ولماذا لا تكون أرضها المباركة المقدسة محافل للمؤتمرات دينية وقومية وثقافية بشتى فنون المعرفة؟

هذا وغيره ما كان يشغل فكر المرحوم روحي الخطيب.. وهذا ما استمعته منه ونحن جالسون في حديقة منزل أبي زياد رحمه الله.. وقلت معقباً على كلام الأستاذ الخطيب: يا أستاذنا وفقك الله وأخذ بيديك لقد أخذنا نرى زوار القدس في مسجدها الأقصى المبارك.. وفي قاعة المحاضرات الزهراء في المدرسة العمرية.

فهذا الأديب الـمفكر سيد قطب يحاضر في قاعة المدرسة العمرية. وكذا

يحاضر فيها ذلك الشيخ المسلم زعيم فدائيان إسلام نواب صفوي فسح الله لهما في جنته وتقبلهما مع الصديقين والشهداء.

وهذا الشيخ الداعية كامل الشريف[١] بلهجته المصرية التي تفيض حماسة وأملاً، وهذا الخطيب الآسر الشيخ أحمد الشرباصي[٢] صديقي وزميلي في كلية اللغة العربية.. إلى دعاة إسلاميين غُيُر من باكستان وإيران وأندونيسيا والعراق والسعودية واليمن والشقيقة سوريا ولبنان.

نعم لقد فكر الأستاذ المصلح روحي الخطيب وأثمر وعياً وروحاً إسلامياً شاملا. نعم كانت أقوال هؤلاء الدعاة والمفكرين أقوالاً لم تقرن من دولنا بالعمل. ولا لوم على هؤلاء الدعاة.. إنما اللوم على من يملكون المسئولية والتنفيذ.

ووأسفاه.. لقد أعدم بعض هؤلاء المفكرين والموجهين.

كان المرحوم روحي الخطيب محبوباً مقدراً من أبناء الوطن جميعهم.. ومن هنا كان يختار مع أعضاء بلدية القدس في كل انتخاب يجري.. ثم يختار بعد ذلك رئيساً للبلدية.

وتقديراً من الحكومة الأردنية لمكانة القدس الرفيعة.. جعلت القدس عاصمة الأردن الروحية.. ولقب رئيس بلديتها بأمين القدس.

---

(١) كامل الشريف (١٩٢٦-٢٠٠٨): وزير الأوقاف الأردني السابق، ولد في مصر، انضم لجماعة الإخوان المسلمين وكان أحد أبرز قادة الكتائب التابعة لها في حرب عام ١٩٤٨، درس في الجامعة المصرية وفي جامعة جنيف، عضو مجلس الأعيان الأردني، وعضو الهيئة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي، شغل منصب رئيس إدارة صحيفة الدستور الأردنية.

(٢) انظر ترجمة الشرباصي في مقالة أحمد الشرباصي ص٣١.

وكان حقاً أهلاً لهذا اللقب إحساساً ووعياً وعملاً.

وقد وجد فيه الاحتلال سداً أمام أطماعه ورغباته.. فأبعده إلى عمان.. وكان في عمان محل تقدير ورضاً وحفاوة.. من الجميع.

ورجع رحمه الله إلى القدس وقد أنهك جسمه الهزال والإعياء.. فانكمش ذلك العملاق بين أبراره.

وكم كان رائعاً حافزاً على احترامه وتقديره استمساكه بلباس الرأس العربي.. فالكوفية والعقال يظهر بهما في كل مناسبة رسمية أو تلفازية.. وهو بذلك يقول للملأ: نحن عرب وسنبقى عرباً في قدسنا العربية المسلمة.

رحم الله ابن فلسطين البار رحمة واسعة مع الصديقين الأخيار والشهداء الأبرار.

قد عشت في دهرنا المنكوب يا رجلُ حراً تكامل فيك العقل والعمل
يا عبقري فلسطين.. وقد لقيت فيك الرجولة مأوى فيه تكتمل



عارف العارف

[عـارف العارف (١٨٩٢-١٩٧٣): سياسي ومؤرخ فلسطيني، ولد في القدس، أنهى دراسته الجامعية في إسطنبول عام ١٩١٤، عمل في وزارة الخارجية في ديوان الترجمة في إسطنبول، اشترك في الحرب العثمانية ضد الروس في القفقاز، وأسر هناك لمدة ٣ سنوات، عمل إبان الانتداب قائمقام في إكثر من مدينة فلسطينية، ألف العديد من الكتب عن فلسطين وتاريخها].

هذا رجل يجمع بين السياسة والإدارة والتأريخ. وهو أبرز ما يكون مؤرخاً دقيقاً في تسجيل الأحداث وملابساتها. وفيما يتعلق بوطنه فلسطين. ولا سيما القدس الشريف وكتابته عن البدو وعاداتهم، وفضائلهم، وأحوالهم الاجتماعية، ولا سيما الزواج من أكثر ما علق في أذهان الناس حتى الآن.

والناس مع أبي سفيان رحمه الله فريقان، مادح له ومثن عليه بما هو أهله. فيما كتب عن فلسطين تاريخاً وتحقيقاً وسجل شهداء. وهناك فريق آخر وأعتقد أنه أضمحلت دعواه، وخفت صوتها، تلك الدعوى القائلة: إن كتاباته عن البدو في أحوالهم جُعلت كتابة عن عرب فلسطين بعامة.. مما أتاح لأعداء العرب حجة على تخلفهم.. وبطبيعة الحال هذا كان في فترة. وانتهت.

في آخر الخمسينات كتبتُ كلمة عن منبر نور الدين أو صلاح الدين رحمهما الله.

وكانت الكلمة أشبه بحديث نفسي عن أماني البطلين المسلمين. أو هي شعر مهموس يعرض الطموحات والآمال. مما عساه يدور في أخلاد من يهزجون شعراً للتحرر من القيود المطبقة على سواعد أمتنا.. وكنت أكتب إذ ذاك الحين في جريدة الجهاد. وبعد ثلاثة أيام طلعت الجهاد وقد نشرت في صفحتها الأولى كلمة تعقيب على ما كتبت. بقلم المؤرخ عارف العارف. وفحواها إنها تنتقدني بالقصور فيما كتبت عن المنبر المرتبط بالفتح الصلاحي. فأنا لم أذكر من أي الأخشاب هو.. ومن الصناع المهرة الذين قاموا بتصنيعه.. وفي أي البلاد صنع.. وكيف صنع؟ واستغربت من المؤرخ الكبير رحمه الله هذا الاتجاه. فحديثي كان أشبه بقصيدة شعرية تتحدث عن الأماني النفسية والآمال في المستقبل المنشود. فأنا في ذلك الموقف شاعر لا مؤرخ. وترددت في الرد احتراماً لأبي سفيان. تشاورت في شأن الرد مع المرحوم سليم الشريف[1]. فأجابني: الأمر راجع إليك.. أنت وما ترى. وفي اليوم الخامس من نشر كلمتي. وإذا بمقالة ضافية تدافع عن وجهه نظري بقلم المرحوم المبرور الشيخ عبد الله القلقيلي[2]. وكان إذ ذاك مفتياً للأردن.. ورأيت في ذلك إجابة كافية..

كنت ذات يوم في منزل أبي سفيان في البيرة.. وكان يقرأ موضوعاً يريد نشره. كان بتواضعه الجم وخلقه الكريم مثالاً رائعاً شأن العلماء البارزين. ثم تنقل بنا القول في أودية متعددة، ومجالات مختلفة. وأخذت أسائله عن أمانيه. وأخذ يوضح ويجيب. فهذا الأستاذ الكبير خريج جامعة إستنمبول. ويكون ضابط احتياط في حرب الدولة العثمانية مع الحلفاء الغربيين سنة ١٩١٤.. ويقع

---

(١) سليم الشريف: صحفي فلسطيني مشهور، أسس مع آخرين صحيفة الجهاد، ثم صحيفة القدس.

(٢) انظر ترجمة القلقيلي في مقالة عبد الله القلقيلي، ص١٥٥.

أسيراً في أيدي الروس في معركة معهم في أرضروم. ويقضي سنوات في روسيا وسيبيريا. وعاد إلى القدس. وشارك في إصدار جريدة سوريا الجنوبية ١٩١٩. واعتقله الإنكليز، ثم شرد إلى دمشق، وسمح الانتداب له بالبقاء في القدس بشرط ألا يشارك في السياسة.. وأخذ يقوم بوظائف إدارية واجتماعية.

قال فيما قال: هذه الأرض الشاسعة سيبريا سكانها أميل لاعتناق الدين الإسلامي.. لولا ما كان يبثه المبشرون من أنه لا إسلام بغير ختان. ونجح المبشرون في صدهم عنه من هذا الباب.

وقلت لأبي سفيان: والآن بم يفكر أستاذنا وماذا لديه من المشاريع؟ قال: أهم أمنية أتمناها وحدة المسلمين عرباً وغير عرب، هذه واحدة، والثانية أن يعينني الله على إكمال كتاب تاريخ النكبة وأسبابها.. وأن أكمل كتاب سجل الخلود.. وهو كتاب يتحدث بإيجاز عمن استشهد من أهلنا مع صورة لكل شهيد توضع في هذا الكتاب[1].

قلت: سيكون هذا الكتاب برسومه وبعض التوضيح ملحمة أدبية تاريخية جميلة.

قال: أسأل الله العون على إتمامه.. ثم تابع قوله: هل لديك صور لشهداء سلواد مضيفاً بعض المعلومات معها؟

أجبته: سأفعل إن شاء الله.

وقال أبو سفيان رحمه الله: هل تجمع شعرك وبالتالي هل هيأته للطباعة؟

---

(١) صدر كتاب «النكبة نكبة فلسطين والفردوس المفقود» في سبعة مجلدات ما بين ١٩٥٦-١٩٦١، ثم صدرت الطبعة الثانية في ثلاثة مجلدات عام ٢٠١٢.

وهـنا تذكرت أن هـذا السؤال وجه إلي كثيراً من الـمعارف والأصدقاء. وقلت لأبي سفيان مع الأسف: لا.. وهنا يستفسر في دهشة قائلاً: ولماذا؟ أجبته: مسئوليتي كبيرة ولا أكاد أجد قسمة من الوقت تسمح لي بالجمع والإعداد.

فقال رحمه الله: لو شغلت منصب وزير للتربية والتعليم لمنحتك إجازة تفرغ لإنجاز أعمالك مع بقاء راتبك مضاعفاً.

قلت: يا أستاذنا الكريم بارك لك وفيك، وحقق لك ما تتمنى، وأنا يكفيني منك هذه المشاعر الطيبة وقولك هذا له عندي وزن كبير والكلمة تأخذ قدرها من قدر صاحبها.

وانصرفت مـن منزل أبي سفيان شاكراً لـه مشاعره.. ترن في أذني كلمـاته يسعدني أن تشرفني في بيت أخيك الصغير كلما سنحت لك فرصة.

كنت قافلاً من دار الإذاعة الأردنية برام الله إلى منزلي في البيرة. فلاحظت أن سيارة تقف قريباً من رصيف الشارع وإذا بأبي سفيان يدلف منها ليقف أمامي مسلماً، وتبادلنا التحية، وقال أكون ممتناً لك لو شرفت منزل أخيك الصغير لنقرأ معا مقدمة كتاب تاريخ القدس المفصل!

أجبته: لي الشرف أن أزور منزل أستاذنا الكبير والمؤرخ الجليل أبو سفيان، وقرأنا معاً المقدمة.. وقال أثناء تناولنا الشاي: هذه القدس مهد الأديان ودرة المدائن.. كل شيء يقِل بجانب عظمتها الدينية والتاريخية والحضارية.. هذه القدس قدس أجدادنا اليبوسيين والكنعانيين والغساسنة.. وكلهم عرب أصلاء.. وارتفع ميزان الحماسة عند أبي سفيان إذ أخذ يقول: هذه القدس قدس عمر بن الخطاب وصلاح الدين. هذه القدس المنطبعة في سويداء كل مسلم وعربي في الكون. إنها والله لعزيزة علينا. وتستأهل الفداء بزواكي الدماء.

قلت: يا أستاذنا لا تنسى أبداً أن معتقدنا الإسلامي والتاريـخي ينص على أن صخرتنا المقدسة هي قبلة الإسلام الأولى، شأنها هو شأن الكعبة ولا إسلام في الوجود إذا مست بسوء، هي أو أرضها وكل أرض بيت المقدس.. ثم تشرف بيت المقدس جميعه بإسراء الرسول ﷺ إلى أرضه على البراق الشريف.. ثم كان العروج من أرضها إلى سدرة المنتهى حيث فرضت الصلاة بكيفيتها لرب العرش العظيم. ولا يكون المسلم مسلماً إلا بهذا المعتقد الذي تتأصل جذوره في دقيق المشاعر الإسلامية، ومرهفات الأحاسيس التاريخية.

فقال رحـمه الله منفعلاً: إنها قدس التاريخ قدس الأديان قدس الحقيقة والقرآن المجيد.

قلت: وإن اسمها القدس الذي يرادف القداسة، دليل على مدى مكانتها في نفوسنا.

وانصرفت من منزل هذا الأستاذ الكبير الذي لم ينصفه معاصروه.. ولكن ستقدره وتنزله مكانته الأجيال.. وكتبه المتعددة شواهد لا ارتياب معها.



محمد علي الطاهر

[محمد علي الطاهر (١٨٩٦-١٩٧٤): سياسي وصحفي فلسطيني، ولد في نابلس، عاش في مصر، أصدر جريدة الشورى عام ١٩٢٤، سجن في معتقل هاكستب في مصر، له عدة مؤلفات].

في سنة ١٩٣٩ كنت في زيارة لمعدن الفضل وغرة العلماء شيخنا الفاضل الشيخ عيسى منون[١] في منزله في حي شبرا في القاهرة.

كان الوقت ضحوة. والجو ربيعياً.. وأثار انتباهي رجل يلبس الحلة الإفرنجية متربعاً على مقعد دثير[٢] بطربوشه الطويل.

وابتدرني ليقول في ابتسامة واضحة: مرحباً بسلواد القطين!

وأجبته في شيء من الإثارة: أليس في سلواد إلا القطين؟

فقال: وهل القطين عند الناس شيء قليل؟

وقاطع شيخنا الحديث ليعرفني بهذا الأفندي الرافع للكلفة بغير استئذان فقال: الأستاذ الصحافي المجاهد محمد علي الطاهر من بلدنا فلسطين. وسررت

(١) انظر ترجمة منون في مقالة عيسى منون ص١٦٨.

(٢) أي قديم مندرس، وأصلها من دثر، وورد في لسان العرب: «دثر الشيء يدثر دثوراً واندثر قدم ودرس»، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ٤/ ٢٧٦.

لهذا المقابلة المفاجئة على غير وعد. وكنت من زمن طويل أتوق لرؤية صاحب جريدة الشورى التي تصدر في القاهرة.. وجل أحاديثها عن فلسطين. فأجبته: ومرحباً ومرحباً بصاحب الشورى مصباح الحق المضيء.

فقال: أتقرأها؟

قلت: نعم.

قال: وأنا قرأت لك شعراً حماسياً أعجبني.. وفيه مخايل تبشر بخير.

قلت: هذا منكم تشجيع لناشئ في أولى خطواته.

وتوالت الأيام.. وتوالى اللقاء في منزل شيخنا الكريم.

قال الطاهر: أعاهد الله ألا أعود لبلدي إلا بعد تحررها من نير الانتداب.

قلت: ألا يرى أستاذنا الفاضل أنه أكثر فائدة لأهل بلده فلسطين وهو بين ظهرانيهم؟

قال: وهنا أفيد بلدي بحرية وانطلاق لا ألقاهما في ظلال الانتداب وقيود الاعتقال.

قلت: أكثر الله من أمثالك يا شيخ الوطنية والإباء، واستدركت لأطرح هذا السؤال: وما هذا الذي نشرته الأهرام وفندته الشورى عن الطالب الفلسطيني في الجامعة الأمريكية في القاهرة عبد القادر موسى الحسيني؟

قال: أكاذيب التبشير والاستعمار.. والاستعمار والتبشير توءمان.. ولقد نشرت الموضوع كاملاً في الشورى.

وكانت الأهرام قد نشرت عن الـجامعة الأمريكية في القاهرة: هي واحة علمية وقد جاءها من فلسطين طلاب مجدون وفي مقدمتهم الطالب المهذب عبد القادر الـحسيني ابن زعيم العرب في فلسطين موسى كاظم الـحسيني وهو على جانب كبير من النشاط والأدب.

ثـم تـعود الأهرام لتنشر تـحت عنوان حادث مـؤسف: أصيب الطالب الفلسطيني عبد القادر الحسيني باضطراب نفسي، في حين كان معداً لإلقاء كلمة التخرج بالنيابة عن المتخرجين يشكر فيها الجامعة وجهود المحاضرين الفضلاء. على ما يبذلون من جهد. ولكنه مزق شهادته وأساء إلى الجامعة قائلاً: إن في الخزانة رقم كذا كتاباً رقمه كذا تأليف أحد أقطاب الجامعة يخطط لتشكيك المسلمين وإخارجهم من دينهم. تمهيداً لاعتناق غيره. وإن هناك كتاباً يشجع الاستهتار والخروج عن آداب الإسلام تمهيداً لارتكاب المنكرات.. وهكذا سلسل رحمة الله عليه كتباً أخرى لأهداف ضررها واضح.

هذا فحوى ما كتبته جريدة الشورى.. وما قاله لي منشئها محمد علي الطاهر رحمه الله. ثم قال أبو الحسن متفكهاً: أنتم حرامية يا أهل سلواد. وما كذب من سمى عيون الماء بالوادي عيون الحرامية.

قلت: هي تسمية والله يعلم الحقائق.

قال أبو الحسن: الحق بلدكم وكل بلادنا أهل شهامة ونجدة.

قلت: هذه شهادة طيبة وأحب أن أسمعها من أستاذنا الطاهر.

قال: حيثما خرجنا مع قافلة مسافرة إلى مصر وكان ذلك سنة ١٩٠٨ عرجنا على سلـود القطين.. وقضينا ليلتنا في بيت غربي البلد كان مشيداً من حجارة.

ويدخله الداخل ويصعد على درجات عالية. وأكرمنا رب المنزل وحيانا. حياه الله.

قلت: هذا الوصف ينطبق على بيت جدي محمد عواد*.

قال: ربما.

حينما اشتعلت الحرب العالمية الأولى كان الشعب المصري حانقاً على الإنكليز وأخذ كثير من الشباب يحرضون ويعملون ضدهم.. وكان ضمن هؤلاء شباب فلسطينيون وسوريون وغيرهم. فاعتقل وضيق عليه حتى انتهت الحرب العالمية ثم آثر أن يظل في مصر مقيماً.. وهو لا يفتر عن العمل لصالح أمته.. وقد جمع ما كتبه من مقالات في كتاب سماه: «نظرات الشورى في شئون المسلمين».. ومعلوم أن الطاهر رحمه الله من مواليد نابلس وفيها نشأ.. وقد ولد سنة ١٨٩٤ وتوفي رحمه الله سنة ١٩٧٤م وكان يداعبه أصحابه بهذا البيت:

الطاهر يخرب مملكة   إن مس الناس له زاداً



محمود أبو الزلف

[محمود أبو الزلف (١٩٢٤-٢٠٠٥): صحفي فلسطيني مشهور، ولد في يافا، درس الصحافة في الجامعة الأمريكية في بيروت، عمل في صحيفة الدفاع، أسس مع آخرين صحيفة الجهاد، ثم صحيفة القدس، حيث أصبح مالكا ورئيسا لتحريرها حتى وفاته].

في سنة ١٩٤٩ والنفوس مكتئبة.. والمشاعر مجروحة.. والكرامة العربية مهدورة.. اندفعت نفسي تمور فيها الأحزان.. وتصارع الآمال المهيضة[1] اليأس الشامل المتنزي[2] بالجراح.. كالليل المظلوم المشحون بآهات المشردين.. تحت سياط الظلم المتغطرس لتتمخض عن قصيدة.

حملت القصيدة المستوحاة من أحوالنا تلك.. وقدمتها للأخ الفاضل صادق الشنطي[3] المسئول عن صحيفة الدفاع.

---

(١) أي: المنكسرة، ورد في لسان العرب: «هاض العظمَ يهيضه هيضا فانهاض: كسره بعد الجبور أو بعدما كاد ينجبر»، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ٧/ ٢٤٩.

(٢) أي الواثب على الشخص بالجراح، ورد في لسان العرب: «يقال: نزوتُ على الشيء أنزو نزوًا إذا وثبْتُ عليه»، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ١٥/ ٣١٩.

(٣) صادق الشنطي: صحفي فلسطيني، ولد في قلقيلية، أسس مع آخرين جريدة الجهاد، نشط في نقابة الصحفيين الأردنيين.

وأخذ القصيدة الأستاذ صادق واستمزج فيها رأي موظف شاب لم يتجاوز العشرين إلا قليلاً. وأخذ الشاب القصيدة وقرأها بإمعان.. وقال: قصيدة جيدة.. ولكنها تذكر بالأجواء النفسية لأبي القاسم الشابي[(١)]. وقلت: أوافق.. ولكن أجواءنا الحزينة أعمق وأكلح من أجواء أبي القاسم النفسية.. وغير بدع أن تتلاقى خواطر الحزانى.

وتكررت اللقاءات.. وصارت معرفتنا أقرب إلى الصداقة.. وكنت مع أخي المرحوم يوسف النجار[(٢)].. وإذا بالأخوة الثلاثة أبي الزلف وسليم الشريف[(٣)] ومحمود يعيش[(٤)].. وانبرى سليم ليقول: الشيخ البورجوازي يحب أمثاله البورجوازيين.. فيكتب في صحفهم!

وقلت: ما هذه المفاجأة؟ وهل أنا على شيء من الترف والثراء!؟

وقال أبو الزلف: نحن يا شيخنا نحب أن تكون من أسرتنا في جريدتنا الجهاد. وقال يوسف: هؤلاء فتية آمنوا بربهم.. ونسأل الله أن يزيدهم هدى. وقلت: الأمر رهين بإرادة الله.

---

(١) أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم الشابي (١٩٠٦-١٩٣٤م): شاعر تونسي مشهور، قرأ العربية في المعهد الزيتوني في تونس، وتخرج بمدرسة الحقوق التونسية، وعلت شهرته. ومات شاباً، له ديوان شعر وغيره.

(٢) انظر ترجمة النجار في مقالة يوسف النجار، ص١٨١.

(٣) سليم الشريف: صحفي فلسطيني، ساهم في تأسيس عدد من الصحف الفلسطينية منها صحيفة الجهاد، اختفى في ظروف غامضة.

(٤) محمود يعيش: صحفي فلسطيني، ولد في نابلس تخرج من كلية النجاح الوطنية، أصدر مع آخرين جريدتي الدفاع والجهاد قبل عام ١٩٤٨، كما أصدر جريدة الشعب في سبعينيات القرن الماضي.

وبدأت العمل في جريدة الجهاد.. ومع احترامي للجميع كان أبو الزلف في دماثته ولطفه أقرب من يعملون في تلك الجريدة.. إلى قلوب من يتعاملون معهم.

طلب مني ذات يوم الأستاذ سليم أن أبقى في دائرة الجريدة.. لأكتب عن خطاب سيلقيه رئيس الوزاء في الستينات.. وجربت الاعتذار لبعد بلدتي ولأن الخطاب سيكون بعد العصر.. ولأن الوقت رمضان.. فرفض أبو سامي رحمه الله قبول اعتذاري.. وأصر على بقائي للكتابة عن خطاب سيلقيه رئيس الوزراء وجاء وقت الإفطار.. وأفطرت على كأس من الماء. وافترشت جريدة لأصلي المغرب. وبعد نهاية الصلاة.. جاءني موظف ودعاني إلى غرفة معينة.. وإذا بمائدة تميد بما عليها من أوفار الطعام.

وسألت الموظف ممن هذا؟ فقال من الأستاذ محمود أبي مروان.. وبعد الإفطار وإذا بسيارة أعدت لأمتطيها إلى سلواد.

نعم.. هكذا هو أبو الزلف يحترم ويقدر من يعملون معه.

استدعاني مرة ليقول لي: يا أستاذ.. الناس راضون عما تكتب.

قلت: إنما أكتب من الناس وللناس.

وقال متمماً حديثه: الأستاذ الكاتب والمفكر المتعمق أنور الخطيب[1] راض جداً عما تكتب (رحم الله أستاذنا أبا هاشم رحمة واسعة وطيب الله ثراه).

قلت: لا يعرف الفضل من الناس إلا ذووه.

---

(١) انظر الخطيب في مقالة أنور الخطيب، ص١٩٧.

وقال: والكاتب الكبير يوسف حنا[1] راض عما تكتب لولا أنك تغرب في الأساليب.

وأجبت: الأستاذ يوسف حنا أديب كبير وأعجب لقوله إنني أغرب في الأساليب!

وهنا تدخل يوسف النجار ليقول: لا تعجب ولا تغضب.. إنها المنافسة بين أبناء الحرفة الواحدة.

والأستاذ أبو الزلف أو أبو مروان مفطور على الدقة في الأخبار أخذاً وعطاء.. موهوب في إيجاد لحمة التناسق في التبويب والترتيب.. ووضع الشيء موضعه اللائق.. فما من صحيفة تنشأ إلا ويحاول المشرفون عليها أن يحذوا حذوه.. وأن يسيروا على نسقه.. وسواء كان ذلك في أي من صحيفتيه الجهاد.. أو القدس.. وضع أحد المحررين أو الطابعين خاطرة شعرية لي وسط الصفحة في غمار مواد أخرى.. ونادى أبو مروان المسئول عن ذلك وكلمه بما يناسب.. وقال له: هذه الخاطرة ضعها في الصفحة كذا رأس عمود.. وفي إطار يضفي عليها جمالاً وحسن ترتيب. وهكذا عمله مع كل مادة يراد نشرها.

وإذا أراد بعضهم إخفاء مادة أو تشويهها.. أو تأخيرها عن وقتها المناسب

---

(١) يوسف حنا (١٨٨٩-١٩٧٦): ولد في طنطا في مصر، عمل مترجماً للجيش البريطاني في فلسطين، ثمَّ رئيساً للكتاب في دائرة حاكم غزة، تفرغ للكتابة الصحفية منذ ١٩٢٩، وتولى رئاسة تحرير جريدة فلسطين ما بين ١٩٣٢-١٩٤٨، سكن الأردن بعد النكبة، وبقي يعمل في الصحافة، له العديد من المؤلفات في الأدب والشعر. توفي في عمان.

قابله بحزم وعزم لا يلينان حتى يبعد العبث والعيث[1] عن مؤسسة يشرف عليها. ولا يسمح لمن تسول له نفسه أن يجعل لهواه سلطاناً أو نفوذاً بحيث يضر غيره.. أن يكون لهواه ذلك النفوذ أو السلطان.. وهكذا أوتي الحزم من أطرافه.

كانت الصحافة المصرية.. في فترة وجودي في الأزهر تلقب السيد داود بركات[2] بلقب شيخ الصحافة.. وما أجدر أن يضفي هذا اللقب في بلدنا الأردن على أبي الزلف.. فهو شيخ صحافتنا في الضفتين بلا نزاع.

كانت تمر على عملي في جريدة القدس فترات اتصال أو انقطاع.. وجاءني أحدهم متوسماً أن أتشفع له عند أبي مروان ليجد عملاً في إحدى المؤسسات.

وترددت قبل الإقدام.. لقد كنت في فترة من فترات الانقطاع عن العمل في جريدة القدس.. وأدركت حاجة ذلك الرجل المتشفع وأمله بي.. وذهبت إلى أبي مروان.. وعرضت عليه الأمر.. وهنا عمد إلى المسرة أو الهاتف.. فهاتف المسئول عن المؤسسة أو من له به أمل.. وعليها نفوذ.. وسرعان ما تم لنا ما نريد.

وهكذا تكون الأريحية وصدق التعامل مع الناس على السواء.. وكنت وقد يجمح بي القلم.. أو يغرب الخاطر.. فأكتب ما لا يرضى عنه المسئولون فيستدعي أبو مروان ليسأل عن تلك المادة أو من كتبها.. فيصر على أنها من مسئوليته وحده.. ولا يسأل في ذلك سواه نعم.. هكذا هو أبو مروان في نظر من ينصفون.

---

(١) أي: والفساد، ورد في لسان العرب: «وأصل العيث الفساد»، انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ٢/ ١٧٠.

(٢) داود بركات (١٨٦٧-١٩٣٣): كاتب وصحفي من أصل لبناني، بدأ عمله الصحفي كاتباً في صحيفة المحروسة، واشترك في إصدار جريدة الأخبار، أصبح رئيس تحرير صحيفة الأهرام عام ١٩٠١، له العديد من المؤلفات.

المجموعة الرابعة

أساتذة ومربّون فلسطينيون

الأستاذ إبراهيم أنشاصي*

كان معروفاً عنه رحمه الله إذا حل المدرسة وافد جديد من المعلمين ولم يكن من الرملة تلقاه هو رفيقاً له. ودليلاً معاوناً حتى إذا استقر في حي من أحيائها سكناً وشراء ما يلزمه وتعريفاً على ما لا بد منه للوافد الجديد.. تركه مطمئناً عليه. راضياً عما صنع له.

وكانت علاقته بزملائه المعلمين علاقة ود وإخاء وتعاون. إذا اعترض أحدهم أمر فيه تعقيد أو إشكال سارع إلى إيجاد الحل وإزالة أسباب الإشكال.

كان الملقب الذي عرف به أكثر مما عرف باسمه العلم.. أو باسمه الكنية. هو لقب مولانا. عرف به في المدرسة أساتذة وطلاباً حتى مدير التربية والتعليم في يافا كان يخاطبه به قائلاً: يا مولانا!

وهو الأستاذ المرحوم طيب الذكر والسيرة إبراهيم أنشاصي.. من أهل رملتنا الغالية وكنيته أبو فيصل كان كريم النفس والخلق.. يغار على الدين والأخلاق. وأي تلميذ عرف عنه ولو كلمة صغيرة مما يمس جانب الخلق أو الدين كان يستسهل كل عقاب من المدير أو أي من المعلمين إلا عقاب مولانا.

كنا نصلي في مدرسة الرملة تدريباً وتعليماً وأداء للواجب. وكان يطل على الطلاب وهم مصطفون للصلاة. فيتهلل وجهه. وتنبسط أساريره. ويقول: اللهم

أنشئهم إنشاء صالحاً. وكان رحمه الله وكثير من المعلمين يصلون مع الطلاب راضين مسرورين. كان يسكن في منزل في الرملة يقع في الجهة الشمالية الغربية من الحاووز. وكانت المنازل على جانبي الشارع الذي فيه منزله وأكثر سكانها ممن يعملون في التربية والتعليم. وكان حظِّي أن أسكن في منزل متواضع في ذلك الحي الصغير.

وقال لي الأستاذ عبد الرؤوف الريماوي(١) رحمه الله: أسكنت هنا في هذا الحي حي المعلمين؟ قلت: نعم. قال: فإذن أنت مرضي عنك من مولانا لأن أصحاب المنازل قبل التأجير يسائلونه: هل نؤجر فلاناً؟ فإذا رضي تم الإيجار.

كان رحمه الله حاضر البديهة.. أنيس المجلس.. خفيف الظل.. يرتاح له كل من يجالسه.. كان مقهى البلور(٢) على طريق يافا القدس مجمعاً للموظفين في الرملة واللد على السواء. وذات يوم كان مولانا يجالس جماعة ليسوا من الموظفين. وليسوا أيضاً ممن اعتادوا أن يجلسوا في هذا المقهى الذي عرفه الناس مكان تجمع للموظفين. وظهر فيما بعد أن هؤلاء الذين كانوا في ضيافة أبي فيصل هم من مسلمي يوغوسلافيا (البوسنة والهرسك) ومن بدو الضفة الشرقية جاءوا عوناً للمجاهدين في منطقة يافا. وتلقاهم أبو فيصل مكرماً مرحباً.

نعم مولانا في عوائده من الأريحية وحب القيام بالواجب كما هو [يحب] الجميع. وكانت مدرسة الرملة يصل عدد تلاميذها أكثر من ألف طالب.. ومن هنا كانت المناوبة تعتمد على ثلاثة معلمين.. هكذا كانت طبيعة المناوبة فيها..

---

(١) عبد الرؤوف الريماوي (١٩١٠-١٩٨٥): ولد في بيت ريما، عمل في سلك التعليم مدرساً ومديراً، استقر في الأردن بعد عام ١٩٦٧.

(٢) اعتادت الكثير من النخب السياسية والفكرية الفلسطينية والعربية ارتياد هذا المقهى.

ولكن مناوبة مولانا كان لا يشركه فيها أحد.. فهو وحيد في مناوبته.. ومع ذلك فالمدرسة في أروع حالات الضبط والنظام.

كان يجوس بين الصفوف رافعاً صوته قائلاً: أنا النشاصي وكلكم تعرفون. نعم كان مرهوباً قوي الشخصية.. ومع ذلك لم يكن بطاشاً ولا ظالماً.

قال المرحوم عبد اللطيف عابدين مدير المدرسة حينذاك: كنت في مكتبي وسمعت من وراء النافذة حديثاً خفياً.. قال أحد الطالبين للآخر: لا تشك المعتدي عليك للمدير. قال الثاني: أوصاني والدي أن أشكوه للمدير. قال الأول: يا أخي الشكوى لغير مولانا ذل!

بلغ عدد المعلمين في تلكم المدرسة سبعة وعشرين معلماً.. وكانوا جميعاً يجلونه ويحترمونه ويأخذون بمشورته في أمورهم العامة والخاصة.

كنت في إجازة مرضية وذهب أستاذ ليشغل عني حصة في صف ثانوي.. وقال الأستاذ متفضلاً بالثناء علي: إن أستاذكم الشيخ عالم فاضل. وهو مع معرفته الأزهرية أديب شاعر. واستمعوا إلى شيء من شعره. فهذه قصيدة له منشورة في مجلة الأديب البيروتية. وقرأ قصيدة من الغزل الواضح. وهنا تبرم الطلاب وتغيرت وجوههم غضباً واستنكاراً على الشيخ الأزهري رجل الدين الورع أن يقول شعراً في الغزل! وكأنما اهتزت منزلتي لدى هؤلاء الطلاب الطيبين.

وعدت إلى الدوام المدرسي فوجدت تذمراً في المدرسة واستنكاراً. الشيخ يتغزل. وجاءني طالب متزن ليقول: ألك هذه القصيدة التي مطلعها:

عـاد الربيـع إلى الربـوع فأبشري بالصفـو يـا ذات الرداء الأحمر[1]

---

(١) بيت من قصيدة «ذات الرداء الأحمر» للشاعر فؤاد كامل.

فأجبته بالنفي. وقلت: لماذا هذه المساءلة؟

فأجاب: الأستاذ فلان نسب القصيدة إليك.. فأجبته مؤكداً نفيي نسبتها إلي.

وتمضي بعض الأيام وإذا بالأستاذ أبي فيصل يزوروني في منزلي ليقول: لقد وقع كل من يلزم توقيعه على هذه الشكوى ولم يبق إلا توقيعك أنت عليها.

وقرأت الشكوى.. وتعجبت منها ومما فيها. وقلت لأبي فيصل: ليس هذا الشعر لي. ومع ذلك ليس قول الغزل جريمة في الأخلاق أو الدين إذا كان الغزل عفيفاً غير متوقح ولا متفحش.

لقد استمع سيدنا رسول الله ﷺ إلى شعر الغزل ولم ينكر على المتغزل العفيف أن يتغزل..

فهذا الصحابي الجليل كعب بن زهير[1] قال بعد إسلامه قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله ﷺ مطلعها في الغزل.. واستمع:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلت   إلا أغن غضيض الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة   لا يشتكي قصر منها ولا طول

قال: ولكن العرف يستنكر على (رجال الدين) أن يتغزلوا في النساء.

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى المازني، أبو المضرب (ت٢٦هـ = ٦٤٥م): شاعر مخضرم من أهل نجد، هدر النبي ﷺ دمه، فجاءه كعب مستأمناً، وقد أسلم، وأنشده لاميته المشهورة ومطلعها: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول» فعفا عنه النبي صلى الله عليه وآله وخلع عليه بردته.

قلت: لم يكن هذا الأمر مني..

قال: ومع ذلك نسب إليك ما لا يليق وهو تعد على مقام رجل دين.

قلت: وما العقاب الذي تظنه يكون لهذا الزميل المتعدي؟

قال: فصله من جهاز التربية أو نقله تأديباً.

قلت: أما فصله فهو جريمة في حق أولاده. وأما نقله فليكن آخر العام نقلاً عادياً ليس مظنه انتقاص.

قال: لم نكن نتصور هذا الموقف منك!

قلت: يا سيدي أبا فيصل أرى القائمين بهذا الأمر مغالين ومسرفين في غلوهم. وتابعت قولي لأقول: لونفرض أنها جريمة وأين والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس. والأمر كله يسير.. لا يستحق هذه الزوبعة. وانتهت القضية المثارة وفي نفوس بعضهم عجب واندهاش.

أعتقد أن أبا فيصل رحمه الله كان في الخمسينات من عمره.. وجاءت النكبة سنة ثمان وأربعين.. جاءت لتكون مؤشر عار وشاهد تفكك بين صفوف الأمة.. ونزح مولانا إلى غزة.. وكانت الصدمة عنيفة غير متوقعة. ألسنا أمة (خل السيف يقول[1])! نعم لم يحتمل الصدمة فتوفاه الله غريباً عن رملته الغالية وبيته المأنوس وذكريات أصدقائه المحبين.

ولعل أستاذنا أبا فيصل كان من مواليد التسعينات من القرن التاسع عشر رحمه الله وأجزل سابغ المثوبة له.

لقد كان طيب القلب رحيماً.

---

(١) أغنية اشتهرت في تلك السنين للفنان محمد كحلاوي.

الحاج توفيق أبو السعود

[توفيق أبو السعود (١٩٠٢-١٩٨١): أكاديمي فلسطين، ولد في القدس، تخصص في علم اللغويات، انتخب أميناً عامل للجنة الوطنية في اللد، عمل معلماً ومديراً ومشرفاً على التعليم في القدس وغيرها من المدن الفلسطينية، اشترك في تأسيس عدد من الجمعيات الفلسطينية مثل جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني وجمعية المقاصد الخيرية].

سنة ١٩٤٥ كنت معلماً للعربية في مدينة الرملة.. وكان تلاميذ مدرسة اللد يأتون إليها بعد إكمالهم الصف الأول الثانوي.

وكانت المدرستان لقربهما ولكثرة التلاقي بين المنتمين إليهما.. كأنهما مدرسة واحدة. ومن هنا كنت أقابل الأنباء الواردة عن مدير مدرسة اللد الأستاذ توفيق أبي السعود بالإعجاب والإكبار. فقد كنت أسمع عن حزمه وكياسته وحبه العربية.. ومع ذلك لم يتيسر لي لقاؤه شخصياً حينذاك.

وجاءت نكبة ١٩٤٨ وتمت حلقاتها واحدة بعد الأخرى.. واستقرت بي الحال معلماً في مدرسة سلواد الابتدائية.

لم أكن عن وجودي في سلواد راضياً ولا مرتاحاً.. وكم أحسست بالراحة المفاجئة حينما تلقيت كتاباً بنقلي من معلم في سلواد إلى معلم للعربية في الرشيدية

في القدس.. شعرت بتغير الـجو ولكن التعب تضاعف.

كان المدير أبو سفيان بروحه ولطفه يخفف من أعباء العمل.. وبالرغم من اكتظاظ الصفوف ووجود التباين في الاستعداد الـمدرسي بين التلاميذ.. فهناك حالات ترتاح لـها النفس.. من ذكاء مشتعل ونفوس طيبة.. وإقبال على التعلم بـنشاط.. كان أبـو سفيان حريصاً على الأخلاق.. ورفعة مستواها حرصه على العلم. ومن هنا كان حرصه على أداء التلاميذ للصلاة.. كمـا كان حريصاً على سلامة العقيدة.. وكثيراً ما كان يشاهد هو إماماً للتلاميذ يصلي بهم.

نشرت قصيدة أتوجع فيها لحالنا.. وللشهداء الذين يتتابع سقوطهم.. موكباً وراء موكب.. وكانت المناسبة أن جماعة من المرضى في المستشفى الفرنسي حينذاك وقد وقع في المنطقة الحرام قضوا نحبهم فيه.. ولم يبق منهم إلا الرفات فأخرجهم الصليب الأحمر بعد سنين ودفنتهم الهيئات الشعبية باحتفال حزين.. وكانت القصيدة ذات طابع حزين أيضاً.

ولـم أنس.. ولن أنسى قولة أبي سفيان لي: أشكرك أشكرك أشكرك على قصيدة الشهداء.. وكان لتشجيعه هذا أكبر الأثـر في استمراري وحرصي على التعلق بالشعر الوطني.. وإذ توثقت أواصر الصلة بين الإذاعة الأردنية وبيني.. علمت فيما بعد أن الذي حث الإذاعة على الاتصال بي هما الأخوان الفاضلان توفيق أبو السعود والشيخ يوسف النجار رحمهما الله.

كانت تقام في الرشيدية احتفالات ترتبط بمناسبات.. وكان الأستاذ يريدني أن أشترك فيها خطيباً.. وكنت أعتذر وأتغيب عن الاحتفال.. فيوجه إلي.. رحمة

الله عليه السلام.. فأعتذر بشعوري بالحرج أمام الجماهير.. فيضحك ويقول: وأي جماهير.. أليسوا من تلاميذك؟

فأقول: بلى ولكن يملأ نفسيَ الحرج والرهبة.. حين الخطابة.

وفي سنة **١٩٥٢** كانت حفلة تخريج للتوجيهية. وحضرتها مستمعاً وخطب فيها الأستاذ المدير أبو سفيان.. وكان رحمه الله ثائراً مثيراً.. بارع الأداء.. جياش العاطفة.. وضرب مثلاً بالمجاهد العالم والإسلامي الكبير عبد العزيز الثعالبي(١).. ضربه مثلاً للإصرار والإباء والإخلاص والوفاء في مقارعة الاستعمار والغطرسة الأجنبية.

ثم تلاه فضيلة الشيخ عبد الرحيم مريش(٢) رحمه الله.. فتكلم على أن خير علاج لأمتنا من كبوتها هو عودها إلى كتاب الله.. تنهج نهجه.. وتتخذه في حياتها دستوراً وإن سلكت هذه الطريق.. فهي مفضية بها إلى العزة والوحدة.

وفاجأني عريف الحفلة التلميذ النابه حينذاك السيد شحادة الأنصاري(٣) بقوله: والآن سيلقي علينا خطيب الحفلة أستاذنا.. كلمته التوجيهية.

وقلت له فوراً: أنا لست من الخطباء.. ولم يجب بشيء.. ورأيت أبا سفيان

---

(١) عبد العزيز الثعالبي (١٨٧٥-١٩٤٤): مفكر تونسي وزعيم مناضل، تأثر بمحمد عبده ورشيد رضا، اشتغل في تونس بالصحافة والسياسة، وعرف عنه معاداته للاستعمار، اعتقل عدة مرات، ترأس حزب الدستور، له العديد من المؤلفات.

(٢) عبد الرحيم مريش: ولد في الخليل، عمل في التدريس في مدارس القدس، وعمل مشرفاً تربوياً.

(٣) شحادة الأنصاري: ولد في القدس، درس في مصر، كان من نشطاء جماعة الإخوان المسلمين في خمسينيات وستينيات القرن الناضي.

يشير إلى أن أتقدم.. ووقفت وراء المنصة.. وقلت في نفسي: لا بد مما ليس منه بد.. فانطلقت في حديث استقيته من كلمتي الأستاذين الفاضلين رحمهما الله.. وتذكرت شيخنا في الأزهر (شلتوتا[١]) رحمه الله وهو يخطب.. فحاولت أن أقلده.. كانت فرائصي ترتعد.. وإحدى رجلي تهتز.. ولكني استمررت أخطب كأنني خطيب.. حتى انتهيت وإذا بالقاعة يضج بها التصفيق.. وقال أبو سفيان مشجعاً حافزاً.. كلمة رائعة.. أحسنت.

هكذا كان الحاج توفيق أبو السعود عامل خير ومصباح دلالة.. ودليل خلق ووطنية. وهل ينسى أحد أن العامل المباشر لبناء كلية الهندسة في بئر زيت هو كبير أمناء جامعة بئر زيت بتبرع العقاد[٢] السخي؟

قمت بزيارته في مرضه الأخير أنا والأخ فضيلة الشيخ محمد نافع[٣].. فكان رغم المرض مبتسماً في حيوية رائعة تملأ نفوس زائريه أملاً وثقة بشفائه.

رحمك الله يا أبا سفيان.. ستبقى في ذاكرة أمتك من الخالدين.



(١) انظر ترجمة شلتوت في مقالة محمود شلتوت، ص٩٢.

(٢) عمر العقاد (١٩٢٧): رجل أعمال فلسطيني مشهور، ولد في غزة، عمل رئيسا لعدة بنوك عربية وأجنبية، أسس شركة العقاد للاستثمارات في السعودية، عضو مجلس أمناء مؤسسة الدراسات الفلسطينية، عضو مجلس الصندوق القومي الفلسطيني.

(٣) محمد نافع (١٩٤٧): مدير أوقاف رام الله السابق، ولد في القدس، درس في الأزهر، عمل مدرساً في أكثر من مدرسة، ساهم في كتابة حديث الجمعة في جريدة الفجر المقدسية، اعتقله الاحتلال عدة مرات.

راضي عبد الهادي

[راضي عبد الـهادي (١٩١٠-١٩٨٢): وكيل مساعد في وزارة التربية والتعليم، ولد في نابلس، درس في القدس ودمشق، تخرج من الكلية العربية في القدس عام ١٩٢٦، عمل مدرساً ومديراً في المدارس الفلسطينية، أسس مع آخرين جمعية الشبان المسلمين في نابلس، متصرف لواء الكرك ثمَّ البلقاء، ألف عدداً من الكتب المدرسية في مواضيع مختلفة].

سنة ١٩٥٧ كنت لا أزال معلماً في ثانوية رام الله. في تلك السنة ذاتها أصابني التهاب الوريد وعطلني عن مواصلة القيام بعملي.

رقـدت في مستشفى رام الله حيناً. ثـم أحببت أن أواصل العلاج في منزلي الذي أقطن فيه في البيرة.

لا أزال أتخيل مدامع الأستاذ المرحوم راضي عبد الهادي تتساقط على مكتبه وهو مكب عليه. واضعاً رأسه بين يديه.

هذه العبارة تلفظ بها جاري في مدينة البيرة السيد محمد عودة* الموظف في مكتب التربية في القدس حينذاك.

وسألته: لماذا يبكي أبو وائل؟

قال: حينما جئت أنت في شأن مرضك بالأمس إلى المكتب مستعيناً بعصا

تتكئ عليها.. ثم خرجت من عنده ذاهباً.. دخلت عليه لبعض الأمر. فوجدته كذلك.

وسألته: لماذا تبكي يا عمي أبا وائل؟

قال: أبكي لهذا الشيخ الذي خرج لتوه من عندي.

ـ ولماذا؟

ـ هذا شيخ أعرف أنا ظروفه وكبير مسئوليته. ومدى جهده. وهو محسن في أداء واجبه. إلى شاعرية مستفيضة. ومع ذلك يصاب بهذه العراقيل!

ـ شفاه الله لكن لا تبك يا عم أبا وائل.

وواصل جاري حديثه ليختمه قائلاً: هكذا كان أبو وائل!

وأطرقت قليلاً. وقلت لجاري: ليس غريباً على إنسان نبيل. عميق الحس أن يتعاطف مع الناس.. ولا سيما من يصابون بأثقال الحياة وأرزائها.

كنت مرة في مكتبه في القدس لبعض شأني.. ودار الحديث عن الشعر فقال لي: سررت جداً بطلبك من الهيآت الأدبية القيام بطبع ديوان المرحوم عبد الرحيم محمود. ذلك الشاعر ذي الوجدان الإنساني النبيل. وأردف ليقول: هل تدري أن هيئة محلية طبعته.. وهذه نسخة أهديت لي. وأنا أقدمها لك لتقوم بدراسة عنه. وشكرته ووعدته بإرجاع النسخة الهدية إليه. وجاء أبو وائل رحمه الله في بحر الأسبوع إلى مدرسة رام الله الثانوية.. ليقول لي: شكراً لك. وتقديراً على دراستك عن الديوان التي أذيعت أمس.. وقد سر بها كل من استمع إليها.

قلت: الحمد لله.. وما صنعت إلا واجبي. وشكراً لك على تشجيعك. وإعارتك لي الديوان.

وقـد شهر أبو وائل بأخلاقه وحبه أمته. والأخذ بيد من كبا[1] بـهم الزمن. وكان يؤثر الدقة والنظام مع كريم لطفه. معلماً ومديراً ومديراً لمكتب التربية. وكان للمعلمين مرشداً حانياً.. ومع أن المدارس تشعر بضيق وحرج إذا زارها المفتشون. ولكن راضياً رحمه الله كانت المدارس تشعر بمسرة ورضاً إذا زارها.

كان بعض المديرين يتعالى بكونه مديراً. ويعامل المعلمين معاملة مدير (عالي المقام) لا تباع له (أدنى منه شأناً) وسلاح التقرير السنوي في يده سيف مسلط مخيف.. كان راضي رحمه الله ضد هذا التصرف من بعض المديرين. كان شاعراً دقيق الحس. يريد أن يبني النفوس قبل الهياكل المادية. كان يقسو على كل مدير يستغل كونه مديراً.. كان بتصرفه يقول: أنا مع الضعاف.

حادث رجلي الذي أتعبني في حياتي التعليمية.. اضطرني أن أطلب انتقال عملي من رام الله إلى سلواد. لأكون قريباً من والدتي رحمها الله. فأخدمها بنفسي.. وتملأ نفسي بروائع حكاياتها.

فأجابني: ومع شديد حاجة المدارس في القدس أو رام الله إلى معلم العربية فسأعمل على تلبية طلبك إن شاء الله، وشكرته ممتناً.

وكانت اعتبارات تقتضي إبقائي في رام الله أو نقلي إلى الرشيدية في القدس وأصر رحمه الله على تلبية طلبي. وقال: راحة النفس تساعد على صحة الجسم.

وراضي من مواليد نابلس من أسرة عريقة. ولد سنة **١٩١٠** وتنقل في تعلمه من نابلس إلى دمشق إلى القدس. وبعد تخرجه في دار المعلمين سنة **١٩٤٦** عين

---

(١) أي: الأخذ بيد من تعثر بهم الزمن، ورد في لسان العرب أن الكبوة: «الوقفة، تكون عند الشيء يكرهه الإنسان يدعى إليه أو يراد منه كوقفة العاثر». ابن منظور، مصدر سابق. ١٥/ ٢١٣.

في الرملة أستاذاً للاجتماعيات. وقد واصل التقارب بين المدارس لإنماء مشاعر الشباب الدينية والفلسطينية.. وقد عمل على إنشاء جمعية الشبان المسلمين بيافا. وظل يتنقل في وظائف رسمية أردنية إلى أن أحيل إلى التقاعد ١٩٦٧.



ربحي العارف

[ربحي العارف (١٩٠٧-١٩٨٤): تربوي فلسطيني، ولد في القدس، تلقى تعليمه في الكلية العربية، كان مديراً لمدرسة سلواد في ثلاثينيات القرن الماضي، انتدب للتعليم في الكويت، عمل رئيساً للبعثة الكويتية التي كانت تأتي لفلسطين لاختيار معلمين للعمل في الكويت وذلك في سنوات الخمسينيات، مدير المعارف في الكويت سابقاً].

كان إضراب ١٩٣٦ إضراباً عارماً. تفجرت فيه القوى الشعبية. في حنق غاضب على الانتداب البريطاني. ذلك الإضراب الذي تحول إلى ثورة شعبية متأججة على الأوضاع. وقد عمَّت الثورة وترامت فشملت البلاد. مدنها وقراها.. وكانت أنباء متوجسة مترقبة تملأها الخشية والخوف. وخلاصتها أن قائد الثورة الأكبر فوزي القاوقجي[1] وثواره معه. محاصرون في وادي الخشنة في شمال فلسطين.

وتقول الأنباء: إن قوة بريطانية من قوى الانتداب هي التي قامت بالحصار. وما مقدار هذه القوة؟ تقول الأنباء: إنها عشرات الألوف!

---

(١) فوزي القاوقجي (١٨٩٠-١٩٧٧): ضابط في الجيش السوري وقائد جيش الإنقاذ في حرب عام ١٩٤٨، ولد في طرابلس، أصبح ضابطاً في الجيش العثماني عام ١٩١٢، عمل في خدمة الملك فيصل، ساهم في تشكيل الجيش السعودي، شارك في ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، توفي في بيروت.

وأصبح القاوقجي وجماعته وجهاً لوجه. مع هؤلاء الإنجليز الذين يملكون الطيارات والسيارات الحربية على اختلافها.

وتسارع الفلسطينيون من شتى أنحاء فلسطين مدججين بالسلاح. بنادق على اختلافها. وفئوس وبلطات وخناجر.. إلى آخرين تسارعوا بإيمانهم وأيديهم الخاوية. وكان لسلواد إسهام واضح في هذه النجدة الغاضبة.. وقد هب من أبنائها حينذاك نحواً من أربعين أو خمسين.

بلغ عدد الثائرين من أهل فلسطين نحواً من مائة وسبعين ألف مقاتل(١). كما تردد في روايات من حضروا للإنجاد. وأحاط المنجدون بالقوة البريطانية.. طوقاً أكثر عدداً وكثافة وحماسة.

وكانت الأنباء العالمية تتوقع ملحمة كبرى يكثر ضحاياها من الجانبين.

وجاء الحل المتعقل.. فقد تدخل الوسطاء بطلب فتح طريق للقوات البريطانية حتى تنسحب. ثم رجوع كل جماعة إلى مقرها. وانفضّ الطوق عن القائد القاوقجي.

ورجع أهل سلواد يحيطون بقائدهم حينذاك المرحوم محمد خلف(٢) أو كما

---

(١) لم يتجاوز عدد المنخرطين في فصائل الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ حسب أغلب المصادر التاريخية ثمانية آلاف مقاتل، لكن تجمعات كبيرة للمقاتلين في الأرياف كانت تعمل في نطاق الثورة ضمن نظام الفزعات، وتقدر بعشرات الآلاف.

(٢) محمد أحمد الشيخ خلف عطية أبو النمر (١٨٧٣-١٩٧٠)، ولد في سلواد، التحق بالكلية العسكرية في إسطنبول في العام ١٨٩٥، وتخرج منها ضابطاً، شارك مع الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، انضم إلى البوليس، وخدم في القدس إبان الانتداب البريطاني، شارك في ثورة ١٩٣٦م.

كان يلقب أبو نمر. وزحف كثير من أهل البلد لملاقاة العائدين يتقدمهم مدير المدرسة الأستاذ ربحي العارف. كان الأستاذ يلبس بدلته الرمادية. وهو الوحيد الذي كان يلبس طربوشاً. فكان بذلك يلفت إليه أنظار الزاحفين للقاء.

كانت طلقات بنادق العائدين متتابعة. ابتهاجاً بعودتهم وتحقيقهم ما أرادوا. ووصل العائدون وفي أرض فسيحة جلس الجميع.

وهنا يعتلي على صهوة صخرة مرتفعة الأستاذ ربحي العارف[1]. ويعم الحاضرين سكون مشوب بالترقب وتتصوب الأنظار نحو المدير على صخرته العالية.. وينطلق ليقول مرتجلاً.. وأستعيد من خطبته ما علق بذهني قدر ما أتذكر:

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أحفاد أبي عبيدة[2].. يا شباب الأمة الذائدين عن حياضها.

سلام الله عليكم. ورعاكم حيثما تكونون.

إن قيود الظلم... وسلاسل الغاشمين الطغاة لن تحطمها إلا قبضات الشباب. وعزائم الثائرين.. الذين لا يقرون ولا يرضون استبداداً غاشماً.. وظلماً متعجرفاً متسلطاً.

---

(١) تم استقبال المجاهدين عند عراق الخاروف، وهي صخرة ضخمة مشهورة أثيرت حولها بعض الأساطير. وكانت في حينه آخر العمار في البلدة من جهة الجنوب.

(٢) يعتقد بعض كبار السن في سلواد أنهم ينحدرون من نسل الصحابي الجليل أبي عبيدة، وهو أبو عبيدة بن الجراح الفهري أمين هذه الأمة، وأحد العشرة من السابقين، اسمه عامر بن عبد الله الجراح، اشتهر بكنيته والنسبة إلى جده، شارك في الفتوحات الإسلامية في العراق وبلاد الشام، توفي في طاعون عمواس الشهير في فلسطين.

وهنا تـنطلق العيـارات النارية.. تـشق أجواز الفضاء.. في أصداء ترددها بطون الأودية العميقة. واستمر الـخطيب على هذا النحو من العبارات المثيرة قدر نصف ساعة. وهنا يترجل أو ينزل من على الصخرة ليعانق هؤلاء الشباب العائدين واحداً بعد آخر.

كان الناس يتحادثون فيما بينهم فيقولون: هذا الأفندي المتواضع ليس من أبناء المدن المتعالين. وكانوا يتعاملون معه على أنه ابن قريتهم. ويكنون له بالغ الاحترام ووافر المحبة.

كان أبو زياد رحـمه الله مسئولاً تربوياً كبيراً في دولة الكويت.. وكان أهل سلواد.. ولا سيمـا الذين تتلمذوا عليه تربطهم به صلات من الود وثيقة.. فلا يعترض أحدهم عائق أو يقع في مشكلة إلا لجأ إليه. لينقذه مما وقع فيه.

وفي صيف سنة ١٩٥٥ أخبرني الأستاذ الصديق أحمد بدوي كمال[١] رحمه الله بعودة أبي زياد إلى منزله في القدس ليقضي فترة عطلة الصيف بين أهله وذويه قائلاً: هل تحب أن تسلم عليه؟ فأجبته: نعم. ثم رجوته ألا يخبره عني أو عن اسمي.. حتى نرى هل يعرفني بعد غياب نحو عشرين عاماً.

واستقررنا في منزل أبي زياد بعد تبادل عبارات التحية والمجاملة. وأخذت نظرات التفرس أو التعرف تنطلق بيننا.. وطلب أبو زياد من أهل بيته إعداد الشاي

---

(١) أحمد بدوي كمال (١٩٠٤-١٩٧٩) : ولد في القدس، درس في الكلية الأهلية، ثمَّ أصبح مدرساً في مدرسة سلواد لمادتي الرياضيات والدين، كما كان ناشطاً كشفياً، وهو من الأشخاص الذين نصحوا الشيخ فتح الله للدراسة في الأزهر، زامل الشيخ فتح الله في التدريس بعد النكبة في مدرستي العمرية والرشيدية.

وتناولنا الشاي في كئوس صغيرة سماها الأستاذ (استكانات[١]).

وقلت: لا يزال الأستاذ يحب العربية ويستعملها في لغة التخاطب.

فقال: نشأنا عليها.. وجبلت بها نفوسنا.. وهي لغة الكتاب الكريم.

وقلت: ألاحظ على واجهات منزل الاستقبال صوراً بأوضاع شعرية.. تلفت الأنظار.. فهل أستاذنا فنان أو مغن.. أو شاعر؟

قال: أحب الفن والشعر ولست فناناً ولا شاعراً.

ثم نظر مستفسراً وقال بلهجة يشوبها ابتسام رقيق: أرى ضيفنا الكريم يتحدث عنا ويشرح أوضاعنا النفسية ونحن لا نعرفه!.

قلت: أمر المعرفة عليك. وأستطيع أن أقول: لم أتتلمذ عليكم.. ولو بقيت في المدرسة لكنت تلميذاً لكم.

قال: في أي بلد وفي أي مدرسة وفي أي فترة من التاريخ؟

قلت: لو أجبت بالدقة عن هذه الأسئلة فلن يخفى أمري على الأستاذ الفاضل.

قال: وكيف أعرفك ولي في الكويت سنون وسنون!؟

قلت: أحكي قصة فيها نوع توضيح. لقد كنت مديراً لمدرسة بلدة كذا

---

(١) جمع مفردها استكان، وهو كوب الشاي، وأصلها إنجليزي، نقلها الجنود الإنجليز وقت الاستعمار البريطاني للدول العربية، وهي مجموعة كلمات، east أي الشرق، tea أي شاي، can أي إناء، ومجموعها: east tea can والمقصود: قدح الشاي الشرقي.

انظر http://www.t22b.com/vb/showthread.php?t=6458

واستقبلت أبناءها إذ عادوا من رحلة إنجادهم للقائد القاوقجي. وقد أحاط به جيش الانتداب. لقد استقبلت الأبناء العائدين بخطبة حماسية رائعة. ارتجلتها وقد علوت صخرة عالية بعض العلو كأنها منبر مرتفع.

فأطرق الأستاذ برأسه يستعيد الماضي وأخذ يقسم نظره بين الفراغ وبين النظر إلي ليتفرس.

وهنا قلت منجداً معيناً بحادثة متميزة فقلت:

يا أستاذنا الفاضل تعلمون أن الأزهر الشريف يشترط فيمن يريدون الانتساب إليه أن يحسنوا العربية نطقاً وكتابة.. ولم أكن أعرف من القواعد شيئاً.. وطلبت منكم شهادة مدرسية. فأردت امتحاني بها. فأمليت علي شيئاً أكتبه على اللوح. ولست أدري مدى رضاك عما كتبته. ثم سألتني: ما الفاعل؟

استغربت أنا السؤال. ومع ذلك أجبت قائلاً: الفاعل الذي يشتغل في الورشة.

وهنا الطامة لقد انفجر بعض الأساتذة ضاحكاً، كما أخذ طلاب الصف السابع يتضاحكون في سخرية وتشف معاً، وقال أحدهم: (هذا بدو يصير شيخ!) وسألتني: إلى أي صف وصلت؟ قلت: الرابع، ومن كان يعلمك؟ قلت: الأستاذ بدوي كمال والشيخ عبد الرحمن الريماوي[1]، وماذا كانت درجتك؟ قلت: الأول. وهنا قلت: الأول الأول. كأنك تستنكر، وقلت على الفور: لعل سجلات المدرسة

---

(١) الشيخ عبد الرحمن الريماوي: ولد في قرية دير غسانة قضاء رام الله، درس العلوم الشرعية في الأزهر، درَّس في مدرسة سلواد في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، وهو من أقارب الشيخ علي الريماوي.

موجودة؟ فأجابني الأستاذ: عرفتك أنت ابن أخي الحاج عبد العزيز.

قلت: نعم.

ثم قال الأستاذ: لقد كان امتحاني لك توفيقاً من الله.

قلت: وكيف؟

قال: لقد حفزك ذلك الموقف لتجد وتجتهد حتى كنت أحد المختصين في العربية.. وأنا وأمثالي تلاميذ عندك.

قلت: استغفر الله العظيم يا سيدي الأستاذ بل أنت والأستاذ أبو عبد الله وأمثالكما أصحاب الفضل أولاً وآخراً.. والفضل كله لله.

رحم الله هؤلاء الأساتذة.. لقد مضوا ومضت أيامهم.. وهم لديّ لا يزالون أحياء في عالم الذكريات.. أتذكرهم حيناً بعد حين.



الأستاذ عبد اللطيف عابدين

[عبد اللطيف عابدين: وزير التربية والتعليم الأردني السابق، ولد في الخليل، تنقل في عدة وظائف في سلك التربية، وكان مدرساً ومديراً ثم مديراً لمديرية التربية والتعليم في الخليل، عاش في الأردن حتى وفاته].

السنة هي ١٩٤٥ وقد رتبت وظيفتي في دائرة المعارف الفلسطينية.. كما كانت تسمى حينذاك.. في المدرسة الثانوية في الرملة البيضاء ذات المسجد الأبيض. وقد أعلمني مدير المدرسة السيد عبد اللطيف عابدين رحمه الله أنني سأعلم مادة التربية الإسلامية ومادة العربية في صفوفها الثانوية.

وكان المدير لا يرى إلا هاشاً باشاً في تودد ولطف مع المعلمين.. وكان عدد المعلمين يدنو من العشرين.. والمدرسة كانت كبيرة.. ذات شعب ابتدائية وثانوية.. ووصلت صفوفها الثانوية الثالث الثانوي. وكان أبو الحاج كما كان يسميه المعلمون حازماً مهذباً عقلانياً يتحاشى التصادم مع المعلمين.. ولكنه يحل المشاكل بلطف وحسن صنيع.

وبدأت العمل. كان اليوم الأول برفقة معلم العربية السابق. الذي عين مفتشاً للتربية الإسلامية الأخ المرحوم الشيخ علي صبري[1].. تولى هو الشرح

(١) انظر ترجمة صبري في مقالة علي صبري ص١٦٢.

والتعليم والتعامل مع التلاميذ.. وكأنما أراد بذلك إرشادي وتوجيهي.. وقلت في نفسي لعل هذه رغبة المدير أيضاً.. وفي الحق أني شكرت لهما هذه العناية بي وبتوجيهي.

وذات يوم فاجأني أبو الحاج بهذا السؤال: هل يجوز أن تقام جمعتان في بلد مثل الرملة؟ وأجبته: إذا كان المسجد يتسع لعامة أهل البلد.. فلا يجوز التعدد. قال: المسجد كبير.. وقد رأيته ولا يملأه المصلون.. ومع ذلك أراد الأخ (...) أن يقيم جمعة ثانية في المدرسة.. الأمر الذي أثار احتجاج أهل الرملة. ولا سيما المشايخ. قلت: الناس بحاجة إلى توثيق لا إلى تفريق. قال: وإذ قلت له لا ينبغي في البلد الواحد ما دام المسجد الواحد متسعاً إقامة جمعة ثانية.. غضب واتهم الإدارة بمحاربة الدين. قلت: الحكم الشرعي واضح.. لا ينبغي التعدد في مثل مدينة الرملة.

وقد كان أبو الحاج على معرفة بالعربية ناضجة. فقد كان قد اجتاز ما يسمى (الامتحان الأعلى) وكان معمولاً به فترة الانتداب البريطاني. كما كان شغوفاً بتزويد نفسه بالمعرفة، ومن هنا فقد كان وزنه للمعلمين وأدائهم ومعرفتهم وزناً صادقاً. (فوجئت ذات يوم بتقديم عريضة طلب مني أن أوقعها.. وقرأتها قبل التوقيع.. وإذا بها تتضمن.. أثناء غيابي في إجازة مرضية.. ذهب أحد الزملاء بالنيابة عني ليقوم بأداء درس في العربية فلم يجد إلا الثناء على أستاذ العربية في المدرسة وقدرته الممتازة وأنه شاعر وأديب.. ومن شعره هذه القصيدة الغزلية المنشورة في مجلة الأديب البيروتية والتي مطلعها:

عاد الربيع إلى الربوع فأبشري   بالصفو يا ذات الرداء الأحمر

واستنكر بعض التلاميذ أن يكون للشيخ شعر غزلي.. وثاروا وفزعوا إلى المدير وأولياء الأمر واستنكر بعضهم صحة نسبته إلى الشيخ.. وإذ رجعت من إجازتي المرضية سألني بعض التلاميذ المشفقين علي: أأنت قلت هذا الشعر وأراني بعضاً من القصيدة فأجبته بالنفي.. وأعلمته أنها لشاعر لبناني وهي منشورة في مجلة الأديب.

وإذا بالتلاميذ وبتنسيق مع الأساتذة يقدمون باسمي دعوى إلى مدير التربية المرحوم مصطفى الدباغ[1] وبتواطؤ معه.. يطلبون فيها فصل المعلم من عمله بتهمة التزوير والقدح.

وأخذت الشكوى وذهبت إلى المدير وبعض المعلمين.. وقلت لهم: ما هو موقفي أمام الله حينما أكون أنا السبب في قطع رزق أسرة هذا الزميل وجوع أطفاله؟

قال بعضهم: لقد جنى هو على نفسه.

قلت: ألا نكون متسامحين؟ قال المدير: بلى.. وأحسن الله إليك.

وبعد سنة ٤٨ وفي الخمسينات استقر أبو الحاج مديراً للتربية في القدس.. وفي تلك الأثناء حصلت مشكلة بين مدير مدرسة في القدس وحارس فيها تهجم على المدير.. كان يربطني بالحارس قرابة ما.. وكان المدير من تلاميذي ورجوته بالتسامح مع هذا الحارس.. لكن القضية وخلاصتها طلب فصل هذا الحارس.. أصبحت في يد مدير التربية.

---

(١) مصطفى مراد الدباغ (١٨٩٨-١٩٨٩): ولد في يافا، خدم في الجيش العثماني، عين مديراً في المنشية في يافا ثم مدرسة الخليل، ومفتش للمعارف في نابلس، لجأ إلى سوريا، عين وكيلاً لوزارة المعارف الأردنية في الخمسينيات، ثم مديراً للمعارف في قطر، نشر العديد من الكتب.

وذهبت إلى مدير التربية السيد أبي الحاج. فقال: أنا لم أرفع القضية إلى معالي الوزير.. وإذا تسامح مدير المدرسة وسحبها فأنا موافق.. وجاء مدير المدرسة وسحبها وانتهت. وإذ كنا في حجرة مدير التربية أبي الحاج تلفت إلي ضاحكا وقال: أنت أنت.. تحب التسامح في المشاكل.. هل تذكر مشكلة الرملة؟ قلت: أذكر. وأنت لك فضل الاستجابة يا أستاذنا.

وجاء مفتش للعربية علي وأنا في سلواد.. ولـم يـجر بينه وبين الصف شيء يذكر.. وأراد أن يكتب في حق المعلم أنه ضعيف. وقال له بعض المعلمين: هل يصدق أحد هذه النتيجة؟ فقال المتفش: أكتب أنه متوسط. وعلمت بالقضية وذهبت إلى مدير التربية وقلت له: تبعثون لنا مفتشين لا يحسنون التفتيش.

فقال: ماذا جرى؟

وحدثت مدير التربية بما جرى.

فقطب بين عينيه مندهشاً وقال: لا تهتم بهذا الـموضوع سأبحثه أنا. وإذا بالباب ينفتح وإذا بالقادم المفتش نفسه.

وقلت متابعاً: هذا الأستاذ المفتش جاء.

وقال المفتش فوراً وقد عرف بحدسه القضية: التفتيش أمانة.

وأجبته فوراً: وما قلت أنا أن التفتيش خيانة.. وتداركت قولي فقلت: وإنه لدراية وفطانة.

وهنا نظر المفتش محتاراً وإذا بمدير التربية يشير إليه بالخروج ولم يطل الزمن حتى صدرت إرادة ملكية بتعيينه وزيراً للتربية والتعليم.

وقد كان رحمه الله عملاً دءوباً.. ونفساً تواقة لمعالي الأمور.. وظلاً للعدالة لا يظلم.. ما علم ذلك.. في ظل إشرافه.. أحد أحداً.

رحمك الله يا أبا مازن فقد كنت مثالاً للعامل المخلص بإحسان وإتقان ولن ينسى العارفون ذكراك.



المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

أولاً: المصادر

١. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، بيروت، دار المعرفة، ط: بلا.

٢. أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق الألباني، بيروت، دار الكتاب العربي، ط: بلا، سنة النشر: بلا.

٣. أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم، **الأمالي في لغة العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط: بلا، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٤. أبو عيسى الترمذي السلمي، محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط: بلا، سنة النشر: بلا.

٥. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، بيروت، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤٠٥هـ.

٦. الأصفهاني: أبو الفرج، **الأغاني**، تحقيق: سمير جابر، بيروت، دار الفكر، ط٢، سنة النشر: بلا.

٧. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه المعروف صحيح البخاري**، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، مكان النشر: بلا، ١٤٢٢هـ.

٨. البيهقي، أحمد بن الحسين، **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، جدة، مكتبة السوادي، ط١، سنة النشر: بلا.

٩. التنوخي البصري، المحسن بن علي بن محمد، **الفرج بعد الشدة**، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، ط: بلا، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٠. الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر، **المستقصى في أمثال العرب**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٧.

١١. الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ط٢، ١٤٠٤-١٩٨٣.

١٢. الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط: بلا، مكان وسنة النشر: بلا.

١٣. المروزي، محمد بن نصر بن الحجاج، **السنة**، تحقيق: سالم أحمد السلفي بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٤. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ المعروف صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط: بلا، سنة النشر: بلا.

١٥. الهندي البرهان فوري، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

ثانياً: المراجع

١٦. الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، الرياض، دار المعارف، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٧. الألباني، محمد ناصر الدين، **السلسلة الضعيفة**، مكتبة المعارف، ط: بلا، الرياض، سنة النشر: بلا.

١٨. بركات، بشير، **شخصيات القدس في القرن العشرين**، القدس، مؤسسة دار الطفل، العربي، ٢٠١٠.

١٩. الحسيني، إسحاق موسى، **الإخوان المسلمين كبرى الحركات الإسلامية المعاصرة**، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٥٥.

٢٠. الحوت، بيان نويهض، **القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨م**، كفر قرع، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٦٨.

٢١. شاهين، أحمد عمر، **موسوعة كتَّاب فلسطين في القرن العشرين**، غزة، منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق، ط٢، ٢٠٠٠م.

٢٢. الشريف، كامل، **الاخوان المسلمين في حرب فلسطين**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ط١، ١٩٨٧.

٢٣. العقيل، المستشار عبد الله، **من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة**، بيروت، دار البشير، ط٧، ٢٠٠٨.

ثالثاً: معاجم وقواميس

٢٤. ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط: بلا، مكان النشر: بلا، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢٥. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، بيروت، دار صادر، ط١، سنة النشر: بلا.

٢٦. رينهارت بيتر آن دُوزِي، **تكملة المعاجم العربية**، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، من ١٩٧٩-٢٠٠٠.

٢٧. عمر، د. أحمد مختار عبد الحميد، وآخرون، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب ط١، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٢٨. مرتضى الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية، ط: بلا، مكان وسنة النشر: بلا.

٢٩. مسعود، جبران، **الرائد معجم لغوي معاصر**، بيروت، دار العلم للملايين، ط٧، ١٩٩٢.

٣٠. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، **المعجم الوسيط**، دار الدعوة، ط: بلا، مكان وسنة النشر: بلا.

٣١. اليسوعي، الأب لويس معلوف، **المنجد في اللغة والإعلام**، بيروت، دار المشرق، ط٣٨، ٢٠٠٠.

رابعاً: حوليات ومجلات وصحف

٣٢. جريد القدس، الجمعة ١٠/ ١١/ ٢٠٠٠

٣٣. جمعية إنعاش الأسرة، **مجلة التراث والمجتمع**، العدد ٥٥، ربيع ٢٠١٣.

٣٤. مؤسسة الدراسات المقدسية، **مجلة حوليات القدس**، العدد ١٢، شتاء ٢٠١١.

٣٥. نادي سلواد، **مجلة صوت سلواد**، حزيران ١٩٩٣.

خامساً: مواقع إلكترونية:

٣٦. http://www.t22b.com/vb/showthread.php?t=6458.

٣٧. موسوعة الوكيبيديا الإلكترونية.

٣٨. الموقع الإلكتروني لجامعة الأزهر.



فهرس المحتويات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة



الشيخ فتح الله السلوادي من الشخصيات العلمية المرموقة، بوّأه علمُه ارتقاءَ منبر المسجد الأقصى، وشغل منصب المفتي في محافظة رام الله والبيرة، وكان مؤلِّفاً ترك تراثاً حافلاً، وكاتباً نشر مقالاتِه في الصحف الفلسطينية لأكثر من نصف قرن، ووُصف بأنه شاعر الوطنيات والحكمة والمناسبات.

وهذا الكتاب تراجم شخصيات التقاها الشيخ فتح الله السلوادي في حياته، من علماء وأدباء ومفكّرين، ونشطاء سياسيين ومسؤولين من أقطار عربية مختلفة، تمنحنا تأريخاً لجانب من الواقع الفكري والسياسي والأدبي في منطقتنا، خصوصاً في مصر وفلسطين، كما عايشه وفهمه الشيخ طوال أكثر من ستين سنة.

وفي هذه الصفحات تصوير لحياة الطلبة الفلسطينيين الأزهريين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، واهتماماتهم المختلفة، وطرائق تعلمهم، وسلوكهم الاجتماعي، والقضايا الفكرية والأدبية التي كانت تشغل بالهم، بما يبرز دورهم الفكري والسياسي والاجتماعي الذي اضطلعوا به بعد تخرّجهم.

وفيها حواراتٌ فكرية وفلسفية شغلت كثيرين من أبناء ذلك الجيل، وتناولٌ لبعض الأحداث السياسية والتجارب الحزبية والثورية، وتبيان لجانب من الهموم الثقافية والأدبية التي شُغِلَ بها مثقفون وأدباءُ وشعراءُ فلسطينيون وعربٌ في حِقَب زمنية مختلفة، وتصوير لمشاهدَ من واقع التربية والتعليم في فلسطين إبّان الانتداب، وتوثيق لشيء من واقع الصحافة في فلسطين منذ خمسينيات القرن الماضي حتى أواخِر تسعينياته.

أزْوِقَة للدّراسات والنّشر
هاتف وفاكس: ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب: ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني: info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني: www.arwiqa.net

